أسماء الله الحسنى

للأمام بن القيم

المكتبة التوفيقية

١٣,٧٥ ج

وصفاته العليا

دراسة تطبيقية ونظرية

من مؤلفات شيخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١-٧٥١هـ)

جمع وإعداد وتحقيق

عماد زكي البارودي

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد...

فإن الله -عز وجل- خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فهو وحده المستحق بجميع أنواع العبادة، وذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير، عالم الغيب والشهادة الذي استوى في علمه ما أسر العبد وما أظهر، الذي علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وما يعزب عن ذلك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

هو الملك الحق الذي بيده ملكوت كل شيء، لا شريك له في ملكه ولا معين، الذي أودع في فطرتنا الاستعداد للتوحيد، والانجذاب إليه فيما لو تركت النفس بدون مغير كما قال الله -عز وجل- في الحديث القدسي: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأقلتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»(١).

كما أودع الله -عز وجل- في هذا الكون من الآيات الباهرات التي تدل عليه سبحانه وأنه وحده خالق هذا الكون ومدبره، وأنه مقابل ذلك المستحق بعده للعبادة،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة أهل النار، من حديث عياض بن حمار المجاشعي -رضي الله عنه-.

ومع ذلك لم يكتف بهذا الاستعداد الفطري للتوحيد، والآيات البينات في كونه الدالة على ذلك، بل أرسل إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق يدعوننا إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، ويعرفوننا بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، لتكون فيصلاً لنا في معرفة ديننا.

ومن الأمور التي دلت عليها الرسل وفصلتها لعباده معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته، لكي يعرف العباد بها خالقهم ورازقهم ومعبودهم سبحانه، حتى يقدروه حق قدره، ويعظموه حق تعظيمه، ويقدسوه حق تقديسه، ويسبحوه حق تسبيحه، وينزهوه حق تنزيهه، ويعبدوه حق عبادته.

ومن هنا تأتي أهمية معرفة «**أسماء الله الحسنى وصفاته العليا**» لأنه بالإيمان بها تدل على ما تقدم، إلا أن الإيمان بها لا يتم على الوجه الصحيح إلا في وجود ثلاث ركائز مهمة نذكرها على سبيل الإجمال:

الأولى: تنزيه الله عز وجل مشابهة خلقه كما قال: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١].

والثانية: قطع الطمع عن إدراك كنهها، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، ويؤخذ هذا من قول الله -عز وجل-: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ [طه:١١٠].

والثالثة: الإيمان بها توقيفًا، أي: الوقوف عما ورد في الكتاب وصحيح السنة، وذلك لان الله أعرف الخلق بنفسه من غيره، كما أنه لا يشتق له من صفاته اسم إلا ما أثبته الله تعالى لنفسه.

وينضم إلى ما ذكرناه، الشعور بأثارها القلبية، والتعبد لله عز وجل بها، كما آمن بها سلف هذه الأمة الذين جمعوا بين الفهم والعمل، حيث نظروا إلى أن لكل اسم من أسماء الله -عز وجل- حقًا من العبودية لله عز وجل على العباد يتعبدون لله سبحانه وتعالى به.

وفي ذلك يقول ابن القيم، «كل اسم له تعبد مختص به: علمًا أو معرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر... وهذه طريقة الكُمَّلْ من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾

[الأعراف:١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو -سبحانه- يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديته »(*) .

ويقول أيضًا: « والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، والأمر اقتضاؤها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها. أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها.

وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح. فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه تعالى وبعده وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه، وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطنًا، ويثمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه، وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة.

وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي من موجباتها. وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية. فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها. فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها »(١) .

ويقول أيضًا: « والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم،

(*) مدارج السالكين (١/٤٥٢).

(١) مفتاح دار السعادة (ص٤٢٤).

وموصوف بصفة الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزه عن الشبيه والمثال، ومنزه عما يضاد صفات كماله، فهو منزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنَة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضده من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر، منزه عن أضدادها من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفوقية، منزه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه مستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون إلا محمودًا كما لا يكون إلا إلهًا وربًا وقادرًا»[1].

فما سبق من هذه النقولات يتبين أن المقصود من الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات ليس المقصود به المعرفة الذهنية فقط، وإنما المقصود أن نفهمها كما فهمها رسول الله - ﷺ - وصحابته الكرام لفظًا ومعنًى، والتعبد لله سبحانه وتعالى بها، والعمل بمقتضاها.

ومن أجل ذلك ينبغي لنا أن نتعرف على أسماء الله، وأن نتعلم معانيها، حتى نعبد الله بها على الوجه الصواب، حسب مقتضيات معانيها، ولا نكون كالذين يلحدون في أسماء الله، فيحرفونها عن معانيها، أو يطلقونها على غير الله -عز وجل-، كما فعل المشركون عندما حرفوا لفظ الجلالة، وغيروا في حروفه، ثم أطلقوا ما غيروه على صنم من أصنامهم، وهو اللات وكما فعلوا مع اسمه العزيز، إذ حرفوه وأطلقوا ما حرفوه على صنم آخر وهو العزي وكذلك اسم المنان حرفوه إلى مناة.

وكما يكون التحريف في تغيير اللفظ يكون أيضًا بالتغيير في معناه أو ما يقتضيه معناه، كمن يؤمن بأن من أسماء الله: الحكم العدل والمالك والمقسط والحكيم، ثم ينكر بعد ذلك مبدأ الالتزام بشريعة الله وحدها، ويسوغ اتباع شريعة غيرها، فالإيمان بمثل هذه الأسماء يقتضي الالتزام بأحكام الله دون سواها، كما أن رفض حكم الله أو الدعوة إلى غير حكمه، رفض لما يقتضيه معنى هذا الاسم لا ينسجم مع الإيمان بالله الحكم العدل والمالك والمقسط والحكيم.

ومن صور الإلحاد أيضًا في أسماء الله، إنكار أن يتسمى الله -عز وجل- بها،

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٠٣).

كفعل المشركين عندما أنكروا اسم الرحمن، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً**﴾ [الفرقان: ٦٠].

والإلحاد في أسماء الله يتنافى مع الأدب المطلوب مع الخالق جل في علاه، يقول -عز وجل-: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ودعاء الله -عز وجل- يكون كما بين الله سبحانه في الآية السابقة، بأسمائه. وأسماؤه التي ينبغي أن ندعوه بها، هي تلك الأسماء التي أخبر بها الله عز وجل عن نفسه، أو بلغها عنه رسول الله -ﷺ-، وذلك حتى لا نصفه إلا بما وصف به نفسه، ووصفه به أنبياؤه، فمن الأدب مع أسماء الله بناءً على ذلك، ألا نذكره أو ندعوه إلا باسم وارد في قرآن أو سنة.

والدعاء يكون بمعنى الطلب فنقول مثلاً: يا رحمن ارحمنا، ويا كريم أكرمنا، ويا عزيز أعزنا، وهكذا.

ويكون الدعاء أيضًا بمعنى العبادة، وذلك بأن نتوجه إليه بالعبادة التي يقتضيها معنى كل اسم من أسمائه.

فلكل اسم عبودية من نوع خاص بسبب ما يقتضيه معناه؟ ينبغي أن نلتزم بها مع سؤال الله بالاسم المناسب لحاجتنا، فلا نقول مثلاً يا منتقم ارحمنا أو يا رحيم انتقم لنا، بل نقول: يا منتقم انتقم لنا من أعدائنا، ويا رحيم ارحمنا، ويا حكيم هبنا حكمة، ويا عزيز أعزنا على خلقك، ويا قادر أقدر لنا الخير حيث كان، ويا عليم علمنا العلم النافع، ويا رزاق وسع أرزاقنا، ويا غفار اغفر لنا الذنوب ما ظهر منها وما بطن، ويا عدل لا تمكّن منا ظالمًا، ولا تحكم فينا فاسقًا ويا عفو اعف عنا واستر علينا، ويا غني أغننا بحلالك عن حرامك، واكفنا بفضلك عمن سواك، ويا هادي اهدنا سُبُل الرشاد، ويامانع امنع عنا كل ما يؤذينا، ويا حفيظ احفظنا من كل مكروه وسوء، ويا صبور هب لنا صبرًا على كل بلاء، ويا سميع اسمع دعاءنا، ويا مجيب أجب دعاءنا، وهكذا ندعوه سبحانه بالاسم الذي يوافق مطلوبنا منه جل وعلا.

ومن الأدب مع أسماء الله الحسنى، أن نذكره سبحانه بها، فذكر الله بأسمائه من أعظم العبادات وبها ارتفع شأن بيوت الله.

كما قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦].

وقد أمرنا الله -عز وجل- بذكر أسمائه مع الأدب الذي ينبغي في حال ذكره سبحانه إذ يقول: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨]، فعلينا أن تنقطع عن غيره انقطاعًا كاملاً ونحن نذكره بهذه الأسماء، بمعنى انقطاع التعلق القلبي بغير الله، وانقطاع الرجاء إلا فيه، مع الانحياز إليه بالكلية، والتوجه إليه وحده.

وهناك أسماء يُمتنع على غير الله أن يتسمى بها؟ مثل لفظ الجلالة، واسم الجبار والمتكبر والقهار ومالك الملك وما شابه ذلك. ومثل هذه الأسماء ينبغي أن نتعلق بها مع الخضوع التام له وحده سبحانه، والكفر بكل من خلع على نفسه شيئًا من معانيها، فمن الأدب مع الله ألا تنسب إلى غير الله ما هو مختص به وحده. كما أن هناك أسماء لله يمكن للإنسان أن يتخلق ببعض معانيها مثل: الرحيم والكريم والحليم والعليم والرءوف وما شابه ذلك. ولكن لا ينبغي أن نطلقها على غيره سبحانه على وجه يشعر بتشاركهما فيها، كأن يقول إنسان مثلاً لمن أعطاه شيئًا: أنه رزقني على وجه يشعر بالتشارك.

وهناك أسماء تطلق على الله، وعلى غير الله، مثل: عليم ورحيم وحفيظ ورءوف وقادر وحكيم وملك، ينبغي أن ندرك أن لفظ كل اسم من هذه الأسماء، وإن كان مشتركًا من الناحية اللفظية فإن حقيقته تختلف بين الخالق والمخلوق، إذ كل علم يتضاءل بالنسبة إلى علم الله، وكل رحمة لا تعد شيئًا بالنسبة إلى رحمة الله، وكل حفظ لا ينفع من غير حفظ الله، وكل رأفة لا تكون إلا بإذن الله، وكل قدرة تتلاشى أمام قدرة الله، وكل حكمة لا شيء بالنسبة لحكمة الله، وصدق من قال:

من أنت يا أرسطو ومن أفلاط قبلك قد تفرَّدْ
ومن ابن سينا حيث هذ ب ما أتيت به وشيَّدْ
ما أنتمو إلا الفراش رأى سراجا قد توقدْ
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعدْ

وكل ملك هو في الحقيقة صفر بالنسبة إلى ملك الله وأمام سلطان الله، فلا مقارنة أبدًا بين الخالق والمخلوق، ولا مشابهة، فقد يقال: -ولله المثل الأعلى-: إن الملك الفلاني كريم، والبواب الذي معه كريم، وطفله كريم، فلا شك أن السامع سوف يفرق بين الملك وبوابه وطفله تفرقه واسعة في صفة الكرم هذه، رغم أن الجميع من بني آدم،

أي من جنس واحد، فما بالك بكرم الله جل في علاه؛ الذي لا يشابهه شيء من كرم عباده المملوكين الضعفاء، وهكذا في أي صفة من صفاته، فعلمه ليس كعلمهم، ورحمته ليس كرحمتهم، وانتقامه ليس كانتقامهم، وكل ذلك وغيره من صفات، له سبحانه فيها الكمال الأعلى، لا يشبهه فيها أحد.

وهناك أسماء من الأدب ألا نطلقها على الله بمفردها دون ا قترانها بأضدادها؟ كالمميت والمذل والخافض والقابض، لأن إطلاقها هكذا قد يوهم نقصًا، تعالى الله -عز وجل- عنه.

فلا نقول: يا مميت يا مذل، يا خافض، يا قابض بل نقول: يا محيي يا مميت يا معز يا مذل يا خافض يا رافع، يا قابض يا باسط.

ومن الأدب مع أسماء الله، الا نتلفظ بها في محل لا يليق؛ كالخلاء مثلاً، ونضن بها عن الابتذال، فلا نذكرها على وجه ينافي التعظيم والإجلال، كما لا نذكرها في سياق يكرهه السامع مع غير داعٍ أو ضرورة، ولا نعطل شيئًا منها، فتعطيل الأسماء من شأن المشركين؛ فتعطيل أسماء الباعث والمعيد والجامع؛ يترتب عليه إنكار القيامة، وتعطيل أسماء: المقسط والحكيم والحكم العدل؛ يترتب عليه إنكار الشريعة، وتعطيل اسم مالك الملك؛ يترتب عليه اتخاذ آلهة مع الله -عز وجل-.. وهكذا، وكل ذلك هو من فعل المشركين بل ينبغي أن نتعلم معاني الأسماء الواردة في القرآن والسنة ونؤمن بمعانيها ونعمل بمقتضيات هذه المعاني، ونحبها كلها؟ لأنها كلها حسنى، ولأنها تدل على ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وذاته منزهة، وصفاته كلها صفات مدح وكمال، وأفعاله كلها رحمة وحكمة وعدل وإحسان.

منهجي في الكتاب

عمدتي في ذلك الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لله تسعة وتسعون اسمًا -مائة إلا واحدًا- لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»(١).

وقد يظن بعض الناس نتيجة سوء فهم هذا الحديث أن لله تسعة وتسعين اسمًا فقط على الرغم من أن الجمهور على خلاف ذلك، وفي ذلك يقول الحافظ ابن حجر في الفتح(٢).

ونقل النووي اتفاق العلماء عليه -أي الزيادة على التسعة والتعسين- فقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ويؤيد قوله في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- الذي أخرجه أحمد وصححه ابن حبان: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»(٣).

وعند مالك عن كعب الأحبار في دعاء: «**وأسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم**».

وأورد الطبري عن قتادة نحوه، ومن حديث عائشة أنها دعت بحضرة النبي بنحو ذلك.

وقال الخطابي: في هذا الحديث إثبات هذه الأسماء المخصوصة بهذا العدد، وليس فيه منع ما عداها من الزيادة، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معانٍ، وخبر المبتدأ

(١) صحيح: وسيأتي.
(٢) (١١/٢٢٣).
(٣) صحيح: وسيأتي.

في الحديث هو قوله: «من أحصاها لا قوله: لله». وقال القرطبي في «المفهم» نحو ذلك، ونقل ابن بطال عن القاضي أبي بكر بن الطيب قال: ليس في الحديث دليل على أنه ليس لله من الأسماء إلا هذه العدة، وإنما معنى الحديث أن من أحصاها دخل الجنة، ويدل على عدم الحصر أن أكثرها صفات، وصفات الله لا تتناهى. ا. هـ.

قلت: ومن هنا سوف تجد عزيزي القارئ أن أسماء الله المذكورة في هذا الكتاب أكثر قليلاً من التسعة والتسعين اسمًا المشهورة بين الناس إلا أنا جعلنا اختيارها بناء على صحة ثبوتها سواء من كتاب الله -عز وجل- أو صحيح أحاديث رسول الله ، وعلى ذلك أعرضنا عن ذكر بعض الأسماء نظرًا لأن طريق ثبوتها لم يثبت لدينا، حرصًا منا أن يكون المثبت في هذا الكتاب الصحيح الثابت من أحاديث رسول الله -ﷺ-.

ابن القيم والكتاب

لقد تم اختيار مؤلفات ابن القيم لتكون مادة هذا الكتاب نظرًا لما يتمتع به هذا العالم الجليل، من علم واسع بمنهج أهل السنة والجماعة، ولما عرف عنه من تحرٍ للحق، وانقياد للعمل، كما أنه قد أبدى في إحدى مصنفاته الرغبة في هذا العمل، إلا أن الظروف لم تسمح به. وقد حرصنا أثناء الجمع أن يكون ذلك من خلال جزءين رئيسين:

الجزء الأول: وتم فيه التحدث عن قواعد أهل السنة والجماعة في فهم مسألة الأسماء والصفات والرد على منهج المبتدعة، وخاصة المؤولة في هذه المسألة.

والجزء الثاني: وتم فيه الحديث تفصيلاً عن تطبيق هذه القواعد على أسماء الله وصفاته العليا، مع مراعاة الأثر التعبدي لهذه الصفة أو هذا الاسم لأنها الغرض الأساسي من معرفتها، إلا أننا لم نجد إلا قرابة نصف عدد الأسماء والصفات فقط، فإتمامًا للفائدة، جمعنا باقي الأسماء والصفات من مصادر أخرى، وقد حرصنا خلال هذا التجميع أن يتم على منهاج الإمام ابن القيم حتى لا يستشعر القارئ بعدم انسجام في مادة الكتاب مع بيان المصدر الذي تم من خلاله النقل في هامش الصفحات، حتى يتيسر للقارئ معرفة المصدر الذي يقرؤه.

ولا يظن أحد أن نصف الكتاب للإمام ابن القيم، والنصف الآخر لغيره، نتيجة هذا العمل، بل جل الكتاب يعتبر للإمام ابن القيم نظرًا لأننا كنا عند النقل من مؤلفات الإمام نتوسع في ذلك ونسهب، وعند النقل من غيره، نأخذ بقدر الضرورة، فظل الكتاب في إجماله لابن القيم -رحمه الله-، وإتمامًا للفائدة قمنا بتخريج الأحاديث الواردة في متن الكتاب تخريجًا يسيرًا تيسيرًا للقارئ لمعرفة موضع الحديث المستشهد به ودرجته، مع بعض التعقيبات البسيطة لإتمام الفائدة، والله الموفق.

وكتبه

أبو عمرو

عماد زكي البارودي

الموافق: ١٥ من ذي الحجة ١٤٢٠هـ-٢١/٣/٢٠٠٠م

الباب الأول

الدراسة النظرية

نهاية أقدام العقول عقال
وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها
رجال فزالوا والجبال جبال

محتويات الباب الأول

الفصل الأول: قاعدة مهمة في فهم الأسماء والصفات.

الفصل الثاني: بيان أن أساس دعوة الرسل معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله.

الفصل الثالث: الرد على من زعم أن الخلف أعلم من السلف في باب الإيمان بالله وتوحيده.

الفصل الرابع: بيان أن هؤلاء المعطلة عكس طريقة الرسل حيث جاءوا بالنفي المفصل في باب الأسماء والصفات.

الفصل الخامس: ذكر الأدلة العقلية على إثبات صفات الله تعالى.

الفصل السادس: أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كمال.

الفصل السابع: الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة،فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم.

الفصل الثامن: بيان أن الربّ تعالى يشتقّ له من أوصافه وأفعاله أسماء ولا يَشتق له من مخلوقاته.

الفصل التاسع: الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية.

الفصل العاشر: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى

الفصل الأول
قاعدة مهمة في فهم الأسماء والصفات

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الموصوف بصفات الجلال المنعوت بنعوت الكمال المنزه عما يضاد كماله من سلب حقائق أسمائه وصفاته المستلزم لوصفه بالنقائص وشبه المخلوقين فنفي حقائق أسمائه وصفاته متضمن للتعطيل والتشبيه وإثبات حقائقها على وجه الكمال الذي لا يستحقه سواه هو حقيقة التوحيد والتنزيه فالمعطل جاحد لكمال المعبود والممثل مشبه له بالعبيد والموحد مبين لحقائق أسمائه وكمال أوصافه وذلك قطب رحى التوحيد. فالمعطل يعبد عدمًا والممثل يعبد صنمًا، والموحد يعبد ربًا ليس كمثله شيء له الأسماء الحسنى والصفات العلى وسع كل شيء رحمة وعلمًا وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه وحجته على عباده فهو رحمته المهداة إلى العالمين ونعمته التي أتمها على أتباعه من المؤمنين أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب وطموس من السبل وقد استوجب أهل الأرض أن ينزل بساحتهم العذاب وقد نظر الجبار جل جلاله إليهم فمقتهم عربهم و عجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وكانت الأمم إذ ذاك ما بين مشرك بالرحمن عابد للأوثان وعابد للنيران وعابد للصلبان أو عابد للشمس والقمر والنجوم كافر بالله الحي القيوم أو تائه في بيداء ضلالته حيران قد استهواه الشيطان وسد عليه طريق الهدى والإيمان فالمعروف عنده ما وافق إرادته ورضاه والمنكر ما خالف هواه قد تخلى عنه الرحمن وقارنه الخذلان يسمع ويبصر بهواه لا بمولاه ويبطش ويمشي بنفسه وشيطانه لا بالله فباب الهدى دونه مسدود وهو عن الوصول إلى معرفة ربه واتباعه مرضاته مصدود فأهل الأرض بين تائه حيران وعبد للدنيا فهو عليها لهفان ومنقاد للشيطان جاهل أو جاحد أو مشرك بالرحمن فالأرض قد غشيتها ظلمة الكفر والشرك والجهل والعناد وقد استولى عليها أئمة الكفر وعساكر الفساد وقد استند كل قوم إلى ظلمات آرائهم وحكموا على الله بين عباده بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم فسوق الباطل نافقة لها القيام وسوق الحق كاسدة لا تقام فالأرض قد صالت جيوش الباطل في أقطارها ونواحيها وظنت أن تلك الدولة تدوم لها

وأنه لا مطمع بجند الله وحزبه فيها فبعث الله رسوله وأهل الأرض أحوج إلى رسالته من غيث السماء ومن نور الشمس الذي يذهب عنهم حنادس الظلمات فحاجتهم إلى رسالته فوق جميع الحاجات وضرورتهم إليها مقدمة على جميع الضرورات فإنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا لذة ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون أحب إليها مما سواه ويكون سعيها فيما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته ومن المحال أن تستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ومن خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها وإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو المخوف المحبوب المطاع المعبود[١].

(١) الصواعق المرسلة (١٤٧).

الفصل الثاني
بيان أن أساس دعوة الرسل معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله

ولما كان مفتاح الدعوة الإلهية معرفة الرب تعالى قال أفضل الداعين إليه سبحانه لمعاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**»(١) وذكر باقي الحديث وهو في الصحيحين وهذا اللفظ لمسلم.

فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان.

أحدهما: تعريف الطريق الموصلة إليه وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد وقرة العين التي لا تنقطع.

وهذان الأصلان تابعان للأصل الأول ومبنيان عليه فأعرف الناس بالله: أتبعهم للطريق الموصل إليه وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه ولهذا سمى الله سبحانه ما أنزل على رسوله روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه ونورًا لتوقف الهداية عليه قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [غافر:١٥]. في موضعين من كتابه وقال عز وجل: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى:٥٢].

فلا روح إلا فيما جاء به ولا نور إلا في الاستضاءة به فهو الحياة والنور والعصمة

---

(١) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٤٣٤٧) في المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، ومسلم (١٩) في الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه-.

والشفاء والنجاة والأمن والله سبحانه وتعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فلا هـدى إلا فيما جاء به ولا يقبل الله من أحد دينًا يدينه بـه إلا أن يكـون موافقًـا لدينـه وقد نـزه سبحانه وتعالى نفسه عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون فقال:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:١٥٩، ١٦٠].

قال غير واحد من السلف: هم الرسل. وقال الله سبحانه وتعالى:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

فنزه نفسه عما يصفه به الخلق ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد.

ومن هنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي قدس الله روحه ونور ضريحه خطبة كتابه حيث قال: الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه، فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته إنما تتلقى بالسمع لا بآراء الخلق وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به لا ما وصفه به الخلق

ثم قال:والحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدى شكر ماضي نعمة بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر وهذا يدل على أنه رحمه الله مثبت للصفات والقدر وعلى ذلك درج بزل الإسلام والرعيل الأول ثم فرق على أثرهم التابعون وتبعهم على منهاجهم اللاحقون يوصي بها الأول الآخر ويقتدي فبه اللاحق بالسابق وهم في ذلك بنبيهم مقتدون وعلى منهاجه سالكون.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

فمن تبعني إن كان عطفًا على الضمير المتصل في أدعو إلى الله فهو دليل أن أتباعه هم الدعاة إلى الله.

وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله.

وقد شهد سبحانه لمن يرى أن ما جاء به من عند الله هو الحق لا آراء الرجال بالعلم فقال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد:١٩]

فمن تعارض عنده حقائق ما جاء به وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه أو قدحت في كمال معرفته وإيمان به لم يكن من الذين شهد الله لهم بالعلم ولا يجوز أن يسمى بأنه من أهل العلم فكيف يكون الداعي إلى الله على بصيرة الذي وصفه الله بأنه سراج منير وبأنه هاد إلى صراط مستقيم وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه فهو المفلح لا غيره وأن من لم يحكمه في كل ما ينازع فيه المتنازعون وينقاد لحكمه ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن لأن الرسول -عنده قد أخبر الأمة عن الله وأسمائه وصفاته بما ألحق في خلاف ظاهره والهدى في إخراجه عن حقائقه وحمله على وحشي اللغات ومستكرهات التأويل وأن حقائقه ضلال وتشبيه وإلحاد والهدى والعلم في مجازه وإخراجه عن حقائقه وإحالة الأمة فيه على آراء المتحيرين وعقول المتهوكين فيقول إذا أخبرتكم عن الله وصفاته العلى بشيء فلا تعتقدوا حقيقته وخذوا معرفة مرادي به من آراء الرجال ومعقولها فإن الهدى والعلم فيه.

والدين إذا أحيل على تأويلات المتأولين انتقضت عراه كلها ولا تشاء طائفة من طوائف أهل الضلال أن تتأول النصوص على مذهبها إلا وجدت السبيل إليه وقالت لمن فتح باب التأويل إنا تأولنا كما تأولتم والنصوص أخبرت بما تأولناه كما أخبرت بما تأولتموه فما الذي جعلكم في تأويلكم مأجورين وجعلنا عليه مأزورين والذي قادكم إلى التأويل ما تقولون: إنه معقول - فمعنى نظيره أو أقوى منه أو دونه [١].

---

(١) الصواعق المرسلة [١/١٥١].

بيان أن النبي - ﷺ - عرف الأمة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله أتم تعريف:

المقصود أن الله سبحانه قد أخبر أنه أكمل له ولأمته به دينهم وأتم عليهم به نعمته ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق وأرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب ونصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة وهو باب الإيمان به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبسًا مشتبهًا حقه بباطله لم يتكلم فبه بما هو الحق بل تكلم بما ظاهره الباطل والحق في إخراجه عن ظاهره وكيف يكون أفضل الرسل وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه مبينًا له (١).

بيان أن الرسول إذا لم يبين للناس أصول الإيمان كانت رسالته قاصرة:

إن الرسول إذا لم يبين للناس أصول إيمانهم ولا عرفهم علما يهتدون به في أعظم أمور الدين، وأصل مقاصد الدعوة النبوية، وأجل ما خلق الخلق له، وأفضل ما أدركوه وحصلوه، وظفروا به، وهو معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، وما يجب له ويمتنع عليه، بل إنما هي لهم الأمور العملية، كانت رسالته لها مقصودان عظيمان.

أحدهما: تعريف العباد ربهم ومعبودهم بما هو عليه من الأسماء والصفات.

والثاني: محبته وطاعته والتقرب إليه، فإذا لم يكن الرسول، قد بين للأمة أجل المقصودين وأفضلهما، كانت رسالته قاصرة جدا، فكيف إذا أخبرهم فيه بما تحيله عقولهم وأذهانهم، وإذا كان النفاة المعطلة قد بينوا ذلك بيانا مفصلا يجب على كل أحد اعتقاده، فحينئذ ما أتوا به أفضل مما جاء به الرسول في القسمين فإن النفي عندهم هو الحق. والإثبات باطل فما جاءوا به من ذلك خير عندهم مما جاء به الرسول من هذا الوجه، ومن جهة أن العلم أشرف من العمل، ومن المعلوم أن النفاة المعطلة ليس فيهم أحد من أئمة الإسلام ومن لهم في الأمة لسان صدق وإنما أئمتهم الكبار القرامطة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم وملاحدة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود كابن سبعين وصاحب الفصوص وصاحب نظم السلوك وأمثالهم ثم من أئمتهم من هو أمثل من هؤلاء كأئمة الجهمية كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم وأبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام، وبشر المريسي وثمامة بن أشرس وأمثال هؤلاء ممن هم من

(١) الصواعق المرسلة [١٥٧/١].

أجهل الخلق بما بعث الله به ورسوله، فيا للعقول ويا للعجب أيكون ما أتى به هؤلاء من التعطيل والنفي أكمل مما أتى به موسى بن عمران ومحمد بن عبد الله خاتم الرسل وإخوانهما من المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، فإن الرسل عند النفاة لم يبينوا أفضل العلم والمعرفة، وإنما هم الذين بينوا ذلك، ودلائله تأصيلا وتفصيلا، وقد صرح ملاحدة هؤلاء بأن الرسل راموا إفادة ما بينوا هؤلاء الملاحدة كما قال ابن سبعين في خطبة كتابه:

أما بعد فإني قد عزمت على إفشاء السر الذي رمز إليه هرامسة الدهور الأولية ورامت إفادته الهداية النبوية.

ويقول: صاحب الفصوص إن الرسل يستفيدون معرفة ذلك من مشكاة خاتم الأولياء، وأن هذا الخاتم يأخذ العلم من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول فهو أعلى إسنادا من الرسول وأقرب تلقيا على قوله، وطائفة من الفلاسفة تقول: إن الفيلسوف أفضل من النبي وأكمل منه بناء على هذا الأصل الملعون ومن لم يصل إلى هذا، الذي هو غاية تحقيقهم من أهل التعطيل والتجهيم ومبتدعة المتصوفين فقد شاركهم في الأصل وقاسمهم في الربح والثمرة. والله الموفق [1].

(١) الصواعق المرسلة ١/١١٥٤.

الفصل الثالث

الرد على من زعم أن الخلف أعلم من السلف في باب الإيمان بالله وتوحيده

من المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة وورثة الصابئين وأفراخ اليونان الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك وعدم العلم الذي يطمئن إليه القلب وأشهدوا الله وملائكته عليهم به وشهد به عليهم الأشهاد من أتباع الرسل أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأعرف به ممن شهد الله ورسوله بالعلم والإيمان وفضلهم على من سبقهم ومن يجيء بعدهم إلى يوم القيامة ما خلا النبيين والمرسلين، وهل يقول هذا إلا غبي جاهل لم يقدر قدر السلف ولا عرف الله ورسوله وما جاء به.

قال شيخنا:وإنما أتى هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريق الخلف على طريق السلف من حيث ظنوا أن طريق السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها واعتقدوا أنهم بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨].

وأن طريق المتأخرين: هي استخراج معاني النصوص وصرفها عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستنكرات التأويلات فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة التابعين وراء ظهورهم فجمعوا بين الجهل بطريق السلف وأكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريق الخلف.

وسبب ذلك، اعتقاداتهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص، فلما اعتقدوا التعطيل وانتفاء الصفات في نفس الأمر، ورأوا أنه لا بد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ، وتفويض المعنى وهذا الذي هو طريقة السلف عندهم، وبين صرف اللفظ عن حقيقته وما وضع له إلى ما لم يوضع له، ولا دل عليه بأنواع من المجازات والتكلفات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منه بالبيان والهدى.

وسار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل والجهل بالسمع، فلا سمع ولا عقل، فإن النفي والتعطيل إنما اعتمدوا فيه على شبهات فاسدة ظنوها معقولات صحيحة فحرفوا

لها النصوص السمعية عن مواضعها، فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين -الذين هم أعلم الأمة بالله وصفاته-، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين البله الذين لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف هم الفضلاء العلماء الذين حازوا قصب السبق واستولوا على الغاية وظفروا من الغنيمة بما فات السابقين الأولين.

فكيف يتوهم من له أدنى مسكة من عقل وإيمان أن هؤلاء المتحيرين الذين كثر في باب العلم بالله اضطرابهم وغلظ عن معرفة الله حجابهم وأخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم وإنه الشك والحيرة، حيث يقول: لعمري.

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كف حائر ... على ذقن أو قارعًا سن نادم

ويقول الآخر:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال الآخر:

لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الإسلام علومهم وخضت في الذي نهوني عنه. والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لي. وهأنذا أموت على عقيدة أمي.

وقال آخر: أكثر الناس شكًا عند الموت أصحاب الكلام.

وقال آخر: اشهدوا علي إني أموت وما عرفت شيئًا إلا أن الممكن يفتقر إلى واجب ثم قال: والافتقار أمر عدمي فلم أعرف شيئًا.

وقال آخر، وقد نزلت به نازلة من سلطان فاستغاث برب الفلاسفة فلم يغث، قال: ثم استغثت برب الجهمية فلم يغثني، ثم استغثت برب القدرية فلم يغثني ثم استغثت برب المعتزلة فلم يغثني قال: فاستغثت برب العامة فأغاثني .

قال شيخنا: كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون الحيارى المتهوكون أعلم

بالله وصفاته، وأسمائه، وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين اتبعوهم بإحسان، ورثة الأنبياء خلفاء الرسل، ومصابيح الدجى[١]، وأعلام الهدى الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، الذين وهب الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء وأحاطوا من حقائق المعارف بما لو جمعت حكمة من عداهم وعلومهم إليه لاستحيا من يطلب المقابلة ثم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضلال الصابئين وأشباههم، وأشكالهم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان [٢].

(١) الدجى: الظلام.

(٢) الصواعق المرسلة ١/١٦١.

الفصل الرابع
بيان أن هؤلاء المعطلة عكس طريقة الرسل حيث جاءوا بالنفي المفصل في باب الأسماء والصفات

إن العقل الذي عارض به هؤلاء السمع وهو النفي، والذي دل عليه السمع هو الإثبات، فإن السمع دل على إثبات الصفات والكلام والتكليم، وعلو الرب على خلقه، واستوائه على عرشه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ومجيئه وإتيانه، وإثبات وجهه الأعلى، ويديه اللتين كلتاهما يمين وغير ذلك، والعقل عندهم دل على نفي ذلك كله، فالمعارضة التي ادعوها هي معارضة بين النفي والإثبات، فالرسل جاءوا بالإثبات المفصل للأسماء والصفات والأفعال، فجاء أرباب هذا العقل بالنفي المفصل لها، وادعوا التعارض بين دليل هذا الإثبات ودليل النفي، ثم قدموا دليل النفي، فيقال الكلام معكم في مقامين.

الرد عليهم:

أحدهما: أن العقل لم يدل على ثبوتها.

والثاني: أنه دل على انتفائها، فإن أردتم بدلالة العقل المقام الأول، فنفيها خطأ، فإنه لو نفى كل ما لم يدل عليه عقل أو حس نفيت أكثر الموجودات التي لا ندركها بعقولنا ولا حواسنا، وهذا هو حاصل ما عند القوم عند التحقيق، ومن تدبر أدلتهم حق التدبر، علم أنه ليس فيها دليل واحد يدل على النفي.

ومعلوم أن الشيء لا ينفي لانتفاء دليل يدل عليه، وإن انتفى العلم به، فنفي العلم لا يستلزم نفي المعلوم، فكيف والعقل الصريح قد دل على ثبوتها، كما نبهنا عليه، وسنذكره، وإن أردتم الثاني، وهو: أن العقل دل على انتفائها.

فيقال: العقل إنما يدل على نفي الشيء إذا علم ثبوت نقيضه، فيعلم حينئذ أن النقيض الآخر منتف، فأين في العقل المقطوع بحكمه، أو المظنون ما يدل على نقيض ما أخبرت به الرسل، بوجه من الوجوه الأدلة الصحيحة؟

فالمسلمون يقولون: قد دل العقل والوحي معا على إثبات علم الرب تعالى آمرا

ناهيا، وعلى كونه فوق العالم كله وعلى كونه يفعل بقدرته ومشيئته وعلى أنه يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويحب ويبغض، فقد شهد بذلك العقل والنقل.

أما النقل فلا يمكنكم المكابرة فيه، وأما العقل فلأن ذات الرب أكمل من كل ذات على الإطلاق، بل ليس الكمال المطلق التام من كل وجه إلا له وحده، فيستحيل وصفه بما يضاد كماله، وكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فهو صفة كمال ثبوتها له أكمل من نفيها عنه، وقد اتفقت الأمم على أن الله سبحانه موصوف بالكمال، منزه عن أضداده، وإن تنازعوا في كون الصفة المعينة والفعل المعين كمالا، أو ليس بكمال والذين نفوه تخيلوا أن إثباته يستلزم النقص والحدوث، وأن الكمال في نفيه، وإن كان كثير من طوائف بني آدم يستجيزون وصفه بالنقائص والعيوب، مع علمهم بأنها عيوب ونقائص، كما صرحت به اليهود من قولهم: وإنه فقير وإنه تعب لما خلق العالم وأنه بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة، وأنه ندم على خلق آدم وذريته ندما عظيما حتى عض أنامله، ويقولون: في صلاتهم: يا إلهنا، انتبه من رقدتك كم تنام؟![1] ونحو ذلك، والنصارى لا يخفى على أحد منهم أن نزوله عن عرشه ودخوله في رحم امرأة وإقامته هناك تسعة أشهر بين الحيض والبول ثم خروجه طفلا صغيرا يرضع ويبكي ويأكل ويشرب ويبول وينام ويألم ثم تمكن أعدائه منه وصفعه وتسمير يديه ورجليه وصلبه بين نصبين وعلى رأسه تاج من الشوك أن هذا غاية التناقص المنافي لكماله.

والاتحادية مصرحون بأنه موصوف بكل صفة مذمومة عقلا وعرفا وشرعا ومعلوم أن هذه النقائص هي التي دل العقل الصريح واتفاق المرسلين من أولهم إلى آخرهم على نفيها عن الله وتنزيهه عنها، فمن جعل دلالته على نفي علمه وسمعه وبصره وقوته وقدرته وحياته وإرادته وكماله وتكليمه وعلوه على عرشه ووجهه الأعلى ويديه وغضبه ورضاه كدلالته على نفي تلك العيوب والنقائص وإثباتها له كإثبات تلك العيوب والنقائص، وإن العقل يوجب نفي هذا وهذا، فهو من أسخف الناس عقلا، وأعظمهم جهلا، وأفسدهم فطرة، وكان الذين وصفوه سبحانه بتلك العيوب والنقائص أقرب إلى

(١) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

العقل منه، فإنهم وصفوه بالكمال والنقص، وهؤلاء نزهوه عن الكمال، وهو يستلزم وصفه بالنقص فقط، ومعلوم أن ذاتا موصوفة بالكمال والنقائص أكمل من ذات لا توصف بشيء من الكمالات، البتة، وتوصف بأضدادها.

وأيضا، فإن تلك الذات يمكن وجودها، وهذه الذات يمتنع وجودها، والمقصود أنه قد دل العقل مع السمع على إثبات ما يقول هؤلاء: إن العقل عارضه، وغاية ما معهم أن عقولهم لم تدل على إثباته، وقد بينا أنه يستحيل دلالة العقل على نفيه، فإن العقل إنما يدل على نفي ما علم ثبوت نقيضه بالعقل، والعقل لم يعلم به ثبوت نقيض الصفات العلى، والأسماء الحسنى، واستواء الرب على عرشه، وتكلمه، ورؤية أوليائه له في الآخرة عيانا بالأبصار، فوق رءوسهم، حتى يكون نفي ذلك معلوما بالعقل.

فإن قيل: نحن ما نفينا ذلك إلا لدلالة العقل على نفيه، فإنه لو كان فوق العرش، أو كان يرى بالأبصار، أو كان مكلما متكلما، أو كان له وجه ويد وسمع وبصر لزم أن يكون جسما، ويلزم من كونه جسما أن يكون مركبا من الجواهر المفردة، أو من المادة والصورة، وإن قلنا: بتماثل الأجسام لزم أن يكون مماثلا لكل جسم، ويلزم من كونه مركبا أن يكون مفتقرا إلى أجزائه، وأجزاء المركب غيره ويلزم من افتقاره إلى غيره أن يكون مخلوقا مصنوعا، فهذا الدليل العقلي الذي أوجب لنا أن ننفي ما نفيناه لنثبت إلهيته وربوبيته وقدمه، وأما أنتم فلما أثبتم له هذه الصفات لزمكم نفي قدمه، ونفي ربوبيته.

قيل: هذا الدليل هو الذي خرب دياركم وقلع الإيمان بشروشه من قلوبكم وسهل عليكم الإلحاد في أسماء الرب وصفاته، وتعطيله عن كل كمال، وسلبه عنه، وهو في الحقيقة مستلزم لجحد وجود الخالق سبحانه، وإنكار أن يكون للعالم صانع على الحقيقة، ففررتم من إثبات الكمالات له سبحانه، لظنكم أنها تستلزم افتقاره وحدوثه، فوقعتم في شر من ذلك، وهو تعطيل العالم عن رب يدبره، فعطلتم الصانع عن كماله، وعطلتم العالم عن صانعه، ولقد أقامت الدهرية والمعطلة أربعين شبهة، التي ذكرتموها واحدة من تلك الأربعين، فقالوا: لو كان للعالم رب أو صانع أو خالق لكان إما جسما، وإما عرضا، ودليل هذا الحصر أنه إما أن كونه قائما بنفسه، وهو الذي يعني بالجسم، وإما أن يكون قائما بغيره، وهو الذي يعني بالعرض، فلا يجوز أن يكون عرضا، لأنه لا يقوم بنفسه، فهو مفتقر إلى محل يقوم به، ولا يجوز أن يكون جسما، لما ذكرتم من

الدليل المتقدم بعينه، وكل ما تجيبون بـه إخوانكـم فـي الأصـل عـن هـذه الشـبهة، فهـ جواب أهل السمع والعقل لكل بعينه.

فإن قلتم: بل هو قائم بنفسه وليس بجسم، قال لكم أهل السمع والعقل: فقولوا: هـ فوق عرشه موصوف بصفات كماله، ونعوت جلاله، وحقائق أسمائه، وليس بجسم، فإ قلتم هذا لا يعقل، قيل لكم: فكيف عقلتم ذاتا قائمة بنفسها فاعلة بغيرها ليست بجسم؟

فإن قلتم: دل الدليل على انتهـاء الممكنـات والمصنوعـات، إلـى ذات هـذا شـأنها فأثبتناها بالدليل، قيل لكم: ودل الدليل على انتهـاء المخلوقـات والمصنوعـات إلـى ذا موصوفة بالصفات، التي يؤثر بها في المخلوقات ومقاديرها وصفاتها وأشكالها وهيئاته وإعدامها بعد إيجادها، وإيجادها، وإيجاد بدل منها، ودلالته على ذات هذا شأنها أعظ من دلالته على ذات مجردة لا فعل لها ولا صفة ولا قدرة ولا مشيئة ولا إرادة، فإن قلتـ يلزم من ثبوت صفاتها حدوثها، ولا يلزم من تجردها عنها حدوثها قيل لكم بل يلزم مـ تجردها عنها عدمها وامتناع وجودها، فلو لزم من ثبوت صفاتها ما لـزم كـان خيرا مـ جحدها ونفيها بالكلية، كيف وتلـك اللوازم التي ركبتـم بعضهـا علـى بعـض فيهـا مـ التلبيس والتدليس والإجمال اللفظي والاشتباه المعنوي ما إذا كشف أمره تبين أنهـا زغـ ومحال وأشد شيء منافاة للعقل والسمع؟! وكل مقدماتها دعاوى كاذبة باطلـة، بصريـ العقل والسمع، فلا يلزم من كونه فوق سمواته علـى عرشـه يسـمع ويـرى ويـأمر وينهـ ويتكلم ويكلم، أن يكون مركبا من جواهر فردة، ولا مـن مـادة وصـورة، ولا أن يكـو مماثلا لخلقه، فدعوى هذا اللزوم عيـن البهـت والكـذب الصـراح بـل العـرش خلـق مـ خلقه، ولا يلزم من كونه فوق السموات كلها أن يكون مركبـا مـن الجواهـر الفـردة و من المادة والصورة ولا مماثلا لغيره من الأجسام، وكذلك جبريل مخلوق من مخلوقات وهو من قوة وحياة وسمع وبصر وأجنحة ويصعد وينزل، ويـرى بالأبصـار ولا يـلزم مـ وصفه بذلك أن يكون مركبـا مـن الجواهـر المفـردة، ولا مـن المـادة والصـورة، ولا يكون جسمه مماثلا لأجسام الشـياطين، فدعونـا مـن هـذا الفشـر والهذيـان، والدعـاو الكاذبة، والتفاوت الذي بين الله وخلقه أعظم من التفاوت الذي بين جسم العقل وجـ الثرى والهواء والماء، وأعظم من التفاوت الذي بين أجسام الملائكة وأجسام الشـياطير والعاقل إذا أطلق على جسم صفة من صفاته، وعنده من كل وجهة وجه، موصوف بتل

الصفة، لم يلزم من ذلك تماثلها، أطلق على الرجيع، الذي قد بلغ غاية الخبث، أنه جسم قائم بنفسه، ذو رائحة ولون، وأطلق على ذلك على المسلك لم يقل ذو حس سليم ولا عقل مستقيم، إنهما متماثلان وأين التفاوت الذي بينهما من التفاوت الذي بين الله وخلقه، فكم تلبسون وكم تدلسون وتموهون؟! فاشتراك الذاتين في معنى من المعاني لا يستلزم تماثلهما عند أحد من العقلاء، وإن المختلفات والمتضادات تشترك في أشياء متعددة، فمشاركة الماء للنار في مسمى للجسمية والحركة، وإدراك الحس لهما، لا يوجب تماثلهما وليس معكم دليل واحد صحيح يدل على تركيب الأجسام كما ذكرتم، فكيف، ولو أقمتم الدليل على ذلك لم يلزم منه التركب خالق الأجسام، وجواهرها، وأعراضها، مما تركبت منه الأجسام، بوجه من الوجوه، سوى الدعوى الكاذبة، وهو أنه لو كان فوق عرشه، أو موصوفا بالصفات، أو يرى بالأبصار، لزم أن يكون مركبا.

وليس العجب من عقول رضيت لنفسها بمثل هذا الهذيان، حتى اعتقدته غاية الغايات العقلية، ونهايات المعارف الإلهية، والمباحث الحكمية، ثم قدمته على نصوص الوحي، فإن هذا في الأصل وضع من قصد معارضة الأنبياء، ورد ما جاءوا به بل العجب من قوم صدقوا الأنبياء وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم بالبينات، وعلموا أنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٤].

ثم ولج هذا الهذيان في آذانهم، فسمعوه، ودخل إلى قلوبهم فقبلوه، وعظموا أصحابه، وسموهم المحققين، وقدموا أقوالهم على نصوص الوحي المبين، فضلا عن تقديمه على كلام الصحابة والتابعين، ولقد أحسن القائل فيهم، وإن قصد سواهم:

خفافيش أعشاها الظلام بضوئه ... ولاءمها قطع من الليل مظلم

وهذه الحجة الداحضة باطلة، من أكثر من سبعين وجها، تذكر في غير هذا الموضع، فلا يلزم من استوائه على عرشه، وثبوت صفات كماله، وتكلمه وتكليمه، ورؤيته بالأبصار أن يكون جسما بالمعنى الذي اصطلحوا عليه ولو لزم أن يكون جسما لم يلزم أن يكون مركبا بالاعتبار الذي ذكروه، ولو لزم أن يكون مركبا، لم يلزم أن يكون مفتقرا إلى مركبا ركّبه، ولا محتاجا إلى غيره، بوجه من الوجوه، ولو لزم أن يكون جسما مركبا، لم يلزم أن يكون مماثلا للأجسام بوجه من الوجوه فشيء من ذلك غير لازم، لعلوه على عرشه وثبوت صفاته، لا عقلا ولا سمعا إلا بالدعاوى الكاذبة حتى

لو قدر لزوم ذلك كله لكان التزامه أسهل من تعطيل علوه على عرشه وتعطيل كلامه وإبطال أمره ونهيه وتعطيل صفاته وأفعاله، وجعله بمنزلة المعدوم الممتنع، الذي لا هو داخل العالم وإلا هو خارجه، ولا له فعل يقوم به، ولا صفة كمال يتصف بها، فلا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يقدر ولا يريد، ولا يفعل شيئا، فأي ذات من الذوات المخلوقة المتصفة بذلك فرضت، فهي أكمل من هذه الذات، وقد تقدم أن الدليل العقلي الصحيح إنما دل على انتهاء المخلوقات إلى خالق واحد، قديم غير مخلوق، ولا مصنوع، ولا محتاج إلى سواه، بوجه من الوجوه، وكل ما عداه محتاج إليه، من جميع الوجوه، ولم يدل على أن هذا الواحد سبحانه، معطل عن الأفعال والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وأن الدليل العقلي[1] إنما دل على خلاف ذلك وأنه أحق بكل صفة كمال من غيره وأن كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه فلا يستلزم نقصا، فمعطيه وموجده أحق به، وأولى، فكيف يكون المخلوق يتكلم، وخالقه لا يتكلم؟ وكيف يكون سميعا بصيرا، وخالقه لا يسمع ولا يبصر؟ وكيف يكون حيا عليما قديرا رحيما، وخالقه ليس كذلك؟ وكيف يكون ملكا آمرا ناهيا مرسلا مثيبا معاقبا، وخالقه ليس كذلك؟ وكيف يكون فاعلا باختياره ومشيئته، وخالقه ليس كذلك؟ وكيف يكون قويا وخالقه ليس له قوة؟ وكيف يكون رحيما، وخالقه لم تقم به صفة رحمة ولا رأفة؟ وكيف يكون كريما حليما جوادا ماجدا، وخالقه ليس كذلك؟

هذا ومن المعلوم بالضرورة أن ما يرى أكمل ممن لا يمكن أن يرى، فإنه إما معدوم، وإما عرض والمرئي أكمل منهما، وما يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، فإنه إما جماد، وإما عرض وإما معلوم، والمتكلم أكمل من ذلك، وما له سمع وبصر ووجه ويدان أكمل من الفاقد لذلك بالضرورة، وهذا سائر الصفات، فلا أحسن الله في تلك العقول عن أصحابها إذا أحسن عن الصابئين ولا حياها بما حيًّا به عباده المرسلين ولا زكاها بما زكى به أتباعهم من المؤمنين ونسأله ألا يبتلينا بما ابتلاهم به من مفارقة المنقول والمعقول وتلقي العلم واليقين من غير مشكاة الرسول، وألا يجعلنا من أتباع قوم ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل[2].

(١) سيأتي الحديث عنها في الفصل القادم.

(٢) الصواعق المرسلة ١/١٠٠٩.

عقيدة السلف إثبات ما أثبته الله لنفسه:

نعم، التلبيس على من ظن أن ذلك التعليق على وجه الاستقلال. بقطع النظر عن مسبب الأسباب، وناصب الحكم والعلل.

فإن كان مراده: أنه لبس الأمر على هؤلاء، فلم يهتدوا إلى الصواب. فأبعد الله من ينتصر لهم، ويذب عنهم. فإنهم أضل من الأنعام. وإن كان المراد: من أثبت الأسباب والحكم والعلل، وعلق بها ما علقه الله بها من الحكم والشرع، وأنزلها بالمحل الذي أنزلها الله به، ووضعها حيث وضعها -فقد لبس عليه. فنحن ندين الله بذلك. وإن سمي تلبيسا. كما ندين بإثبات القدر، وإن سمي جبرًا. وندين بإثبات الصفات وحقائق الأسماء، وإن سمي تجسيما. وندين بإثبات علو الله على عرشه فوق سمواته، وإن سمي تحيزًا أو جهة. وندين بإثبات وجهه الأعلى، ويديه المبسوطتين، وإن سمي تركيبا. وندين بحب أصحاب رسول الله -ﷺ-، وإن سمي نصبا. وندين بأنه مكلم متكلم حقيقة كلامًا يسمعه من خاطبه. وأنه يرى بالأبصار عيانًا حقيقة يوم لقائه. وإن سمي ذلك تشبيها.

ويالله العجب ! أليست الكوائن كلها متعلقة بالأسباب؟ أوليس الرب تعالى -كل وقت- يسوق المقادير إلى المواقيت التي وقتها لها، ويظهرها بأسبابها التي سببها لها، ويخصها بمحالها من الأعيان والأمكنة والأزمنة التي عينها لها؟ أوليس قد قدر الله المقادير. وسبب الأسباب التي تظهر بها. ووقت المواقيت التي تنتهي إليها، ونصب العلل التي توجد لأجلها. وجعل للأسباب أسبابًا أخر تعارضها وتدافعها؟ فهذه تقتضي آثارها. وهذه تمنعها اقتضاءها، وتطلب ضد ما تطلبه تلك.

أو ليس قد رتب الخلق والأمر على ذلك، وجعله محل الامتحان والابتلاء والعبودية؟

أو ليس عمارة الدارين -أعني الجنة والنار- بالأسباب والعلل والحكم؟ ولا حاجة بنا أن نقول: وهو الذي خلق الأسباب ونصب العلل. فإن ذكر هذا من باب بيان الواضحات التي لا يجهلها إلا أجهل خلق الله تعالى، وأقلهم نصيبًا من الإيمان والمعرفة.

أو ليس القرآن -من أوله إلى آخره- قد علقت أخباره وقصصه عن الأنبياء وأممهم،

وأوامره ونواهيه وزواجره، وثوابه وعقابه: بالأسباب، والحكم والعلل؟ وعلقت في المعارف بالوسائط، والقضايا بالحجج، والعقوبات والمثوبات بالجنايات والطاعات؟.

أوليس ذلك مقتضى الرسالة، وموجب الملك الحق، والحكمة البالغة؟

نعم. مرجع ذلك كله إلى المشيئة الإلهية المقرونة بالحكمة والرحمة والعدل والمصلحة والإحسان، ووضع الأشياء في مواضعها، وتنزيلها في منازلها. وهو سبحا الذي جعل لها تلك المواضع والمنازل، والصفات والمقادير. فلا تلبيس هناك بوجه م وإنما التلبيس في إخراج الأسباب عن مواضعها وموضوعها وإلغائها. أو في إنزالها غ منزلتها. والغيبة بها عن مسببها وواضعها. وبالله التوفيق[١].

---

(١) مدارج السالكين ٣/٤٠٢.

الفصل الخامس
ذكر الأدلة العقلية على إثبات صفات الله تعالى

إنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دل العقل الصريح على إثباتها لله، فقد تواطأ عليها دليل العقل ودليل السمع، فلا يمكن أن يعارض بثبوتها دليل صحيح البتة لا عقلي ولا سمعي، بل إن كان المعارض سمعيا كان كذبا مفترى أو مما أخطأ المعارض في فهمه، وإن كان عقليا فهو شبه خيالية وهمية لا دليل عقلي برهاني، واعلم أن هذه دعوة عظيمة ينكرها كل جهمي ونافٍ وفيلسوف وقرمطي وباطني، ويعرفها من نوَّر الله قلبه بنور الإيمان، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل وأقرت به الفطر وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة لا المنكوسة الموكوسة التي نكست قلوب أصحابها فرأت الحق باطلا، والباطل حقا والهدى ضلالة، والضلالة هدى، وقد نبه الله سبحانه في كتابه على ذلك، وأرشد إليه، ودل عليه في غير موضع منه، وبين أن ما وصف به نفسه هو الكمال الذي لا يستحقه سواه، فجاحده جاحد لكمال الرب فإنه يمدح بكل صفة وصف بها نفسه وأثنى بها على نفسه ومجد بها نفسه، وحمد بها نفسه، فذكرها سبحانه على وجه المدحة له، والتعظيم والتمجيد، وتعرف بها إلى عباده، ليعرفوا كماله وعظمته ومجده وجلاله، وكثيرا ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه، وجعلوها شركاء له فيذكر سبحانه من صفات كماله، وعلوه على عرشه، وتكلمه، وتكليمه، وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته ما هو منتف عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدل الدليل على بطلان آلهيتها وفساد عبادتها من دونه.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كلامه ونعوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته، والمسارعة إلى طاعته، والتنافس في القرب منه، ويذكر صفاته أيضا عند ترغيبه لهم، وترهيبه، وتخويفه، ليعرف القلوب من تخافه وترجوه، وترغب إليه، وترهب منه، ويذكر صفاته أيضا عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقلّ أن تجد آية (حكم) من أحكام المكلفين إلا وهي مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين، وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها كقوله: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ**

اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، فيذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله عنه، ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته فذكر أسمائه وصفاته روحها وسرها يصحبها من أولها إلى آخرها، وإنما أمر بإقامتها ليذكر بأسمائه وصفاته وأمر عباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته، ففتح لهم باب الدعاء رغبا ورهبا ليذكره الداعي بأسمائه وصفاته، فيتوسل إليه بها، ولهذا كان أفضل الدعاء وأجوبه ما توسل فيه الداعي إليه بأسمائه وصفاته، كما قال الله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف:١٨٠]، وكان اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين آية الكرسي، وفاتحة آل عمران لاشتمالها على صفة الحياة المصححة لجميع الصفات وصفة القيومية المتضمنة لجميع الأفعال.

ولهذا كانت سيدة آي القرآن وأفضلها، ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لأنها أخلصت للخبر عن الرب تعالى، وصفاته دون خلقه، وأحكامه، وثوابه، وعقابه، وسمع النبي -ﷺ- رجلا يدعو: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت المنان بديع السموات و الأرض ياذا الجلال والإكرام ياحي يا قيوم**»[(١)]، وسمع آخر يدعو: «**اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد**»[(٢)].

فقال لأحدهما: لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.

وقال للآخر: سل تعطه، وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته.

وأحب ما دعاه الداعي به أسماؤه وصفاته، وفي الحديث الصحيح عنه -ﷺ- أنه

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٥) في الصلاة، باب: الدعاء، والنسائي (٥٢/٣) في السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، وفي «الكبرى» (١٢٢٣، ٧٧٠١) من حديث أنس -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن النسائي: صحيح».

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٣) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٤٧٥) في الدعوات، ما جاء في جامع الدعوات عن النبي -ﷺ-، وابن ماجه (٣٨٥٧) في الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

قال: ما أصاب عبدا قط هم ولاحزن فقال: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا** قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله، قال: **بلى ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن**»(١).

وقد نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول، فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقدتها العقول الميتة، فقال الله تعالى في صفة العلم: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك:١٤]، فتأمل صحة هذا الدليل، مع غاية إيجاز لفظه واختصاره، وقال سبحانه: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ**﴾ فما أصح هذا الدليل، وما أوجزه، وقال تعالى: في صفة الكلام: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً**﴾ [الأعراف:١٤٨]، نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلها، وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿**أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً**﴾ [طه:٨٩]، فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع دليلا على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعابده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلها، وقال: ﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد:٨-١٠]، نبهك بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تبصر وتتكلم وتعلم أولى أن يكون بصيرا متكلما عالما، فأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى المعقول، وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف:١٩٥]، فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٧٢)، والحاكم في «مستدركه» (١م٦٩٠)، وأبو يعلي في «مسنده» (٥٢٩٧)، والطبراني في «معجمه» (١٠/١٦٩) من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، وقال شعيب الأرناؤوط في «صحيح ابن حبان»: إسناده صحيح.

والبصر دليلا على عدم إلهية من عدمت فيه هذه الصفات، فالبطش والمشي من أنواع الأفعال، والسمع والبصر من أنواع الصفات.

وقد وصف نفسه -سبحانه- بضد صفة أربابهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذلك ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات عليها منافيا. لإلهيتها، فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها كيف تجدها؟

تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبه ولا مثال، وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره، وملك السموات والأرض وقيومها، فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا، ومن شك في أن صفة السمع، والبصر، والكلام، والحياة، والإرادة، والقدرة، والغضب، والرضا، والفرح، والرحمة، والرأفة كمال، فهو ممن سلب خاصة الإنسانية، وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين، وما أثبته لنفسه معهما كمال، فهو مأفون مصاب في عقله، ومن شك أن كونه يفعل باختياره ما يشاء، ويتكلم إذا شاء وينزل إلى حيث شاء ويجيء إلى حيث شاء كمال، فهو جاهل بالكمال، والجامد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية، كما أن عند شقيقه الجهمي أن الفاقد لصفات الكمال أكمل من الموصوف بها، كما أن عند أستاذهما وشيخهما الفيلسوف أن من لا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم، ولا له حياة، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا فعل، ولا كلام، ولا يرسل رسولا، ولا ينزل كتابا، ولا يتصرف في هذا العالم بتحويل وتغيير وإزالة ونقل وإماتة وإحياء أكمل ممن يتصف بذلك، فهؤلاء كلهم قد خالفوا صريح المعقول، وسلبوا الكمال عمن هو أحق بالكمال من كل ما سواه، ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال نقصا، وعدمه كمالا، فعكسوا الأمر، وقلبوا الفطر، وأفسدوا العقول، فتأمل شبههم الباطلة، وخيالاتهم الفاسدة التي عارضوا بها الوحي هل تقاوم هذا الدليل الدال على إثبات الصفات والأفعال للرب سبحانه؟ ثم اختر لنفسك بعد ما شئت.

وهذا قطرة من بحر نبهنا به تنبيها يعلم به اللبيب ما وراءه وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقه - وهيهات أن يصل إلى ذلك علمنا، أو قدرتنا - لكتبنا فيه عدة أسفار،

وكذا كل وجه من هذه الوجوه، فإنه لـو بسـط، وفصـل لاحتمـل سـفرا أو أكثر، والله المستعان، وبه التوفيق.

الاعتبار بأسماء الله تعالى وفضيلة ذلك:

حياة القلب بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار يعني: أنه ينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر، الدائر بين تعظيم الخالق -جل جلاله- وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه. فلابد من الأمرين. فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار: لم يحصل له الاستدلال على الصفات. وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه: لم يستفد به إثبات الصفات. فإذا اجتمع له تعظيم الخالق وحسن النظر في صنعه: أثمرا له إثبات صفات كماله ولابد.

والاعتبار هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. ومن الدليل إلى المدلول. فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك. فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه. قال الله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر:٢]، والاعتبار افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظير إلى نظيره.

وهذا الاعتبار يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره. وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك. وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه.

فقال تعالى في الطريق الأولى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [فصلت:٥٣]، ثم قال في الطريق الثانية: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:٥٣]، فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، ومالا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أن اسمه الحميد سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه الحكيم يدل على أنه لا يخلق شيئًا عبثًا. واسمه الغني يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا. واسمه الملك يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبث رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد. فمتى قام بالعبد

تعظيم الحق -جل جلاله- وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلةً له.

قوله وهي معرفة العامة التي لا تنعقد شرائط اليقين إلا بها.

لا يريد بالعامة الجهال الذين هم عوام الناس. وإنما يريد: أن هذه هي المعرفة التي وقف عندها العموم ولم يتعدوها. وأما معرفة أهل الذوق والمحبة الخاصة: فأخص من هذا.

قوله وهي على ثلاثة أركان: إثبات الصفة من غير تشبيه -إلى آخرها. هذه ثلاثة أشياء.

أحدها: إثبات تلك الصفة. فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به. بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة. فلا يعطل الصفة. ولا يغير اسمها ويعيرها اسمًا آخر. كما تسمى الجهمية والمعطلة سمعه وبصره، وقدرته وحياته، وكلامه: أعراضًا. ويسمون وجهه ويديه وقدمه -سبحانه-: جوارح وأبعاضًا. ويسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللاً وأغراضًا. ويسمون أفعاله القائمة به: حوادث. ويسمون علوه على خلقه، واستواءه على عرشه، تحيزًا. ويتواصون بهذا المكر الكبار إلى نفي ما دل عليه الوحي، والعقل والفطرة، وآثار الصنعة من صفاته. فيسطون -بهذه الأسماء التي سموها هم وآباؤهم- على نفي صفاته وحقائق أسمائه.

الثالث: عدم تشبيهها بما للمخلوق. فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فالعارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله: يثبتون له الأسماء والصفات. وينفون عنه مشابهة المخلوقات. فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل. فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين. فصراطهم صراط المنعم عليهم. وصراط غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين. قال الإمام أحمد رحمه الله لا نزيل عن الله صفة من صفاته. لأجل شناعة المشنعين وقال التشبيه: أن تقول يد كيدي تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا [1].

(١) مدارج السالكين ٣/٣٥٧.

الفصل السادس
أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كمال

أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم. واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها. قال تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات:٥٨]، فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله: ﴿**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً**﴾ [فاطر:١٠]، فالعزيز من له القوة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزًا. وكذلك قوله: ﴿**أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾ [هود:١٤]، ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي الصحيح عن النبي -ﷺ-: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١) فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه البصير.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩) في الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام»، وابن ماجه (١٩٥) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٣٨٤/١٣) تعليقًا في التوحيد، باب: ﴿**وكان الله سميعًا**
=

وفي الصحيح حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك**»(١) فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿**إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي**﴾ [الأعراف:١٤٤]، فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه -ﷺ-: «**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**»(٢) وهو الحكيم الذي له الحكم: ﴿**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**﴾ [غافر:١٢]، وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته أو عظمته: انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضًا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضًا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبهت بيِّن. فإن من جعل معنى اسم القدير هو معنى اسم السميع، البصير ومعنى اسم التواب هو معنى اسم المنتقم ومعنى اسم المعطي هو معنى اسم المانع فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابن عباس ومجاهد:عدلوا

بصيرًا﴾، ووصله النسائي (٦/١٦٨) في النكاح، باب: الظهار، وابن ماجه (١٨٨) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: صحيح.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٦٦) في الجمعة، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى، من حديث جابر -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٠) في البر والصلة، باب: تحريم الكبر، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، بلفظ: «العزة إزاره، والكبرياء رداؤه». وهو عند الحاكم (١/١٢٩) بلفظ: «الكبرياء ردائي» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان وروي عن ابن عباس: «**يلحدون في أسمائه**» يكذبون عليه وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذب على الله. ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلا، وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا تعالى الله عما يقول الملحدون علوًا كبيرًا [(١)].

بيان أن كل ما نفاه الله عن نفسه هو لإثبات كمال ضده:

أن الله سبحانه إنما نفى عن نفسه ما يناقض الإثبات، ويضاد ثبوت الصفات، والأفعال، فلم ينف إلا أمرا عدميا، أو ما يستلزم العدم، فنفى السنة والنوم، المستلزم لعدم كمال الحياة، والقيومية، ونفى العزوب والخفاء، المستلزم لنفي كمال العلم، ونفى اللغوب، المستلزم نفي كمال القدرة، ونفى الظلم المستلزم لنفي كمال الغنى والعدل، ونفى العبث المستلزم لنفي كمال الحكمة والعلم، ونفى الصاحبة والولد المستلزمين لعدم كمال الغنى، وكذلك نفى الشريك والظهير والشفيع المقدم بالشفاعة، المستلزم لعدم كمال الغنى، والقهر والملك، ونفى الشبيه والمثيل والكفء، المستلزم لعدم التفرد بالكمال المطلق، ونفى إدراك الأبصار له وإحاطة العلم به، المستلزمين لعدم كمال عظمته وكبريائه وسعته وإحاطته، وكذلك نفى الحاجة والأكل والشرب عنه سبحانه لاستلزام ذلك عدم غناه الكامل وإذا كان إنما نفى عن نفسه العدم، أو ما يستلزم العدم،

(١) مدارج السالكين ٢٨/١ وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل العاشر.

علم أنه أحق بكل وجود وثبوت، وكل أمر وجودي لا يستلزم عدمًا ولا نقصًا ولا عيبًا، وهذا هو الذي دل عليه صريح العقل، فإنه سبحانه له الوجود الدائم، القديم، الواجب لنفسه الذي لم يستفده من غيره، ووجود كل موجود مفتقر إليه، ومتوقف في تحقيقه عليه، والكمال وجود كله، والعدم نقص كله، فإن العدم كاسمه لا شيء، فعاد النفي الصحيح إلى نفي النقائص والعيوب، ونفي المماثلة في الكمال، وعاد الأمران إلى نفي النقص وحقيقة ذلك نفي العدم وما يستلزم العدم، فتأمل، هل نفى القرآن والسنة عنه سبحانه سوى ذلك، وتأمل هل ينفي العقل الصحيح الذي لم يفسد بشبه هؤلاء الضلال الحيارى غير ذلك، فالرسل جاءوا بإثبات ما يضاده، وهو سبحانه أخبر أنه لم يكن له كفوا أحد بعد وصفه نفسه بأنه الصمد، والصمد السيد الذي كمل في سؤدده، ولهذا كانت العرب تسمي أشرافها بهذا الاسم، لكثرة الصفات المحمودة في المسمى به.

قال شاعرهم:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، ولهذا قال جمهور السلف منهم عبد الله بن عباس: الصمد السيد الذي كمل سؤدده، فهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحكيم الذي كمل حكمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده، ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظ من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال، ولا جوف له، فإنما لم يكن أحد كفوا له لما كان صمدا كاملا في صمديته، فلو لم تكن صفات كمال، ونعوت جلال، ولم يكن له علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا إرادة، ولا كلام، ولا وجه،ولا يد، ولا سمع، ولا بصر، ولا فعل يقوم به،ولا يفعل شيئا البتة، ولا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق عرشه، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فعال لما يريد، ولا يرى، ولا يمكن أن يرى، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه، لكان العدم المحض كفوا فإن هذه الصفات منطبقة على المعدوم، فلو كان ما يقول المعطلون هو الحق لم يكن صمدا، وكان العدم كفوا له، وكذلك قوله: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً**﴾ [مريم:٦٥].

فأخبر أنه لا سمي له، عقيب قول العارفين به:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياًّ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياًّ﴾ [مريم: ٦٤-٦٥].

فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم، وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه، وملكه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئا أبدا، وهو القائم بتدبير أمر السموات والأرض وما بينهما، كما هو الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له، لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فإنه سبحانه ذكر ذلك، بعد ذكر نعوت كماله، وأوصافه فقال: ﴿حم ۝ عسق ۝ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:١-٦].

إلى قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية، وإحياء الموتى، والقدرة التامة الشاملة، والحكم بين عباده، وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه، وأسمائه، وأفعاله، وثبوتها له على وجه الكمال، الذي لا يماثله فيه شيء، فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء، هو الذي يصفه سبحانه ليس كمثله شيء.

وأما المعطل: النافي لصفاته وحقائق أسمائه، فإن وصفه له بأنه ليس كمثله شيء مجاز، لا حقيقة، كما يقول في سائر أوصافه، وأسمائه ولهذا قال من قال من السلف: إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل، فسموا تعطيلهم تنزيها، وسموا ما وصف به نفسه تشبيها وجعلوا ما يدل على ثبوت صفات الكمال، وكثرتها دليلا على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نورا، واغتر به من شاء الله، وهدى الله من اعتصم بالوحي، والعقل، والفطرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [1].

ليس كمثله شيء:

أنه سبحانه وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء، وأنه لا سمي له، ولا كفء له، وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال، التي فات بها شبه المخلوقين، واستحق بقيامها به أن يكون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وهكذا كونه ليس له سمي، أي: مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا من يكافيه فيها، ولو كان مسلوب الصفات، والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين، ومنافيا عنه مباينة العالم، ومحايثته، واتصاله به وانفصاله عنه، وعلوه عليه، وكونه يمنته، أو يسرته، وأمامه، أو وراءه، لكان كل عدم مثلا له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مشابهة الموجودات، وأثبت لها مماثلة المعدومات، فهذا النفي واقع على أكمل الموجودات على العدم المحض فإن العدم المحض لا مثل له ولا كفء ولا سمي، فلو كان المراد بهذا نفي صفاته وأفعاله واستوائه على عرشه، وتكلمه بالوحي، وتكليمه لمن يشاء من خلقه، لكان ذلك وصفا له بغاية العدم، فهذا النفي واقع على العدم المحض، وعلى من كثرت أوصاف كماله، ونعوت جلاله، وأسمائه الحسنى، حتى تفرد بذلك الكمال، فلم يكن له شبه في كماله، ولا سمي ولا كفء، فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح تعين ذلك المعنى الباطل قطعا وصار المعنى أنه لا يوصف بوصفه أصلا ولا يفعل فعلا ولا له وجه ولا يد ولا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يقدر تحقيقا لمعنى ليس كمثله شيء، وقال إخوانكم في الملاحدة: ليس له ذات أصلا تحقيقا لهذا النفي، وقال غلاتهم: ولا وجود له، تحقيقا لهذا النفي، وأما الرسل وأتباعهم، فقالوا: إنه حي وله حياة وليس كمثله شيء في حياته، وهو قوي وله

---

(١) الصواعق المرسلة (ص١٠٢٣).

القوة، وليس مثله شيء في قوته، وهو سميع بصير، له السمع والبصر، يسمع ويبصر، وليس كمثله شيء في سمعه وبصره، ومتكلم ومكلم، وليس كمثله شيء في كلامه وتكليمه وله وجه ويدان، وليس كمثله شيء، وهو مستو على عرشه، وليس كمثله شيء وهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له، وثناء أثنى به على نفسه والعدم المحض لا يمدح به أحد ولا يثني به عليه، ولا يكون كمالا له، بل هو أنقص النقص، وإنما يكون كمالا إذا تضمن الإثبات، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، لكمال حياته وقيوميته وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، لكمال غناه، وملكه وربوبيته، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١]، لكمال عدله وغناه ورحمته، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، لكمال قدرته، وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:٦١]، ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٨]، ونظائر ذلك لكمال علمه.

وقوله: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، لعظمته ولإحاطته بما سواه، وإنه أكبر من كل شيء وإنه واسع فيرى ولكن لا يحاط به إدراكا كما يعلم ولا يحاط به علما فيرى ولا يحاط به رؤية، فهكذا ليس كمثله شيء هو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإجمال، وهذا هو المعقول في نظر الناس وعقولهم وإذا قالوا فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس او ما له شبيه ولا له من يكافيه، إنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد بما لم يلحقه فيه غيره فصار واحدًا من الجنس، لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده، لكان ذلك عندهم غاية الذم والتنقص له، فإذا أطلق ذلك في سياق المدح والثناء، لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه، التي لها حقائق تحمل عليها، فهل يقول عاقل لمن لا علم له ولا قدرة، ولا سمع ولا بصر، ولا يتصرف بنفسه، ولا يفعل شيئا، ولا يتكلم، ولا له وجه، ولا يد، ولا قوة، ولا فضيلة من الفضائل، إنه لا شبيه له، ولا مثل له، وإنه وحيد دهره، وفريد عصره، ونسيج وحده، وهل فطر الله الأمم، وأطلق ألسنتهم، ولغاتهم إلا على ضد ذلك، وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا

بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، وأفعاله، وأسمائه الحسنى، وإلا فبماذا يثني عليه المثنون؟! وبماذا يثني على نفسه أعظم مما يثني به عليه جميع خلقه؟! ولأي شيء يقول أعرف خلقه به: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(١) ؟! ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا يحصيه، لو كان بالنفي لكان هؤلاء أعلم به منه، وأشد إحصاء له، فإنهم نفوا حقائق الأسماء والصفات نفيا مفصلا، وذلك مما يثنيه المحصي، بلا كلفة ولا تعب، وقد فصله النفاة، وأحصوه وحصروه (٢).

بيان ثبوت صفات الكمال لله بالعقل والنقل:

إنه قد ثبت بالعقل الصريح والنقل الصحيح ثبوت صفات الكمال للرب سبحانه وأنه أحق بالكمال من كل ما سواه، وأنه يجب أن تكون القوة كلها له والعزة كلها له والعلم كله له، والقدرة كلها له،والجمال كله له، وكذلك سائر صفات الكمال، وقام البرهان السمعي والعقلي على أنه يمتنع أن يشترك في الكمال التام اثنان، وأن الكمال التام لا يكون إلا لواحد وهاتان مقدمتان يقينيتان معلومتان بصريح العقل، وجاءت نصوص الأنبياء، مفصلة لما في صريح العقل إدراكه قطعا، فاتفق على ذلك العقل والنقل، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾ [البقرة:١٦٥].

وقد اختلف في تعلق قوله: ﴿**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾ بماذا؟ فقالت طائفة هو مفعول يرى، أي: ولو يرون أن القوة لله جميعا لما عصوه ولما كذبوا رسله، وقدموا عقولهم على وحيه، وقالت طائفة بل المعنى لأن القوة لله جميعا وجواب لو محذوف على التقديرين: أي لو يرى هؤلاء حالهم وما أعد الله لهم إذ يرون العذاب لرأوا أمرا عظيما، ثم قال: ﴿**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾ وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد، وقال تعالى: ﴿**بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً**﴾ [الرعد:٣١]، وقال: ﴿**إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ [آل عمران:١٥٤]، وقال النبي -ﷺ- في دعاء الاستفتاح: «**لبيك وسعديك والخير كله بيديك**» (٣) وفي الأثر

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٦) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، من حديث عائشةرضي الله عنها.

(٢) الصواعق المرسلة (ص١٠١٩).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١) في صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

الآخر: «**اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله**»(١) فلله سبحانه كل صفة كمال وهو موصوف بتلك الصفات كلها.

ونذكر من ذلك صفة واحدة تعتبر بها سائر الصفات، وهو أنك لو فرضت جمال الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم اجتمع لشخص واحد منهم ثم كان الخلق كلهم على جمال ذلك الشخص لكان نسبته إلى جمال الرب تبارك وتعالى دون نسبة سراج ضعيف إلى جرم الشمس وكذلك قوته سبحانه وعلمه وسمعه وبصره وكلامه وقدرته ورحمته وحكمته وجوده وسائر صفاته، وهذا مما دلت عليه آياته الكونية السمعية، وأخبرت به رسله عنه كما في الصحيح عنه -ﷺ-: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» فإذا كانت سبحات وجهه الأعلى لا يقوم لها شيء من خلقه ولو كشف حجاب النور عن تلك السبحات لاحترق العالم العلوي والسفلي فما الظن بجلال ذلك الوجه الكريم وعظمته وكبريائه وكماله وجلاله، وإذا كانت السموات مع عظمتها وسعتها يجعلها على إصبع من أصابعه، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والبحار على إصبع، فما الظن باليد الكريمة التي هي صفة من صفات ذاته، وإذا كان يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، في أقطار الأرض والسموات، فلا يشتبه عليه ولا يختلط، ولا يلتبس، ولا يغلطه سمع، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء تحت أطباق الأرض في الليلة الظلماء، ويعلم ما تسره القلوب أخفى منه وهو مالم يخطر لها أنه سبحانه سيخطر لها ولو كان البحر المحيط بالعالم مدادا ويحيط به من بعده سبعة أبحر كلها مداد وجميع أشجار الأرض وهو كل نبت قام على ساق مما يحصد ومما لا يحصد أقلام يكتب بها، نفدت البحار والأقلام ولم ينفد كلامه وهذا وغيره بعض ما تعرَّف به إلى عباده من كلامه وإلا فلا يستطيع أحد قط أن يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه، فكل الثناء وكل الحمد وكل المجد وكل الكمال له سبحانه، هذا الذي وصلت إليه عقول أهل الإثبات، وتلقوه عن الرسول، ولا يحتاجون في ثبوت علمهم وجزمهم بذلك إلى الجواب عن الشبه القادحة في ذلك، وإذا وردت عليهم لم تقدح فيما علموه وعرفوه ضرورة من كون ربهم تبارك وتعالى كذلك، وفوق ذلك فلو قال

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٣٩٥) من حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/٩٨-٩٩) وقال: رواه أحمَد، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات.

لهم قائل هذا الذي علمتموه لا يثبت إلا بجواب عما عارضه من العقليات قالوا لقائل هذه المقالة هذا كذب وبهت، فإن الأمور الحسية والعقلية واليقينية قد وقع فيها شبهات كثيرة تعارض ما علم بالحس والعقل فلو توقف علمنا بذلك على الجواب عنها وحلها لم يثبت لها ولا لأحد علم بشيء وهي من جنس الوساوس والخطرات والخيالات التي لا تزال تحدث في النفوس شيئا فشيئا بل إذا جزمنا بثبوت الشيء جزمنا ببطلان ما يناقض ثبوته، ولم يكن ما يقدر من الشبه الخيالية على نقيضه مانعا من جزمنا به، ولو كانت الشبه ما كانت فما من موجود يدركه الحس إلا ويمكن كثيرا من الناس أن يقيم على عدمه شبها كثيرة يعجز السامع عن حلها ولو شئنا لذكرنا لك طرفا منها تعلم أنه أقوى من شبه الجهمية النفاة لعلو الرب على خلقه وكلامه وصفاته، وقد رأيت أو سمعت ما أقامه كثير من المتكلمين من الشبه على أن الإنسان تبدل نفسه الناطقة في الساعة الواحدة أكثر من ألف وكل لحظة تذهب روحه وتفارق وتحدث له روح أخرى غيرها وهكذا أبدا وما أقاموه من الشبه على أن السموات والأرض والجبال والبحار تتبدل كل لحظة ويخلفها غيرها، وما أقاموه من الشبه على أن روح الإنسان ليست فيه ولا خارجة عنه وزعموا أن هذا أصح المذاهب في الروح، وما أقاموه من الشبه على أن الإنسان إذا انتقل من مكان إلى مكان لم يمر على تلك الأجزاء التي بين مبدأ حركته ونهايتها ولا قطعها ولا حاذاها، وهي مسألة طفرة النظام وأضعاف أضعاف ذلك وهؤلاء طائفة الملاحدة من الاتحادية كلهم يقول: إن ذات الخالق هي عين ذات المخلوق لا فرق بينهما البتة، وأن الاثنين واحد وإنما الحس والوهم يغلط في التعدد، ويقيمون على ذلك شبها كثيرة، وقد نظمها ابن الفارض في قصيدته وذكرها صاحب الفتوحات في فصوصه وغيرهما وهذه الشبهة كلها من واد واحد ومشكاة واحدة وخزانة واحدة وهي مشكاة الوساوس وخزانة الخيال فلو لم يجزم بما علمناه إلا بعد التعرض لتلك الشبهة على التفصيل وحلها والجواب عنها لم يثبت لنا علم بشيء أبدا، فالعاقل إذا علم أن هذا الخبر صادق علم أن كل ما عارضه فهو كذب ولم يحتج أن يعرف أعيان الأخبار المعارضة له ولا وجوهها وبالله المستعان [١].

❁❁❁

(١) الصواعق المرسلة (ص ١٠٨٠).

الفصل السابع

الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم

كما أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزوم.

فإن اسم السميع يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم الحي وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه. ومن هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة- أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته. فإن اسم العظيم له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم العلي واسم الحكيم وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم العلي العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه العلي.

وكذلك اسمه الظاهر من لوازمه: ألا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي -ﷺ-: «**وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء**»[1] بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه الظاهر ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها. ولا يصح أن يكون

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧/١٣) في الذكر والدعاء باب: ما يقول عند النوم واتخاذ المضجع من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ(الباطن) وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل الأول الذي ليس قبله شيء، بالآخر الذي ليس بعده شيء. وكذلك اسم الحكيم من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى(١).

في بيان حكم لوازم الصفة:

وذلك أن الصفة يلزمها لوازم من حيث هي هي، فهذه اللوازم يجب إثباتها، ولا يصح نفيها، إذ نفيها ملزوم كنفي الصفة، مثاله الفعل والإدراك للحياة، فإن كل حي فعال مدرك وإدراك المسموعات بصفة السمع وإدراك المبصرات بصفة البصر، وكشف المعلومات بصفة العلم، والتمييز لهذه الصفات، فهذه اللوازم ينتفي رفعها عن الصفة فإنها ذاتية لها، ولا يرتفع إلا برفع الصفة، ويلزمها لوازم من حيث كونها صفة للقديم مثل كونها واجبة قديمة عامة التعلق إن صفة العلم واجبة لله قديمة غير حادثة، متعلقة بكل معلوم على التفصيل.

وهذه اللوازم منتفية عن العلم الذي هو صفة للمخلوق ويلزمها لوازم من حيث كونها صفة له، مثل كونها ممكنة حادثة بعد أن لم تكن مخلوقة، غير صالحة للعموم مفارقة له، فهذه اللوازم يستحيل إضافتها إلى القديم، واجعل هذا التفصيل ميزانا لك في جميع الصفات والأفعال، واعتصم به في نفي التشبيه والتمثيل وفي بطلان النفي والتعطيل، واعتبره في العلوي والاستواء تجد هذه الصفة يلزمها كون العالي فوق السافل في القديم والحديث، فهذا اللازم حق لا يجوز نفيه، ويلزمها كون السافل حاويا للأعلى محيطا به حاملا له، والأعلى مفتقر إليه، وهذا في بعض المخلوقات لا في كلها، بل بعضها لا يفتقر فيه الأعلى إلا الأسفل، ولا يحويه الأسفل ولا يحيط به، ولا يحمله كالسماء مع الأرض.

فالرب تعالى أجل شأنا وأعظم أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله للسافل وفقر السافل إليه، وغناه سبحانه عنه وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله العرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش مع حمله العرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به وحصره

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٠).

بالعرش، وعدم حصر العرش له، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق، وأصحاب التلبيس واللبس لا يميزون هذا التمييز، ولا يفضلون هذا التفصيل، ولو ميزوا وفصلوا لهدوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل الصريح للتنزيل ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل وضلوا عن سواء السبيل [١].

❁❁❁

(١) الصواعق المرسلة (١/١٢١٨).

الفصل الثامن
بيان أن الربّ تعالى يشتقّ له من أوصافه وأفعاله أسماء ولا يَشتق له من مخلوقاته

والرب تعالى يشتق له من أوصافه وأفعاله أسماء ولا يشتق له من مخلوقاته. وكل اسم من أسمائه فهو مشتق من صفة من صفاته، أو فعل قائم به فلو كان يشتق له اسم باعتبار المخلوق المنفصل يسمى متكونًا ومتحركًا وساكنًا وطويلاً وأبيض وغير ذلك، لأنه خالق هذه الصفات. فلما لم يطلق عليه اسم من ذلك مع أنه خالقه علم أنه يشتق أسماءه من أفعاله وأوصافه القائمة به. وهو سبحانه لا يتصف بما هو مخلوق منفصل عنه، ولا يتسمى باسمه.

ولهذا كان قول من قال: إنه يسمى متكلمًا بكلام منفصل عنه، وخالقًا بخلق منفصل عنه هو المخلوق، قولاً باطلاً للعقل والنقل واللغة، مع تناقضه في نفسه. فإن اشتق له اسم باعتبار مخلوقاته لزم طرد ذلك في كل صفة أو فعل خلقه، وإن خص ذلك ببعض الأفعال والصفات دون بعض كان تحكمًا لا معنى له.

وحقيقة قول هؤلاء أنه لم يقم به عدل ولا إحسان ولا كلام ولا إرادة، ولا فعل البتة. ومن تجهم منهم نفى حقائق الصفات، وقال: لم تقم به صفة ثبوتية، فنفوا صفاته وردوها إلى السلوب والإضافات. ونفوا أفعاله وردوها إلى المصنوعات والمخلوقات. وحقيقة هذا أن أسماءه تعالى ألفاظ فارغة عن المعاني لا حقائق لها، وهذا من الإلحاد فيها وإنكار أن تكون حسنى. وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقد دل القرآن والسنة على إثبات مصادر هذه الأسماء له سبحانه وصفًا، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:١٦٥].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود:١٤].

وقوله -ﷺ-: «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١)

(١) صحيح: وقد تقدم.

وقول عائشة: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**»[١].

وقوله -ﷺ-: «**أعوذ برضاك من سخطك**»[٢].

وقوله: «**أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق**»[٣].

وقوله: «**أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني**»[٤].

ولولا هذه المصادر لانتفت حقائق الأسماء والصفات والأفعال، فإن أفعاله غير صفاته، وأسماءه غير أفعاله وصفاته، فإذا لم يقم به فعل ولا صفة فلا معنى للاسم المجرد، وهو بمنزلة صوت لا يفيد شيئًا، وهذا غاية الإلحاد [٥].

سريان الأسماء والصفات في الخلق والأمر:

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه الغفار، التواب، العفو لا بد لهذه الأسماء من متعلقات. ولا بد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولا بد لاسمه الحكيم من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم الخالق، الرازق، المعطي، المانع للمخلوق والمرزوق والمعطي والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة.ويفرح بتوبة عبده حين يثوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: ذكره العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (١/٣٢٠) وقال: أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد، من حديث عمار بن ياسر ا هـ. فقلت: ولم أقف عليه فيها.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧١٧) في الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وما بين المعقوفتين زيادة من مسلم.

(٥) شفاء العليل [١/٤٦٢].

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات. مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحمله بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح -ﷺ-: **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة:١١٨]. أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزًا. ويسامح جهلا بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغاياتها أيضًا: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى [(١)].

عبادة الله بجميع أسمائه وصفاته (الأسباب مع المسببات):

إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علمًا ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم أو التعبد بأسماء التودد، والبر، واللطف، والإحسان عن أسماء العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكمّل من السائرين إلى الله. وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف:١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد.

---

(١) مدارج السالكين: [٤١٩/١].

وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها. وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو عليم يحب كل عليم جواد يحب كل جواد وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال عفو يحب العفو وأهله حيي يحب الحياء وأهله بر يحب الأبرار شكور يحب الشاكرين صبور يحب الصابرين حليم يحب أهل الحلم.

فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له. ليترتب عليه المحبوب له المرضي له. فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب

والأسباب -مع مسبباتها- أربعة أنواع:

الأول: محبوب يفضي إلى محبوب.

الثاني: ومكروه يفضي إلى محبوب.

وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه.

والثالث: مكروه يفضي إلى مكروه.

والرابع: محبوب يفضي إلى مكروه. وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه، إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره -الذي ما خلق ما خلق، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها- لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له. والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له.

فالطاعات والتوحيد: أسباب محبوبة له، موصلة إلى الإحسان، والثواب المحبوب له أيضًا. والشرك والمعاصي: أسباب مسخوطة له، موصلة إلى العدل المحبوب له. وإن كان الفضل أحب إليه من العدل.

فاجتماع العدل والفضل أحب إليه من انفراد أحدهما عن الآخر، لما فيه من كمال الملك والحمد، وتنوع الثناء، وكمال القدرة.

فإن قيل: كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه؟

قيل: هذا سؤال باطل، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذي يقدر في الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب.

وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم. بل قد يكون مبغوضًا للرب تعالى لمنافاته حكمته. فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له. كان نسبة له إلى مالا يليق به. ويتعالى عنه.

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل. فإنه مزلة أقدام، ومضلة أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف.

وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ما وراءها. والله الموفق المعين [1].

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

الفصل التاسع
الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية

والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاها لآثارها من الخلق والتكوين فلكل صفة عبودية خاصة هي موجباتها ومقتضياتها أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها. وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لايخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنًا ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم. وتأمل قوله -ﷺ- في الحديث الصحيح الذي يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[(١)]، ذكر هذا عقب قوله: «**ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»[(٢)].

فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالى بهم في غفران زلاتهم وإجابة دعواتهم وتفريج

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧) في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-

(٢) صحيح: هو ما قبله.

كرباتهم ليس لجلب منفعة منهم ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافئه بنفع مثله أو ليدفع عنه ضررًا. فالرب تعالى لم يحسن إلى عباده ليكافئوه عنه ضررًا، فقال: لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني إني لست إذا هديت مستهديكم وأطعمت مستطعمك وكسوت مستكسيكم وأرويت مستسقيكم وكفيت مستكفيكم وغفرت لمستغفركم بالذي أطلب منكم أن تنفعوني أو تدفعوا عني ضررًا فإنكم لن تبلغوا ذلك وأنا الغني الحميد كيف والخلق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بإقداره وتيسيره وخلقه، فكيف بما لايقدرون عليه فكيف يبلغون نفع الغني الصمد الذي يمتنع في خلقه أن يستجلب من غيره نفعًا أو يستدفع منه ضررًا بل ذلك مستحيل في حقه. ثم ذكر بعد هذا قوله: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا(١) .

فبين الله سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم ولا استدفاع ضررهم كأمر السيد عبده والوالد ولده والإمام رعيته بما ينفع الأمر والمأمور ونهيهم عما يضر الناهي والمنهي. فبين تعالى أنه المنزه عن لحوق نفعهم وضرهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به. ولهذا لما ذكر الأصلين بعد هذا وأن تقواهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه شيئًا ولا ينقصه وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيهم إلي ما عنده كلا نسبة فتضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات لاستجلاب منفعة ولا لاستدفاع مضرة وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئًا ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئًا وأنه الغني الحميد. ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده ولا تشينه معاصيهم ولكن له من الحكم البوالغ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصى بحسب قواهم وطاقتهم لا بحسب ما ينبغي له فإنه أعظم وأجل من أن يقدر خلقه عليه. ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبائعهم وقواهم فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم ولا أنفع للعبد منه فهذان مسلكان آخران في حسن التكليف والأمر والنهي.

---

(١) صحيح: هو ما قبله.

أحدهما: يتعلق بذاته وصفاته وأنه أهل لذلك وأن جماله تعالى وكماله وأسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحب والذل والطاعة له.

والثاني: متعلق بإحسانه وإنعامه ولا سيما مع غناه وأنه إنما يحسن إليهم رحمة منه وجودًا وكرمًا لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة وأي المسلكين سلكه العبد أوقفه على محبته وبذل الجهد في مرضاته فأين هذان المسلكان من ذينك المسلكين وإنما أتى القوم من إنكارهم المحبة وذلك الذي حرمهم من العلم والإيمان ما حرمهم وأوجب لهم سلوك تلك الطريق المسدودة والله الفتاح العليم(١).

مشهد الأسماء والصفات:

وهو من أجل المشاهد. والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها. وإن كان العالم -بما فيه- من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجلِّ المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتضًى وفعل: إما لازم. وإما متعد. ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإن كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكمًا ومصالح، وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه، وثوابته وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى مالا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق منكري النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، وقال تعالى

(١) مفتاح دار السعادة (ص ١٣٧).

في حق منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]،وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة. ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه الحميد، المجيد يمنع ترك الإنسان سدًى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهي. ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه الحكيم يأبى ذلك. وكذلك اسمه الملك واسمه الحي يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة الحياة الفعل. فكل حي فعال. وكونه سبحانه خالقًا قيومًا من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه السميع البصير يوجب مسموعًا مرئيًا. واسمه الخالق يقتضي مخلوقًا. وكذلك الرازق واسمه الملك يقتضي مملكة وتصرفًا وتدبيرًا، وإعطاء ومنعًا، وإحسانًا وعدلاً، وثوابًا وعقابًا. واسم البر المحسن، المعطي، المنان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها[١].

حمد الأسماء والصفات:

وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره وعند الأمر والشرع وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه، فتنوع حمده وأسباب حمده. وجمعها تارة وفرقها

---

(١) مدارج السالكين (٤١٧/١).

أخرى ليتعرف إلى عباده ويعرفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبب إليهم بذلك ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۞ قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف:١،٢]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٥]، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧،١٨]، وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:٦٩]. وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال عن أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]، و﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠]. وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص:٧٤، ٧٥]، وقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١]. وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لإلهيته مفترين عليه، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم وأخذهم ببعض حقه عليهم وأنه غير ظالم لهم وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية. وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التعبير عنه،

ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو الله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح تقديس، فسبحان وبحمده لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه، فله الحمد أولا وآخرا حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده[1].

ثمرة الإيمان بالأسماء والصفات:

ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقراء آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام، ورأى سريان آثارها فيهما وعلم -بحسب معرفته- ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما يليق، فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته، وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به، فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته. فإذا رأى في بعض الأحكام جورا وظلما أو سفها وعبثا ومفسدة أو ما لا يوجب حمدا وثناء فليعلم أنه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنه بريء منه ورسوله، فإنه إنما أمر بالعدل لا بالظلم وبالمصلحة لا بالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه، وإنما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنه أرحم الراحمين، ورسوله رحمة مهداة إلى العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة وأمته الأمة المرحومة وذلك كله موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة، فلا يخبر عنه إلا بحمده ولا يثنى عليه إلا بأحسن الثناء كما لا يسمى إلا بأحسن الأسماء[2].

❁❁❁

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢١٥).

(٢) طريق الهجرتين (ص٢١٥).

الفصل العاشر
ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك
(وهي قواعد مهمة في باب الأسماء والصفات)

ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو المجيد العظيم الصمد فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة فمنه استمجد المرخ[١] والغفار وأمجد الناقة علفًا[٢]. ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] صفة للعرض لسعته وعظمه وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه - ﷺ - لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ولا يحسن أنك أنت السميع البصير فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه.

ومنه الحديث الذي في المسند و الترمذي : «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**»[٣]

---

(١) أي: استكثروا من النار، «القاموس المحيط» مادة (مجد).

(٢) أي: أشبع الناقة علفًا، القاموس المحيط.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٢٥) في الدعوات، باب: رقم (٩٩)، من حديث أنس -رضي الله عنه-، =

ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام**»(١) فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وإنه هو الذي لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله. ولنرجع إلى المقصود وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال. وكذلك الصمد قال ابن عباس : هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة. أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أسد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه في الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد وهذا أصله في اللغة كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمى أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن. فإن الغني صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغني مع الحمد كمال آخر. فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير والحميد المجيد والعزيز الحكيم فتأمله فإنه من أشرف المعارف. وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية.

وأخرجه الترمذي (٣٥٢٤) فيما سبق، وأحمد في «مسنده» (١٧٧/٤)، والحاكم في «مستدركه» (٦٧٦/١)، من حديث ربيعة بن عامر -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٥٠): صحيح.

(١) صحيح: وقد تقدم.

والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا كقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، متضمن لكمال قدرته. وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦٢]، متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته. وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به.

وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب ويجب أن يعلم هنا أمور.

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى، أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق. بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه الحسنى المضل الفاتن الماكر تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة والله أعلم.

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف. والوصف بها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات. دلالة على الذات والصفة بالمطابقة.

ودلالة على أحدهما بالتضمن. ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم [(١)].

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به نحو الحي. بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حيي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته. وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله. والمخلوق كماله عن فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. فالرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته فأفعاله صادرة عن كماله كمل ففعل والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه، إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضي بمقتضيه. فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به، ونهاهم عنه. فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه

---

(١) قد تقدم بيان ذلك.

ولا عبث ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثًا. وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده. فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم. فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم، لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتًا، لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله. إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته، وأما الرب تعالى فهو الحكيم فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: إن أسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها، لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم. ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل. فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته. وفرق بين الفعل والمفعول. فالشر قائم بمفعوله المباين له لا بفعله الذي هو فعله. فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

بيان معنى إحصاء أسماء الله تعالى:

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة.

وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة. والثاني دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه

الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها فلا يقال: يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم. ومن تأمل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا. وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله فإنها ليست بعبارة سديدة وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة.

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي التعبد.

وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال.

فمراتبها أربعة أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التشبه.

وأحسن منها عبارة من قال: التخلق.

وأحسن منها عبارة من قال: التعبد.

وأحسن من الجميع الدعاء وهي لفظ القرآن.

الأسماء التي تتشابه إطلاقها على كل من العبد والرب:

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها. فقالت طائفة من المتكلمين. هي حقيقة في العبد مجاز في الرب. وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادًا.

الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة وهو الصواب. وإخلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما. وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله وللعبد منها ما يليق به. وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها. فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات. اعتبار من حيث

هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًا به. الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد منه ما يليق به. وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل ثبتت له على وجه لا يماثله فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله.

ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه. ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل. وهذا طريق أهل السنة، وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به. وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولاً به مفتقرًا إليه محاطًا به. كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها. فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق. فاذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه. فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: إن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان وأمران معنويان فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم، والسلبي أن يمتنع الاشتقاق لغيره، والمعنويان ثبوتي وسلبي.

فالثبوتي أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه، والسلبي ألا يعود حكمها إلى غيره، ولا يكون خبرًا عنه وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات. فلنذكر من

ذلك مثالاً واحدًا وهو صفة الكلام، فإنه إذا قامت بمحل كانت هو التكلم دون من لم تقم به وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره. فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك. وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به. وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

أسماء الله غير محصورة في عدد:

السادس عشر: إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد. فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»(١) فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه. وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده. وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحد من خلقه، ولهذا قال: استأثرت به أي انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به، لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قول النبي -ﷺ- في حديث الشفاعة: «**فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن**»(٢) وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته. ومنه قوله -ﷺ-: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(٣). وأما قوله -ﷺ-: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»(٤) فالكلام جملة واحدة. وقوله: «**من أحصاها دخل الجنة**» صفة لا خبر مستقبل.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وهو جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٧١٢) في التفسير، باب: ﴿**ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبدًا شكورًا**﴾، ومسلم (١٩٤) في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٦) في الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيافي الإقرار أو مسلم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء، باب: في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة. وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها. وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك قد أعدهم للجهاد. فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

هل يدعى بأسماء الله مفردة؟

السابع عشر: إن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء فالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حليم، يا غفور، يا رحيم. وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو. فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًا وعفوًا وانتقامًا. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ. فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد.

ولذلك لم تجئ مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه.

فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه، ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: إن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال. وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالاً، ولا نقصًا، وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا وهو ما يكون كمالاً ونقصًا باعتبارين.

والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها كمال محض فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله. وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها. وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو

على سبيل التقريب والتفهيم. وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب، أو نقص، فله من صفة الإدراكات العالم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر.

ومن صفات الإحسان البر، الرحيم، الودود، دون الرفيق والشفوق ونحوهما، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف. وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه، فتأمل ذلك فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا نعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: إن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها كما تقدم بيانه، كاسمه العظيم والمجيد والصمد كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته. والحليم الذي قد كمل في حلمه. والعليم الذي قد كمل في علمه. والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده وهو الله سبحانه. هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفوًا أحد وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار هذا لفظه.

وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى. ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علمًا بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه فتدبره.

معنى الإلحاد في أسماء الله:

العشرون: وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه، وهو معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه. قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الاعراف: ١٨٠] والإلحاد في أسمائه هو العدول

بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د). فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل. قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه. ومنه الملتحد: وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ [الكهف: ٢٧]، أي: من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: الْتَحَدَ فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا. فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز. وتسميتهم الصنم إلهًا وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه، ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه.

وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات، ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعًا ولغة وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين. فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية، وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب. وكل من جحد شيئًا عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقلل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علوًا كبيرًا. فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة. فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنى. بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات. فكان إثباتهم بريًا من التشبيه، وتنزيههم خليًا من التعطيل لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا. وأهل السنة وسط في النِّحَل كما أن أهل الإسلام وسط في المِلَل. توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة مضافة في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى فعليك بمعرفتها ومراعاتها ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلبًا عاقلاً ولسانًا قائلاً ومحلاً قابلاً وإلا فالسكوت أولى بك فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علمًا. وعسى الله أن يعينني بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعيًا فيه أحكام هذه القواعد بريئًا من الإلحاد في أسمائه، وتعطيل صفاته فهو المان بفضله والله ذو الفضل العظيم[1].

❁❁❁

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٣٢. قلت: وقد يسر الله لنا بفضله ومنه أن نجمع له هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

الباب الثاني

المحتويات

الفصل الأول: في معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحًا.

الفصل الثاني: في انقسام التأويل إلى صحيح وباطل.

الفصل الثالث: في أن التأويل شر من التعطيل.

الفصل الرابع: في أن التأويل إخبار عن مراد المتكلم لا إنشاء.

الفصل الخامس: **الرد على نفاة الصفات.**

الفصل الأول
في معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحًا

التأويل في اللغة:

التأويل: تفعيل من آل يئول إلى كذا إذا صار إليه فالتأويل: التصيير، وأولته تأويلاً إذا صيرته إليه فآل وتأول وهو مطاوع أولته.

وقال الجوهري: التأويل: تفسير ما يئول إليه الشيء وقد أولته وتأولته تأولاً بمعنى.

قال الأعشى:

على أنها كانت تأول حبها تأول ربعي السقاب فأصحبا

قال أبو عبيدة : يعني تفسير حبها ومرجعه أي أنه كان صغيرًا في قلبه فلم يزل ينبت حتى صار قديمًا كهذا السقب الصغير لم يزل يشب حتى صار كبيرًا مثل أمه وصار له ابن ابن يصحبه -انتهى كلامه-، ثم تسمى العاقبة تأويلاً لأن الأمر يصير إليها ومنه قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء:٥٩].

وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلاً لأن الأمر ينتهي إليها ومنه قوله: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ [الأعراف:٥٣].

فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار ويسمى تعبير الرؤيا تأويلاً بالاعتبارين فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تئول إليه.

وقال يوسف لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ**﴾ [يوسف:١٠٠]، أي: حقيقتها ومصيرها إلى هنا انتهت.

وتسمى العلة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلاً لأنها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي له غرضه به ومنه قول الخضر لموسى عليهما

السلام بعد أن ذكر له الحكمة المقصودة بما فعله من تخريق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار بلا عوض.

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٨]، فلما أخبره بالعلة الغائية التي انتهى إليها فعله قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف:٨٢][١].

التأويل في الاصطلاح

التأويل في كلام الله ورسوله:

فالتأويل في كتاب الله سبحانه وتعالى المراد به حقيقة المعنى الذي يُؤَوَّل اللفظ إليه، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج فإن الكلام نوعان: خبر وطلب فتأويل الخبر هو الحقيقة وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله نفس ما هو سبحانه وهو موصوف به من الصفات العلى وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها

قالت عائشة: «**كان رسول الله - ﷺ - يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك يتأول القرآن**»[٢]، فهذا التأويل هو نفس فعل المأمور به فهذا التأويل في كلام الله ورسوله[٣].

التأويل عند أهل التفسير:

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث، فمرادهم به معنى التفسير والبيان ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا يريد تفسيره.

ومنه قول الإمام أحمد في كتابه في الرد على الجهمية: فيما تأولته من القرآن على غير تأويله فأبطل تلك التأويلات التي ذكروها وهي تفسيرها المراد بها وهو تأويلها

(١) الصواعق المرسلة (ص١٧٥).

(٢) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٨١٧) في الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود، ومسلم (٤٨٤) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود.

(٣) الصواعق المرسلة: [ص ١٧٧].

المراد عنده فهذا التأويل يرجع إلى فهم المعنى وتحصيله في الذهن والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج [(١)].

التأويل عند المتكلمين:

وأما المعتزلة الجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه.

ولهذا يقولون: التأويل على خلاف الأصل، والتأويل يحتاج إلى دليل.

وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين.

فصنف جماعة في تأويل آيات الصفات وأخبارها كأبي بكر بن فورك وابن مهدي الطبري وغيرهما وعارضهم آخرون فصنفوا في إبطال تلك التأويلات كالقاضي أبي يعلى، والشيخ موفق الدين بن قدامة وهو الذي حكى عن غير واحد إجماع السلف على عدم القول به.

كما ستأتي حكاية ألفاظهم إن شاء الله [(٢)].

---

(١) الصواعق المرسلة (ص ١٧٨).

(٢) الصواعق المرسلة (ص ١٧٨).

الفصل الثاني
في انقسام التأويل إلى صحيح وباطل

فالتأويل الصحيح هو القسمان الأولان، وهما التأويل الصحيح حقيقة المعنى وما يئول إليه في الخارج أو تفسيره وبيان معناه.

وهذا التأويل يعم المحكم والمتشابه والأمر والخبر.

قال جابر بن عبد الله في حديث حجة الوداع: «**ورسول الله -ﷺ- بين أظهرنا، ينزل عليه القرآن وهو يعلم تأويله فما عمل به من شيء عملنا به**»(١) فعلمه صلوات الله وسلامه عليه بتأويله وهو علمه بتفسيره وما يدل عليه، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه. ودخل رسول الله -ﷺ- مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحه آخذ بخطام ناقته وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله — خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله — أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله — كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله(٢)

قال ابن هشام: نحن قتلناكم على تأويله إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين، والمشركون لم يقروا بالتنزيل وإنما يقاتل على التأويل من أقر بالتنزيل .

وهذا لا يلزم إن صح الشعر عن ابن رواحة لأن المراد بقتالهم على التأويل وهو تأويل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، وكان

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٩٠٥) في المناسك، باب: صفة حجة النبي -ﷺ-، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

(٢) صحيح: والحديث أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) في الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر، والنسائي (٥/٢٠٢) في مناسك الحج، باب: إنشاد الشعر في الحرم والمشي بين يدي الإمام، من حديث أنس -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح.

دخولهم المسجد الحرام عام القضية آمنين وهو تأويل هذه الرؤيا التي رآها رسول الله - ﷺ - وأنزلها الله في كتابه، ويدل عليه أن الشعر إنما يناسب خطاب الكفار.

بقي أن يقال: فلم يكن هناك قتال حتى يقول: نحن قتلناكم فيقال: هذا تخويف وتهديد، أي: إن قاتلتمونا قاتلناكم وقتلناكم على التأويل والتنزيل، وعلى التقديرين فليس المراد بالتأويل خروج اللفظ عن حقيقته إلى مجازه.

ومن هذا قول الزهري : وقعت الفتنة، أصحاب محمد متوفرون فأجمعوا إن كل مال أو دم أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، انزلوهم منزلة أهل الجاهلية، أي أن القبيلتين في الفتنة إنما اقتتلوا على تأويل القرآن، وهو تفسيره وما ظهر لكل طائفة منه حتى دعاهم إلى القتال، فأهل الجمل وصفين إنما اقتتلوا على تأويل القرآن، وهؤلاء يحتجون به، وهؤلاء يحتجون به، نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله - ﷺ - لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»(١) فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا.

فهذا هو تأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله لا من استنصر به.

ولهذا رد عليهم من هو أولى بالحق والحقيقة منهم فقالوا: فيكون رسول الله - ﷺ - وأصحابه هم الذين قتلوا حمزة والشهداء معه، لأنهم أتوا بهم حتى أوقعوهم تحت سيوف المشركين.

ومن هذا قول عروة بن الزبير لما روى حديث عائشة: «**فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر**»(٢) فقيل له: فما بال عائشة أتمت في السفر، قال: تأولت كما تأول عثمان وليس مراده أن عائشة وعثمان تأولا آية القصر على خلاف ظاهرها، وإنما مراده أنهما تأولا دليلاً قام عندهما اقتضى جواز

---

(١) صحيح: اخرجه مسلم (٢٩١٦) في الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (١٠٩٠) في الجمعة، باب: في كم يقصر الصلاة؟، ومسلم (٦٨٥) في أول صلاة المسافرين وتتمة الكلام عند البخاري عقب الحديث السابق.

الإتمام، فعملا به فكان عملهما به هو تأويله، فإن العمل بدليل الأمر هو تأويله، كما كان رسول الله -ﷺ- يتأول قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:٣].

بامتثاله بقوله: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(١) فكأن عائشة وعثمان تأولا قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء:١٠٣]، وإن إتمامها من إقامتها.

وقيل: تأولت عائشة أنها أم المؤمنين وأن أمهم حيث كانت فكأنها مقيمة بينهم وإن عثمان كان إمام المسلمين (٢).

التأويل الباطل:

وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دل عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح.

والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد، ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك وكل تأويل وافق ما جاء به الرسول فهو المقبول وما خالفه فهو المردود (٣).

أنواع التأويل الباطل:

الأول: مالم يحتمله اللفظ بوضعه كتأويل قوله -ﷺ-: «**حتى يضع رب العزة عليها رجله**»(٤)، بأن الرجل جماعة من الناس فإن هذا لا يعرف فيه شيء من لغة العرب البتة.

الثاني: مالم يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع، وإن احتماله مفردًا كتأويل قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] بالقدرة.

الثالث: مالم يحتمل سياقه وتركيبه، وإن احتماله في غير ذلك السياق. كتأويل

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) الصواعق المرسلة (ص ١٨١).

(٣) الصواعق المرسلة (ص ١٨٧).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٦١) في الأيمان والنذور، باب: الحلف بعزة الله وصفاته وكلامه، ومسلم (٢٨٤٨) في الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [النحل:٣٣].

بأن إتيان الرب إتيان بعض آياته التي هي أمره، وهذا يأباه السياق كل الإباء فإنه يمتنع حمله على ذلك، مع التقسيم والترديد والتنويع.

وكتأويل قوله: «**إنكم ترون ربكم عيانًا كما ترون القمر ليلة البدر صحوًا ليس دونه سحاب وكما ترون الشمس في الظهيرة صحوًا ليس دونها سحاب**»(١) فتأويل الرؤية في هذا السياق بما يخالف حقيقتها، وظاهرها في غاية الامتناع وهو رد وتكذيب تستر صاحبه بالتأويل.

الرابع: مالم يؤلف استعماله في ذلك المعنى في لغة المخاطب وإن ألف في الاصطلاح الحادث، وهذا موضع زلت فيه أقدام كثير من الناس وضلت فيها أفهامهم حيث تأولوا كثيرًا من ألفاظ النصوص بما لم يؤلف استعمال اللفظ له في لغة العرب البتة وإن كان معهودًا في اصطلاح المتأخرين وهذا مما ينبغي التنبه له فإنه حصل بسببه من الكذب على الله ورسوله ما حصل.

كما تأولت طائفة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام:٧٦]، بالحركة وقالوا: استدل بحركته على بطلان ربوبيته. ولا يعرف في اللغة التي نزل بها القرآن أن الأفول هو الحركة ألبتة في موضع واحد.

وكذلك تأويل الأحد: بأنه الذي لا يتميز منه شيء عن شيء ألبته. ثم قالوا: لو كان فوق العرش لم يكن أحدًا. فإن تأويل الأحد بهذا المعنى لا يعرفه أحد من العرب، ولا أهل اللغة، ولا يعرف استعمال في لغة القوم في هذا المعنى في موضع واحد أصلاً، وإنما هو اصطلاح الجهمية، والفلاسفة، والمعتزلة، ومن وافقهم.

كتأويل قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، بأن المعنى أقبل على خلق العرش، فإن هذا لا يعرف في لغة العرب، بل ولا غيرها من الأمم، إن من أقبل على

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٣٦، ٧٤٣٧) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾، ومسلم (٦٣٣) في المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، من حديث جرير بن عبد الله -رضي الله عنه-.

الشيء لا يقال: قد استوى عليه ولا لمن أقبل على عمل من الأعمال من قراءة أو كتابة أو صناعة، قد استوى عليها.

ولا لمن أقبل على الأكل قد استوى على الطعام. فهذه لغة القوم وأشعارهم وألفاظهم، موجودة ليس في شيء منها ذلك البتة.

وهذا التأويل يبطل من وجوه كثيرة سنذكرها في مواضعها لو لم يكن منها إلا تكذيب رسول الله - ﷺ - لصاحب هذا التأويل لكفاه، فإنه قد تثبت في الصحيح: «**أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»[١]، فكان العرش موجودًا قبل خلق السموات والأرض بأكثر من خمسين ألف سنة. فكيف يقال: إنه خلق السموات والأرض في ستة أيام من قبل أن خلق العرش.

والتأويل إذا تضمن تكذيب الرسول فحسبه ذلك بطلانًا، وأكثر تأويلات القوم من هذا الطراز، وسيمر بك ما هو قرة عين لكل موحد وسخنة عين لكل ملحد.

الخامس: ما ألف استعماله في ذلك المعنى لكن في غير التركيب الذي ورد به النص فيحمله المتأول في هذا التركيب الذي لا يحتمله على مجيئه في تركيب آخر يحتمله وهذا من أقبح الغلط والتلبيس كتأويل اليدين في قوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾، بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: لفلان عندي يد.

وقال عروة بن مسعود للصديق: لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ثم تعدى الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير: كتبت بالقلم، وهي اليد، وجعل ذلك خاصة خص به صفيه آدم دون البشر، كما خص مريم بأنه نفخ فيها من روحه، وخص موسى بأنه كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك. فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

يستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب، فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٣) في القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليها السلام، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

محله وعداه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا. ووصف الوجوه بالنظرة التي لا تحصل إلا مع حضور ما يتنعم به لا مع التنغيص بانتظاره. ويستحيل مع هذا التركيب تأويل النظر بغير الرؤية: وإن كان النظر بمعنى الانتظار قد استعمل في قوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

ومثل هذا القول الجهمي الملبس: إذا قال لك المشبه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]. فقل له العرش له عندنا سبعة معان والاستواء له خمسة معان، فأي ذلك المراد فإن المشبه يتحير ولا يدري ما يقول ويكفيك مئونته.

فيقال لهذا الجاهل الظالم الفاتن المفتون: ويلك ما ذنب الموحد الذي سميته أنت وأصحابك مشبهًا، وقد قال لك نفس ما قال الله، فوالله لو كان مشبهًا كما تزعم لكان أولى بالله ورسوله منك لأنه لم يتعد النص.

وأما قولك: للعرش سبعة معان أو نحوها، وللاستواء خمسة معان فتلبيس منك وتمويه على الجهال، وكذب ظاهر فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معان فاللام للعهد وقد صار بها العرش معينًا وهو عرش الرب جل جلاله الذي هو سرير ملكه، الذي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم إلا من نابذ الرسل.

وقولك الاستواء له عدة معان تلبيس آخر فإن الاستواء المعدى بأداة على ليس له إلا معنى واحد، وأما الاستواء المطلق فله عدة معان، فإن العرب تقول استوى كذا إذا انتهى وكمل منه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص:١٤].

وتقول: استوى وكذا إذا ساواه نحو قولهم استوى الماء والخشبة. واستوى الليل والنهار وتقول استوى إلى كذا، إذا قصد إليه علوًا وارتفاعًا، نحو استوى إلى السطح والجبل، واستوى على كذا أي إذا ارتفع وعلا عليه.

لا تعرف العرب غير هذا الاستواء في هذا التركيب -نصًا لا يحتمل غير معناه كما هو نص في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص:١٤].

لا يحتمل غير معناه ونص في قولهم استوى الليل والنهار في معناه لا يحتمل غيره فدعوا التلبيس فإنه لا يجدي عليكم إلا مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا.

السادس: اللفظ الذي أطرد استعماله في معنى هو ظاهر فيه ولم يعهد استعماله في المعنى المؤول أو عهد استعماله فيه نادرًا فتأويله حيث ورد وحمله على خلاف المعهود من استعماله باطل فإنه يكون تلبيسًا وتدليسًا يناقض البيان والهداية، بل إذا أرادوا استعمال مثل هذا في غير معناه العهود حفوا به من القرائن ما يبين للسامع مرادهم به، لئلا يسبق فهمه إلى معناه المألوف ومن تأمل لغة القوم وكمال هذه اللغة وحكمة واضعها تبين له صحة ذلك.

وأما إنهم يأتون إلى لفظ له معنى قد ألف استعماله فيه فيخرجونه عن معناه ويطردون استعماله في غيره مع تأكيده بقرائن تدل على أنهم أرادوا معناه الأصلي فهذا من أمحل المحال مثال قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء:١٦٤]، وقوله -ﷺ-: «**ما منكم إلا من سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ولا حاجب يحجبه**»[(١)]، **وقوله** -ﷺ-: «**إنكم ترون ربكم عيانًا**»[(٢)]، وهذا شأن أكثر نصوص الصفات إذا تأملها من شرح الله صدره لقبولها وفرح بما أنزل على الرسول منها يراها قد حفت من القرائن والمؤكدات بما ينفي عنها تأويل المتأول.

السابع: كل تأويل يعود على أصل النص بالإبطال فهو باطل. كتأويل قوله -ﷺ-: «**أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل**»[(٣)]، بحمله على الأمة فإن هذا التأويل مع شدة مخالفته لظاهر اللفظ يرجع على أصل النص بالإبطال وهو قوله: «**فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها**»[(٤)]، ومهر الأمة إنما هو للسيد فقالوا نحمله على المكاتبة، وهذا يرجع على أصل النص بالإبطال من وجه آخر فإنه أتى فيه بـ«أي» الشرطية التي هي من أدوات العموم، وأكده بـما المقتضية تأكيد العموم، وأتى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٤١٣) في الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد، ومسلم (١٠١٦) في الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، من حديث عدي بن حاتم -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح. وقد تقدم قريبًا.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٨٣) في النكاح، باب: في الولي، والترمذي (١١٠٢) في النكاح، باب: ما جاء: «لا نكاح إلا بولي»، وابن ماجه (١٨٧٩) في النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، من حديث عائشة -رضي الله عنها-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٩): صحيح.

(٤) صحيح: وهو تتمة ما قبله.

بالنكرة في سياق الشرط وهي تقتضي العموم، وعلق بطلان النكاح بالوصف المناسب له المقتضي لوجود الحكم بوجوده وهو نكاحها نفسها ونبه على العلة المقتضية للبطلان وهي افتياتها على وليها، وأكد الحكم بالبطلان مرة بعد مرة ثلاث مرات فحمله على صورة لا تقع في العالم إلا نادرًا يرجع على مقصود النص بالإبطال وأنت إذا تأملت عامة تأويلات الجهمية رأيتها من هذا الجنس بل أشنع.

الثامن: تأويل اللفظ الذي له معنى ظاهر لا يفهم منه عند إطلاقه سواه، بالمعنى الخفي الذي لا يطلع عليه إلا أفراد من أهل النظر والكلام كتأويل لفظ الأحد - الذي يفهمه الخاصة والعامة - بالذات المجردة عن الصفات التي لا يكون فيها معنيان بوجه ما، فإن هذا لو أمكن ثبوته في الخارج لم يعرف إلا بعد مقدمات طويلة صعبة جدًا فكيف وهو محال في الخارج، وإنما يفرضه الذهن فرضًا ثم يستدل على وجوده الخارجي. فيستحيل وضع اللفظ المشهور عند كل أحد لهذا المعنى الذي هو في غاية الخفاء.

التاسع: التأويل الذي يوجب تعطيل المعنى الذي هو في غاية العلو والشرف ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة وهو شبيه بعزل سلطان عن ملكه وتوليته مرتبة دون الملك بكثير، مثاله تأويل الجهمية قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

ونظائره بأنها فوقية الشرف كقولهم الدرهم فوق الفلس والدينار فوق الدرهم. فتأمل تعطيل المتأولين حقيقة الفوقية المطلقة التي هي من خصائص الربوبية وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله وحطها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم وأنه أشرف منهم. وكذلك تأويلهم علوه بهذا المعنى وأنه كعلو الذهب على الفضة وكذلك تأويلهم استواءه على عرشه بقدرته عليه وأنه غالب له.

فيالله العجب هل ضلت العقول وتاهت الأحلام وشكت العقلاء في كونه سبحانه غالبًا لعرشه قادرًا عليه حتى يخبر به سبحانه في سبعة مواضع من كتابه مطردة بلفظ واحد ليس فيها موضع واحد يراد به المعنى الذي أبداه المتأولون وهذا التمدح والتعظيم كله لأجل أن يعرفنا أنه قد غلب عرشه وقدر عليه وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض. أفترى لم يكن سبحانه غالبًا للعرش قادرًا عليه في مدة تزيد على خمسين ألف سنة ثم تجدد له ذلك بعد خلق هذا العالم.

العاشر: تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا معه قرينة تقتضيه، فإن

هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ فإن الله سبحانه وتعالى أنزل كلامه بيانًا، وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم تحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحد لم يكن بيانًا ولا هدى [١].

(١) الصواعق المرسلة (ص ١٨٧-٢٠١).

الفصل الثالث

في أن التأويل شر من التعطيل

لأنه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب بالنصوص وإساءة الظن بها لأن المعطل والمؤول قد اشتركا في نفي حقائق الأسماء والصفات.

بيان أن المؤولة جمعوا بين أربعة محاذير:

امتاز المؤول بتلاعبه بالنصوص وانتهاكه لحرمتها وإساءة الظن بها ونسبة قائلها إلى المتكلم بما ظاهره الضلال والإضلال فجمعوا بين أربعة محاذير.

المحذور الأول:

اعتقادهم أن ظاهر كلام الله ورسوله المحال الباطل ففهموا التشبيه أولاً ثم انتقلوا عنه إلى:

المحذور الثاني:

وهو التعطيل فعطلوا حقائقها بناء منهم على ذلك الفهم الذي يليق بهم ولا يليق بالرب جل جلاله.

المحذور الثالث:

نسبة المتكلم الكامل العلم الكامل البيان التام النصح إلى ضد البيان والهدى والإرشاد وإن المتحيرين المتهوكين أجادوا العبارة في هذا الباب وعبروا بعبارة لا توهم من الباطل ما أوهمته عبارة المتكلم بتلك النصوص ولا ريب عند كل عاقل أن ذلك يتضمن أنهم كانوا أعلم منه أو أفصح منه أو أنصح منه.

المحذور الرابع:

تلاعبهم بالنصوص وانتهاك حرماتها فلو رأيتها وهم يلوكونها بأفواههم وقد حلت بها المثلات وتلاعبت بها أمواج التأويلات وتقاذفت بها رياح الآراء واحتوشتها رماح الأهواء ونادى عليها أهل التأويل في سوق من يزيد فبذل كل واحد في ثمنها من

التأويلات ما يريد فلو شاهدتها بينهم وقد تخطفتها أيدي الاحتمالات ثم قيدت بعدما كانت مطلقة بأنواع الإشكالات وعزلت عن سلطة اليقين وجعلت تحت حكم تأويل الجاهلين هذا وطالما نصبت لها حبائل الإلحاد وبقيت عرضة للمطاعن والإفساد وقعد النفاة عن صراطها المستقيم بالدفع في صدورها والإعجاز وقالوا لا طريق لك علينا وإن كان لا بد فعلى سبيل المجاز فنحن أهل المعقولات وأصحاب البراهين وأنت أدلة لفظية وظواهر سمعية لا تفيد العلم ولا اليقين فسندك آحاد وهو عرضة للطعن في الناقلين وإن صح وتواتر ففهم مراد المتكلم منه موقوف على انتفاء عشرة أشياء لا سبيل إلى العلم بانتفائها عند الناظرين والباحثين.

فلا إله إلا الله والله أكبر كم هدمت بهذه المعاول من معاقل الإيمان وثلمت بها حصون حقائق السنة والقرآن وكم أطلقت في نصوص الوحي من لسان كل جاهل أخرق ومنافق أرعن وطرقت لأعداء الدين الطريق وفتحت الباب لكل مبتدع وزنديق.

ومن نظر في التأويلات المخالفة لحقائق النصوص رأى من ذلك ما يضحك عجبًا ويبكي حزنًا ويثير حمية للنصوص وغضبًا قد أعاد عذب النصوص ملحًا أجاجًا وخرجت الناس من الهدى والعلم أفواجًا فتحيزت كل طائفة إلى طاغوتها وتصادمت تصادم النصارى في شأن ناسوتها ولاهوتها ثم تمالأ الكل على غزو جند الرحمن ومعاداة حزب السنة والقرآن فتداعوا إلى حربهم تداعي الأكلة إلى قصعتها وقالوا نحن وإن كنا مختلفين فإنا على محاربة هذا الجند متفقون فميلوا بنا عليهم ميلة واحدة حتى تعود دعوتهم باطلة وكلمتهم خامدة وغر المخدوعين كثرتهم التي ما زادتهم عند الله ورسوله وحزبه إلا قلة وقواعدهم التي ما زادتهم إلا ضلالاً وبعدًا عن الملة وظنوا أنهم بجموعهم المعلولة يملئون قلوب أهل السنة إرهابًا منهم وتعظيمًا: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**﴾ [الأحزاب:٢٢].

وأنت إذا تأملت تأويلات القرامطة والملاحدة والفلاسفة والرافضة والقدرية والجهمية ومن سلك سبيل هؤلاء من المقلدين لهم في الحكم والدليل ترى الإخبار بمضمونها عن الله ورسوله لا يقصر عن الإخبار عنه بالأحاديث الموضوعة المصنوعة التي هي مما عملته أيدي الوضاعين وصاغته ألسنة الكاذبين فهؤلاء اختلقوا عليه ألفاظًا

وضعوها وهؤلاء اختلقوا في كلامه معاني ابتدعوها فيا محنة الكتاب والسنة بين الفريقين وما نازلة نزلت بالإسلام إلا من الطائفتين فهما عدوان للإسلام كائدان وعن الصراط المستقيم ناكبان وعن قصد السبيل جائزان فلو رأيت ما يصرف إليه المحرفون أحسن الكلام وأبينه وأفصحه وأحقه بكل هدى وبيان وعلم من المعاني الباطلة وتأويلات الفاسدة لكدت تقضي من ذلك عجبًا وتتخذ في باطن الأرض سربًا فتارة تعجب، وتارة تغضب وتارة تبكي وتارة تضحك وتارة تتوجع لما نزل بالإسلام وحل بساحة الوحي ممن هم أضل من الأنعام (١).

الرد على زعمهم أن أسماء الله تعالى تطلق عيه مجازًا:

إن لازم هذا القول، بل حقيقته أن أسماء الرب تعالى إنما تطلق عليه مجازًا لا حقيقة، فإنه إذا قام الدليل العقلي على انتفاء حقائقها صار إطلاقها بطريق المجاز والاستعارة لا بطريق الحقيقة، فيكون إطلاقها على المخلوق بطريق الحقيقة إذ لا يمكن أن يكون مجازًا في الشاهد والغائب،وقد نفيتم أن يكون حقيقة في حق الرب سبحانه، فتكون حقيقة في المخلوق مجازًا في الخالق، فيكون المخلوق أحسن حالاً فيها من الخالق، وتكون حسنى في حقه دون حق الرب تعالى، لأنها إنما كانت حسنى باعتبار معانيها وحقائقها لا بمجرد ألفاظها فمن له حقائقها، فهي في حقه حسنى دون من انتفت عنه حقائقها،وكفى بهذا خروجًا عن العقل والسمع وإلحادًا في أسمائه سبحانه، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فإن قلتم: حقائقها بالنسبة إليه ما يليق به، وهو ما تأولناها عليه، وحينئذ فتكون حسنى بذلك الاعتبار، وتكون حقيقة لا مجازًا.

قيل: فهلا حملتموها على حقائقها المفهومة منها على وجه يليق به، ولا يماثله في خلقه كما فعلتم بحملها على تلك المعاني التي صرفتموها إليها، فإن قلتم: حملها على ذلك يستلزم محذورًا من تلك المحاذير.

قيل: فكيف لم يستلزمه فيما أثبتموه من تلك المعاني، واستلزمه فيما نفيتموه، وإذا

(١) الصواعق المرسلة (ص ٢٩٦).

كنتم قد أثبتم تلك على وجه يختص به، ولا يماثل خلقه فيه فاثبتوا له حقائقها على هـذا الوجه وتكونون للعقل والنقل موافقين وللكتاب والسنة مصدقين ولسلف الأمة وأعلمها بالله وصفاته وأسمائه موافقين،وعن سبيل أهل الإلحاد والتعطيل عادلين [(١)].

بيان أن أسماءه متضمنة لصفات كماله:

وهو أن الرب سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، وأسماؤه متضمنة لصفات كماله وأفعاله ناشئة عن صفاته، فإنه سبحانه لم يستفد كمالاً بأفعاله،بل له الكمال التام المطلق،وفعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله فإنه فعل فكمل بفعله،وأسماؤه الحسنى تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضى الموجب لموجبه ومقتضاه،فلا بد من ظهور آثارها في الوجود فإن من أسمائه الخلّاق المقتضي لوجود الخلق، ومن أسمائه الرزاق المقتضي لوجود الرزق والمرزوق، وكذلك الغفار والتواب والحكيم والعفو، وكذلك الرحمن الرحيم،وكذلك الحكم العدل إلى سائر الأسماء،ومنها الحكيم المستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود متضمن لخلقه وأمره: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، فمصدر الخلق والأمر عن هذين المتضمنين لهاتين الصفتين، ولهذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته إذ هما مصدر الخلق والأمر، ولما كان سبحانه كاملاً في جميع أوصافه، ومن أجلها حكمته كانت عامة التعلق بكل مقدور كما أن علمه عام التعلق بكل معلوم،ومشيئته عامة التعلق بكل موجود، وسمعه وبصره عام التعلق بكل مسموع ومرئي، فهذا من لوازم صفاته فلا بد أن تكون حكمته عامة التعلق بكل ما خلقه وقدره وأمر به ونهى عنه، وهذا أمر ذاتي للصفة يمتنع تخلفه وانفكاكه عنها كما يمتنع تخلف الصفة نفسها وانفكاكها عنه، وهذا وحده برهان كاف شاف في إبطال تلك الأسولة كلها، وأنه يكفي في إبطالها إثبات عموم تعلق صفاته، وذلك يستلزم إثبات الصفات، وهي تستلزم إثبات الذات، فإثبات ذات الرب تعالى كاف في بطلان الأسولة الإبليسية.

---

(١) الصواعق المرسلة (ص ١٥١٠).

نعم، الجهمي المعطل وأصحابه يعجزون عن الجواب عنها على هـذه الطريـق، وأن أجابوا عنها على غيرها لم يشفوا عليلاً ولم يروا غليلاً إذ هـي أجوبة مبنية على أصول باطلة، والمبنية على الباطل لا تكون صحيحة من كل وجه، وقد قدمنا مجامع طرق الناس في الأجوبة، وبان أن الأصول الفاسدة خذلتهم عن الجواب الصحيح الشافي [١].

(١) الصواعق المرسلة (جـ١ ص ١٥٦٣).

الفصل الرابع
في أن التأويل إخبار عن مراد المتكلم لا إنشاء

فهذا الموضع مما يغلط فيه كثير من الناس غلطًا قبيحًا. فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه فإذا قيل معنى اللفظ كذا وكذا. كان إخبارًا بالذي عناه المتكلم فإن لم يكن هذا الخبر مطابقًا كان كذبًا على المتكلم. ويعرف مراد المتكلم بطرق عدة:

منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنى.

ومنها أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع ولا يبيّن بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته، وما وضع له؟!

كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء:١٦٤]، «**وإنكم ترون ربكم عيانًا كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب**»(١)، و«**الله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها فنام ثم استيقظ فإذا راحلته عند رأسه، فالله أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا براحلته**»(٢) فهذا مما يقطع السامع فيه بمراد المتكلم فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة له كان صادقًا في إخباره، وأما إذا تأول كلامه بما لم يدل عليه لفظه ولا اقترن به ما يدل عليه فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه.

فقول القائل يحمل اللفظ على كذا وكذا يقال له:

ما تعني بالحمل؟ أتعني به أن اللفظ موضوع لهذا المعنى؟ فهذا نقل مجرد موضعه كتب اللغة فلا أثر لحملك. أم تعني به اعتقاد أن المتكلم أراد به ذلك المعنى الذي حملته عليه؟ فهذا قول عليه بلا علم وهو كذب مفترى إن لم تأت بدليل يدل على أن المتكلم أراده. أم تعني به أنك أنشأت له معنى فإذا سمعته علمت أن ذلك معناه وهذا

---

(١) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٠٩) في الدعوات، باب: التوبة، ومسلم (٢٧٤٧) في التوبة، باب: في الحض على التوبة، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

حقيقة قولك وإن لم ترده؟ فالحمل إما إخبار عن المتكلم بأنه أراد ذلك المعنى فهذا الخبر: إما صادق إن كان ذلك المعنى هو المفهوم من لفظ المتكلم، وإما كاذب إن كان لفظه لم يدل عليه، وإما إنشاء لاستعمال ذلك اللفظ في هذا المعنى وهذا إنما يكون في كلام تنشئه أنت لا في كلام الغير.

وحقيقة الأمر أن قول القائل نحمله على كذا أو نتأوله بكذا إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ على ما وضع له فإن منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده، دفع معناه وقال: أحمله على خلاف ظاهره.

فإن قيل بل للحمل معنى آخر لم تذكروه، وهو أن يعطي اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره ولا يمكن تعطيله استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازه هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداء ولا إنشاء.

قيل فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده وهو إما صادق أو كاذب كما تقدم.

ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذي أراده بل يقترن بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك كما في المعارض التي يجب أو يسوغ تعاطيها، ولكن المنكر غاية الإنكار أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته إذا قصد البيان والإفصاح وإفهام مراده [1].

(١) الصواعق المرسلة (ص ٢٠٢).

الفصل الخامس
الرد على نفاة الصفات

وصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك وأن قلوب العباد بين أصابعه وغير ذلك مما وصف به نفسه ووصف به رسوله فيقال للمتأول: هل تتأول هذا كله على خلاف ظاهره وتمنع على حقيقته؟، أم تفرق بين بعض ذلك، وبعضه؟.

فإن تأولت الجميع وحملته على خلاف حقيقته، كان ذلك عنادًا ظاهرًا وكفرًا صراحًا وجحدًا للربوبية، وحينئذ فلا تستقر لك قدم على إثبات ذات الرب تعالى، ولا صفة من صفاته، ولا فعل من أفعاله، فإن أعطيت هذا من نفسك ولم تستهجنه التحقت بإخوانك الدهرية الملاحدة الذين لا يثبتون للعالم خالقًا ولا ربًا.

فإن قلت: بل أثبت أن للعالم صانعًا وخالقًا ولكن لا أصفه بصفة تقع على خلقه وحيث وصف بما يقع على المخلوق أتأوله.

قيل لك فهذه الأسماء الحسنى والصفات التي وصف بها نفسه هل تدل على معان ثابتة هي حق في نفسها أم لا تدل؟

فإن نفيت دلالتها على معنى ثابت كان ذلك غاية التعطيل. وإن أثبتَّ دلالتها على معان هي حق ثابت، قيل لك فما الذي سوغ لك تأويل بعضها دون بعض وما الفرق بين ما أثبته ونفيته وسكت عن إثباته ونفيه، من جهة السمع، أو العقل.

ودلالة النصوص على أن له سمعًا وبصرًا وعلمًا وقدرة وإرادة وحياة وكلامًا كدلالتها على أن له رحمة، ومحبة وغضبًا ورضى وفرحًا وضحكًا ووجهًا ويدين، فدلالة النصوص على ذلك سواء فلم نفيت حقيقة رحمته، ومحبته ورضاه، وغضبه وفرحه وضحكه وأولتها بنفس الإرادة. فإن قلت: لأن إثبات الإرادة والمشيئة لا يستلزم تشبيهًا وتجسيمًا وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم، فإنها لا تعقل إلا في الأجسام فإن الرحمة رقة تعتري طبيعة الحيوان، والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها، والغضب غليان دم القلب طلبًا للانتقام والفرح انبساط دم القلب لورود ما يسر عليه. قيل لك وكذلك الإرادة هي ميل النفس إلى جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها، وكذلك جميع

ما أثبته من الصفات إنما هي أعراض قائمة بالأجسام في الشاهد، فإن العلم انطباع صورة المعلوم في نفس العالم أو الصفة عريضة قائمة به، وكذلك السمع والبصر والحياة وأعراض قائمة بالموصوف فكيف لزم التشبيه والتجسيم من إثبات تلك الصفات وما يلزم من إثبات هذه.

فإن قلت: لأنني أثبتها على وجه لا يماثل صفاتنا ولا يشابهها، قيل لك فهلا أثبت الجميع على وجه لا يماثل صفات المخلوقين ولا يشابهها، ولم فهمت من إطلاق هذا التشبيه والتجسيم وفهمت من إطلاق ذلك التنزيه والتوحيد وهلا قلت أثبت له وجهًا ومحبة وغضبًا ورضًا وضحكًا ليس من جنس صفات المخلوقين. فإن قلت هذا لا يعقل قيل لك فكيف عقلت سمعًا وبصرًا وحياة وإرادة ومشيئة ليست من جنس صفات المخلوقين.

فإن قلت: أنا أفرق بين ما يتأول وبين ما لا يتأول بأن ما دل العقل على ثبوته يمتنع تأويله كالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر وما لا يدل عليه العقل يجب أن يسوغ تأويله كالوجه واليد والضحك والفرح والغضب والرضا.

فإن الفعل المحكم دل على قدرة الفاعل، وإحكامه دل على علمه. والتخصيص دل على الإرادة فيمتنع مخالفة ما دل عليه صريح العقل.

قيل لك أولاً كذلك الإنعام والإحسان وكشف الضر وتفريج الكربات دل على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة سواء. والتخصيص بالكرامة، والاصطفاء والاجتباء دال على المحبة كدلالة ما ذكرت على الإرادة.

والإهانة والطرد والإبعاد والحرمان ما دل على المقت والبغض كدلالة ضده على الحب والرضا.

والعقوبة، والبطش والانتقام دل على الغضب كدلالة ضده على الرضا.

ويقال ثانيًا: هب أن العقل لا يدل على إثبات هذه الصفات التي نفيتها فإنه لا ينفيها.

والسمع دليل مستقل بنفسه، بل الطمأنينة إليه في هذا الباب أعظم من الطمأنينة إلى مجرد العقل فما الذي يسوغ لك نفي مدلوله.

ويقال لك ثالثًا: إن كان ظاهر النصوص يقتضي تشبيهًا أو تجسيمًا فهو يقتضيه في الجميع، فأول الجميع وإن كان لا يقتضي ذلك لم يجز تأويله شيء منه، وإن عزمت أن بعضها يقتضيه وبعضها لا يقتضيه طولبت بالفرق بين الأمرين وعادت المطالبة جذعًا.

ولما تفطن بعضهم لتعذر الفرق قال: ما دل عليه الإجماع كالصفات السبع لا يتأول وما لم يدل عليه إجماع فإنه يتأول. وهذا كما تراه من أفسد الفروق، فإن مضمونه أن الإجماع أثبت ما يدل على التجسيم والتشبيه، ولولا ذلك لتأولناه فقد اعترفوا بانعقاد الإجماع على التشبيه والتجسيم.

وهذا قدح في الإجماع فإنه لا ينعقد على الباطل.

ثم يقال إن كان الإجماع قد انعقد على إثبات هذه الصفات، وظاهرها يقتضي التجسيم، والتشبيه بطل نفيكم لذلك وإن لم ينعقد عليها بطل التفريق به.

ثم يقال: خصومكم من المعتزلة لم يجمعوا معكم على إثبات هذه الصفات فإن قلتم: انعقد الإجماع قبلهم. قيل: صدقتم والله. والذين أجمعوا قبلهم على هذه الصفات، أجمعوا على إثبات سائر الصفات، ولم يخصوها بسبع، بل تخصيصها بسبع خلاف قول السلف، وقول الجهمية والمعتزلة، فالناس كانوا طائفتين سلفية وجهمية فحدثت الطائفة السبعية واشتقت قولاً من القولين فلا للسلف اتبعوا ولا مع الجهمية بقوا.

وقالت طائفة أخرى: ما لم يكن ظاهره جوارح، وأبعاض كالعلم والحياة والقدرة والإرادة والكلام لا يتأول.

وما كان ظاهره جوارح وأبعاضه كالوجه واليدين والقدم والساق والإصبع فإنه يتعين تأويله لاستلزام إثباته التركيب والتجسيم.

قال المثبتون: جوابنا لكم بعين الجواب الذي تجيبون به خصومكم من الجهمية، والمعتزلة نفاة الصفات فإنهم قالوا لكم: لو قام به سبحانه صفة وجودية كالسمع والبصر والعلم والقدرة والحياة لكان محلاً للأعراض ولزم التركيب والتجسيم والانقسام كما قلتم لو كان له وجه، ويد وإصبع لزم التركيب والانقسام فحينئذ ما هو جوابكم لهؤلاء نجيبكم به.

فإن قلتم نحن نثبت هذه الصفات على وجه لا تكون أعراضًا، ولا نسميها أعراضًا فليس تلزم تركيبًا ولا تجسيمًا.

قيل لكم: ونحن نثبت الصفات التي أثبتها الله لنفسه إذا نفيتموها عنه على وجه لا يستلزم الأبعاض والجوارح ولا يسمى المتصف بها مركبًا ولا جسمًا ولا منقسمًا.

فإن قلتم: هذا لا يعقل منها إلا الأجزاء والأبعاض.

قلنا لكم: وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض.

فإن قلتم: العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية قديمة أبدية فليست أعراضًا.

قلنا: وكذلك الأبعاض هي ما جاز مفارقتها، وانفصالها وانفكاكها وذلك في حق الرب تعالى محال، فليست أبعاضًا ولا جوارح فمفارقة الصفات الإلهية للموصوف بها مستحيلة مطلقًا في النوعين والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضًا وأبعاضه.

فإن قلتم:إن كان الوجه عين واليد عين الساق والإصبع فهو محال وإن كان غيره لزم التمييز ويلزم التركيب.

قلنا لكم:وإن كان السمع وهو عين البصر وهما نفس العلم وهي نفس الحياة والقدرة فهو محال، وإن تميزت لزم التركيب فما هو جواب لكم فالجواب مشترك فإن قلتم: نحن نعقل صفات ليست أعراضًا تقوم بغير جسم متحيز وإن لم يكن لها نظير في الشاهد.

قلنا لكم:فاعقلوا صفات ليست بأبعاض تقوم بغير جسم وإن لم يكن له في الشاهد نظير ونحن لا ننكر الفرق بين النوعين في الجملة ولكن فرق غير نافع لكم في التفريق بين النوعين وأن أحدهما يستلزم التجسيم والتركيب والآخر لا يستلزمه.

ولما أخذ هذا الإلزام بحلوق الجهمية قالوا الباب كله عندنا واحد ونحن ننفي الجميع.

فتبين أنه لا بد لكم من واحد من أمور ثلاثة، إما هذا النفي العام والتعطيل المحض.

وإما أن تصفوا الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ولا تتجاوزوا القرآن والحديث وتتبعوا في ذلك سبيل السلف الماضين الذين هم أعلم الأمة بهذا الشأن نفيًا وإثباتًا أشد تعظيمًا لله وتنزيهًا له عما لا يليق بجلاله فإن المعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات فيكون ردها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ولا يترك تدبرها ومعرفتها فيكون ذلك متشابهة للذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صمًا وعميانًا.

ولا يقال هي ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يعرف المراد منها فيكون ذلك متشابه للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني بل هي آيات بينات دالة على أشرف المعاني وأجلها قائمة حقائقها في صدور الذين أوتوا العلم والإيمان إثباتًا بلا تشبيه وتنزيهًا بلا تعطيل كما قامت حقائقها سائر صفات الكمال في قلوبهم كذلك، فكان الباب عندهم بابًا واحدًا قد اطمأنت به قلوبهم وسكنت إليه نفوسهم فأنسوا من صفات كماله ونعوت جلاله بما استوحش منه الجاهلون المعطلون وسكنت قلوبهم إلى ما نفر منه الجاحدون وعلموا أن الصفات حكمها حكم الذات.

فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات فصفاته لا تشبه الصفات فما جاءهم من الصفات عن المعصوم تلقوه بالقبول وقابلوه بالمعرفة والإيمان والإقرار لعلمهم بأنه صفة من لا شبيه لذاته ولا لصفاته.

قال الإمام أحمد : إنما التشبيه أن يقول يد كيد أو وجه كوجه فأما إثبات يد ليست كالأيدي ووجه ليس كالوجوه فهو كإثبات ذات ليست كالذوات.

وحياة ليست كغيرها من الحياة وسمع وبصر ليس كالأسماء والأبصار وليس إلا هذا المسلك أو مسلك التعطيل المحض أو التناقض الذي لا يثبت لصاحبه قدم في النفي ولا في الإثبات وبالله التوفيق [١].

(١) الصواعق المرسلة (ص ٢٢١).

الباب الثالث

أسماء الله الحسنى

الدارسة التطبيقية

أسماء الله الحسنى

الله

اسم الله جل جلاله هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠].

فهذا المشهد تجتمع في المشاهد كلها وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تم له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد، ولسان حال مثل هذا يقول:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

فيا له من غنى ما أعظم خطره وأجل قدره، تضاءلت دونه الممالك فما دونها، وصارت بالنسبة إليه كالظل من الحامل له، والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديث النفس ويطرده الانتباه من النوم[١].

دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات:

اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى. والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠]، ويقال الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٨٠).

والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم الله واسم الله دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب.

وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الجلال والجمال: أخص باسم الله.

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع. والعطاء والمنع. ونفوذ المشيئة وكمال القوة. وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم الرب.

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم الرحمن وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده.

ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجئ رحمن بعباده، ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به[١].

مم اشتق اسم الله:

أظهر الألفاظ لفظ الله، وقد اختلف الناس فيه أعظم اختلاف، هل هو مشتق أم لا؟ وهل هو مشتق من التأله أو من الوله، أو من لاه إذا احتجب؟

إن جميع أهل الأرض، علمائهم وجهالهم، ومن يعرف الاشتقاق ومن لا يعرفه، وعربهم وعجمهم، يعلمون أن (الله) اسم لرب العالمين، خالق السموات والأرض الذي يحيي ويميت، وهو رب كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يراد به هذا المسمى، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشهر من كل اسم وضع لكل مسمى. وإن كان الناس متنازعين في اشتقاقه فليس ذلك بنزاع منهم في معناه.

إنما هو نزاع في وجه دلالة اللفظ على ذلك المعنى مع اتفاقهم على أن المعنى واحد، وهذا القدر لا يخرج اللفظ عن إفادته للسامع اليقين بمسماه[٢].

---

(١) مدارك السالكين (٣٢/١).

(٢) الصواعق المرسلة (ص ٧٤٩).

اسم الله غير مشتق وبيان المراد بالاشتقاق:

زعم السهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي أن اسم الله غير مشتق، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم. والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وإنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له. فما كان جوابكم عن هذه الأسماء؟ فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله.

ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله.

وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعًا ليس معناه، أن أحدهما تولد من الآخر وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة. وقول سيبويه إن الفعل أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء هو بهذا الاعتبار لا أن العرب تكلموا بالأسماء أولاً ثم اشتقوا منها الأفعال، فإن التخاطب بالأفعال ضروري كالتخاطب بالأسماء لا فرق بينهما.

فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم سمي المتضمن بالكسر مشتقًا، والمتضمن بالفتح مشتقًا منه ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى [(١)].

بيان معنى اللهم:

لا خلاف أن لفظة اللهم معناها يا ألله ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اغفر لي وارحمني. واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم: فقال سيبويه: زيدت عوضًا من حرف النداء، ولذلك لا يجوز عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: يا اللهم إلا فيما ندر، كقول الشاعر:

إني إذا ما حدَثٌ أَلَمَّا ... أقول يا اللهم يا اللهما

---

(١) بدائع الفوائد (ص ١٩).

ويسمى ما كان من هذا الضرب عوضًا، إذ هو في غير محل المحذوف، فإن كان في محله سمي بدلاً، كالألف في قام وباع فإنها بدل عن الواو والياء، ولا يجوز عنده أن يوصف هذا الاسم أيضا، فلا يقال: يا اللهم الرحيم ارحمني ولا يبدل منه. والضمة التي على الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد، وفتحت الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها، وهذا من خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف، وبقطع همزة وصله في النداء، وتفخيم لامه وجوبًا غير مسبوقة بحرف إطباق.

هذا ملخص مذهب الخليل وسيبويه.

وقيل: الميم عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: يا ألله أمنا بخير، أي: اقصدنا، ثم حذف الجار والمجرور، وحذف المفعول، فتبقى في التقدير: «يا ألله أم» ثم حذفت الهمزة لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء على ألسنتهم، فبقي «يا اللهم» وهذا قول الفرّاء.

وصاحب هذا القول يجوّز دخول «يا» عليه، ويحتجّ بقول الشاعر:

..................يا اللهمَّا ارْدُدْ علينا شيخَنا مُسلَّما

وبالبيت المتقدم وغيرهما.

ورد البصريون هذا بوجوه:

أحدها: أنَّ هذه تقادير لا دليل عليها، ولا يقتضيها القياس، فلا يصارُ إليها بغير دليل.

الثاني: أن الأصلَ عدم الحذف، فتقدير هذه المحذوفات الكثيرة خلاف الأصل.

الثالث: أن الداعي بهذا قد يدعو بالشرِّ على نفسه وعلى غيره، فلا يصحُّ هذا التقدير فيه.

الرابع: أن الاستعمال الشائع الفصيح يدل على أن العرب لم تجمع بين «يا» و«اللهم» ولو كان أصله ما ذكره الفراء لم يمتنع الجمع، بل كان استعماله فصيحًا شائعًا، والأمر بخلافه.

الخامس: أنه لا يمتنع أن يقول الدَّاعي: «اللهم أُمَّنا بخير»، ولو كان التقدير كما ذكره، لم يجز الجمع بينهما لما فيه من الجمع بين العِوض والمعوّض عنه.

السادس: أنَّ الداعي بهذا الاسم لا يخطر ذلك بباله، وإنما تكون عنايته مجردة إلى المطلوب بعد ذكر الاسم.

السابع: أنه لو كان التقدير ذلك لكان: «اللهم» جملة تامة يحسن السكوت عليها لاشتمالها على الاسم المنادى وفعل الطلب، وذلك باطل.

الثامن: أنه لو كان التقدير ما ذكره لكتب فعل الأمر وحده، ولم يوصل الاسم المنادى، كما يقال: «يا الله قِه» و«يا زيد عِه» و«يا عمرو فِه»؛ لأن الفعل لا يوصلُ بالاسم الذي قبله حتى يجعلا في الخط كلمة واحدة، هذا لا نظير له في الخط. وفي الاتفاق على وصل الميم باسم الله دليلٌ على أنها ليست بفعل مستقل.

التاسع: أنه لا يسوغ ولا يحسن في الدعاء أن يقول العبد: اللهم أُمَّني بكذا، بل هذا مستكرهُ اللفظ والمعنى، فإنه لا يقال: اقصدني بكذا إلا لمن كان يعرض له الغلط والنسيان فيقول له: اقصدني، وأما من كان لا يفعلُ إلا بإرادته، ولا يضل، ولا ينسى، فلا يقال له: اقصد كذا.

العاشر: أنه يسوغ استعمال هذا اللفظ في موضع لا يكون بعده دعاء، كقوله - ﷺ - في الدعاء: «**اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(١)

وقوله: «**اللهم إني أصبحت أُشهدك، وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله، لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك**»(٢).

وقوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ**﴾ [آل عمران:٢٦].

وقوله: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر:٤٦].

وقول النبي - ﷺ - في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك، اللهم**

---

(١) ضعيف: ذكره الهيثمي في المجمع (١٨٣/١٠) وقال رواه الطبراني في الأوسط الصغير، وفيه من لم أعرفهم.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٥٠٦٩) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، والترمذي (٣٣٩٢) في الدعوات، باب: منه، و(٣٥٠١) في الدعوات، من حديث أنس -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «ضعيف سنن أبي داود»: ضعيف.

اغفر لي»[(١)]. فهذا كله لا يسوغ فيه التقدير الذي ذكروه، والله أعلم.

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم، كزيادتها في «زُرقم» لشديد الزرقة، «وابنُـم» في الابن، وهذا القولُ صحيحٌ، ممكن، يحتاجُ إلى تتمّة. وقائله لحـظ معنىً صحيحًـا لا بُدَّ من بيانه، وهو: أنَّ الميمَ تدلُّ على الجمع وتقتضيه، ومخرجهـا يقتضي ذلـك، وهـذا مطّرد على أصل مَن أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، كما هو مذهب أسـاطين العربيـة، وعقد له أبو الفتح بن جني بابًا فـي «الخصـائص»، وذكـره عـن سيبويه، واستـدل عليه بأنواع من تناسب اللفظ والمعنى، ثم قال: «ولقد مكثت برهةً يرد عليّ اللفـظ لا أعلـم موضوعه، وآخذ معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنـى، ثـم أكشـف فأجده كما فهمته أو قريبًا منه». فحكيتُ لشيخ الإسلام هذا عن ابن جنـي، فقـال: وأنـا كثيرًا ما يجري لي ذلك، ثم ذكر لي فصلاً عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنـى اللفـظ، وأنهـم فـي الغـالب يجعلـون الضمـة التي هـي أقـوى الحركـات للمعنـى الأقـوى، والفتحـة خفيفـة للمعنـى الخفيـف، والمتوسـطة للمتوسـط، فيقولون «عز يعز» بفتح العيـن إذا صلـب، «وأرض عـزاز» صلبـة، ويقولـون «عـزَّ يعِـزّ» بكسرها، إذا امتنع، والممتنـع فـوق الصلـب، فقـد يكـون الشـيء صلبًـا ولا يمتنـع علـى كاسره، ثم يقولون: «عزّه يعزُّه» إذا غلبه، قال الله تعالى فـي قصـة داود: ﴿**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ [ص:٢٣]، والغلبة أقوى من الامتناع؛ إذ قد يكون الشـيءُ ممتنعًـا فـي نفسـه، متحصّنًا عن عدوه ولا يغلب غيره، فالغالبُ أقوى من الممتنع، فأعطوه أقوى الحركـات، والصلـب أضعـفُ مـن الممتنـع، فـأعطوه أضعـف الحركـات، والممتنـع المتوسـط بيـن المرتبتين فأعطوه حركة الوسط.

ونظيرُ هذا قولهم «ذِبح» بكسر أوله للمحل المذبوح، و«ذَبح» بفتحه لنفس الفعـل، ولا ريـب أنَّ الجسـمَ أقـوى مـن العَـرَض، فـأعطوا الحركـة القويـة للقـوي، والضعيفـة للضعيف.

وهو مثل قولهم (نِهب) و (نَهب) بالكسر للمنهوب، وبالفتح للفعل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٩٤) فـي الأذان، بـاب: الدعـاء فـي الركـوع، ومسـلم (٤٨٤) فـي الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

وكقولهم: (مِلء) و(مَلء) بالكسر لما يملأ الشيء، وبالفتح للمصدر الذي هو الفعل.

وكقولهم: (حِمل) و (حَمل) فبالكسر لما كان قويًا مثقلاً لحامله على ظهره، أو رأسه، أو غيرهما من أعضائه، والحمل بالفتح لما كان خفيفًا غير مثقل لحامله كحمل الحيوان، وحمل الشجرة به أشبه ففتحوه.

وتأمَّل هذا في الحِبّ والحُبّ، فجعلوا المكسور الأول لنفس المحبوب، ومضمومه للمصدر إيذانًا بخفّة المحبوب على قلوبهم، ولطف موقعه من أنفسهم وحلاوته عندهم، وثقل حمل الحب ولزومه كما يلزم الغريم غريمه. ولهذا يسمى (غرامًا)، ولهذا كثر وصفهم لتحمّله بالشدة والصعوبة، وإخبارهم بأن أعظم المخلوقات، وأشدّها من الصخر والحديد، ونحوهما لو حمله لذاب من حمله، ولم يستقل به، كما هو كثير في أشعار المتقدمين والمتأخرين وكلامهم.

وقوله تعالى في الآيات المحكمات: ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [آل عمران:٧]، والأمة: الجماعة المتساوية في الخلقة أو الزمان. قال تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ [الأنعام:٣٨].

وقال النبي -ﷺ-: «**لولا أن الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها**»(١).

ومنه (الإمام) الذي يجتمع المقتدون به على اتّباعه، ومنه أمّ الشيء بأنه إذا جمع قصده وهمه إليه، ومنه: «رمّ الشيء يرمُّه» إذا أصلحه، وجمع متفرقة. قيل: ومنه سُمِّي الرمّان لاجتماع حَبّه وتضامّه.

ومنه: «ضمَّ الشيء يضمُّه» إذا جمعه، منه: همّ الإنسان وهمومه، وهي إرادته وعزائمه التي تجتمعُ في قلبه.

ومنه قولهم للأسود: «أحم» والفحمة السوداء «حممة» و«حمم رأسه» إذا اسودّ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٤٥) في الصيد، باب: في اتخاذ الكلب للصيد وغيره، والترمذي (١٤٨٦) باب في الصيد، باب ما جاء في قتل الكلاب، والنسائي (١٨٥/٧) في الصيد والذبائح، باب: صفة الكلاب التي أمر بقتلها. وابن ماجه (٣٢٠٥) في الصيد باب النهي عن اقتناء الكلب إلا كلب صيد أو حراسة أو ماشية، من حديث عبد الله بن مغفل -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٢١، ٥٣٢٢) صحيح.

أخرى. فمن نزل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقرا خاصا وعبوديته خاصة [١].

وعبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية ويبقي الدائم الباقي بعدها، فالتعلق بها تعلق بعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول فالمتعلق به حقيق ألا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به.

كذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبوديته بهذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتداء منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده.

فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ، فكما كان واحدا في إيجادك فاجعله واحدا في تأليهك إله ليصبح عبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتأليهك له لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر، وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.
وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي - ﷺ - بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[٢][٣].

❁❁❁

(١) طريق الهجرتين (ص٤٠).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) طريق الهجرتين (ص ٤٠).

البــارئ

قال الله عز وجل: ﴿الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤].

قال الحليمي -رحمه الله-: وهذا الاسم يحتمل معنيين:

أحدهما: الموجد لما كان في معلومه من أصناف الخلائق، وهذا هو الذي يشير إليه قوله -عز وجل-: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾ [الحديد:٢٢].

ولا شك أن إثبات الإبداع والاعتراف به للباري -عز وجل- ليس على أنه أبدع بغتة من غير علم سبق له بما هو مبدعه، لكن على أنه كان عالمًا بما أبدع قبل أن يبدع، فكما وجب له عند الإبداع اسم البديع، وجب له اسم البارئ.

والآخر: أن المراد بالبارئ قالب الأعيان، أي أنه أبدع الماء والتراب والنار والهواء لا من شيء، ثم خلق منها الأجسام المختلفة، كما قال -عز وجل-: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقال: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ**﴾ [ص:٧١]، وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ**﴾ [ص:٧١]، وقال: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾ [الروم:٢٠]، وقال: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**﴾ [الرحمن:١٤، ١٥]، وقال: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]

فيكون هذا من قولهم برأ القواس القوس إذا صنعها من موادها التي كانت لها فجاءت منها لا كهيئتها، والاعتراف لله -عز وجل- بالإبداع يقتضي الاعتراف له بالبرء، إذ كان المعترف يعلم من نفسه أنه منقول من حال إلى حال، إلى قدرعلى الاعتقاد، والاعتراف، والله أعلم[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٤).

الباسط القابض

لم يأتيا في القرآن اسمين بهذه الصيغة وإنما وردا فعلين قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة:٦٤]، وقال: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الشورى:٢٧]، وقال: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً**﴾ [نوح:١٩]، وهذه أفعال تصرفت في القرآن. عن أنس بن مالك قال: غلا السعر على عهد رسول الله -ﷺ- فقالوا: يا رسول الله: قد غلا السعر فسعر لنا، قال: «**إن الله الخالق القابض الباسط الرازق المسَعِّرُ إني لأرجو أن ألقى الله ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال**»[1].

يقال: قبض يقبض قبضا واسم الفاعل قابض، وبسط يبسط بسطًا واسم الفاعل باسط وفي التنزيل ﴿**كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ**﴾ [الرعد:١٤]، قال الجوهري: والقبض خلاف البسط، ويقال صار الشيء في قَبْضتك وفي قُبْضَتِكَ أي في ملكك ودخل مال فلان في القبض بالتحريك وهو ما قبض من أموال الناس والانقباض خلاف الانبساط. وانقبض الشيء صار مقبوضًا، وبسط الشيء نشره وبالصاد أيضًا، وبسط العذر قبوله والبَسْط السعة ويستعمل في الأجسام والذوات المعقولة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [البقرة:٢٤٧]، وانبسط الشيء على الأرض، والانبساط ترك الاحتشام يقال بسطت من فلان فانبسط، وتبسط في البلاد أي سار فيها طولاً وعرضًا، وفلان بِسْط الجسم والباع، والبِسْط بكسر الباء [وضمها] الناقة تخلى مع ولدها لا يمنع منها والجمع بساط وأبساط مثل [ظئر وأظآر]، وقد أبسطت الناقة أي تركت مع ولدها ويد بسيط أي مطلقة وفي قراءة عبد الله: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة: ٦٤]، وقد يستعملان في الجود والبخل يقال: فلان مبسوط اليد إذا كان واسع العطاء كثير الخير سخيًّا وفلان مقبوض اليد على الضد من ذلك وقد يستعملان بمعنى الاقتدار والقهر ومنه

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٥١) في الإجارة، باب: في التسعير، والترمذي (١٣١٤) في البيوع، باب: رقم (٧١) وابن ماجه (٢٢٠٠) في التجارات، باب: من كره أن يسعر، وأحمد في «مسنده» (٢٨٦/٣)، من حديث أنس -رضي الله عنه-، وقال الألباني في: «صحيح الجامع» (١٨٤٦): صحيح.

قوله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة:٢٨].

ومنه قول العرب: يدك الباسطة عليَّ يريدون بذلك الاقتدار على الغير وفي نقيضه قبض اليد عن الغير فالله سبحانه يقبض ويبسط أي يعطي ويمنع ويغلب ويقهر فهمًا من أسماء الأفعال.

قال الحليمي: في معنى الباسط أنه الناشر فضله على عباده يرزق من يشاء ويوسع ويجود ويفضل ويمكن ويخول ويعطي أكثر مما يُحْتَاج إليه.

وقال في معنى القابض: يطوى بره ومعروفه عمن يريد ويضيق ويقتِّر أو يحرم فيفقر. وقال الخطابي: وقيل: القابض هو الذي يقبض الأرواح بالموت الذي كتبه الله تعالى على العباد.

وقيل: يقبض الصدقات ويبسط الجزاء عليها قال: ولا ينبغي أن يدعى ربنا جل جلالة باسم القابض حتى يقال معه الباسط، قال ابن الحصار: وهذان الاسمان يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، قال الله العظيم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٢٧]، وذلك يتضمن قوام الخلق باللطف والخبرة وحسن التدبير والتقدير والعلم بمصالح العباد في الجملة والتفاصيل، وبحسب ذلك يرسل الرياح ويسخر السحاب فيمطر بلدًا ويمنع غيره ويُقِلّ ويُكثر وكذلك يُصَرِّف الأسباب إلى آحاد العباد كما يصرف جملة العوالم لجملة العالمين.

وقال بعض العلماء إن أعظم البسط بسط الرحمة على القلوب حتى تستضيء وتَخْرُج من وضر الذنوب(١).

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن لا قابض ولا باسط إلا سبحانه هو الذي يقبض الجميع ويبسطه. وهو الذي يبسط القلوب والألسنة والأيدي وسائر الأسباب.

فإن كنت مبسوط القلب بالمعارف والحقيقة والعلوم الدينية فابسط بساطك وابسط وجهك واجلس للناس حتى يقتبسوا من ذلك النبراس.

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٦٠).

وإن كنت ذا بسط في الجسم فابسطه في العبادة التي تفضي بك إلى السعادة، وفي الصَّولة على الأعداء بما خولت من المنة والشدة.

وإن كنت ذا بسط في المال فابسط يدك بالعطاء وأزل ما على مالك من الغطاء ولا توك فيوكي الله عليك، ولا تحص فيحصي الله عليك.

وإن كنت لم تنل حظًا من هذه البسطات فابسط قلبك لأحكام ربك ولسانك لذكره وشكره ويدك لبذل الواجبات عليك ووجهك للخلق كما قال - ﷺ - في بذل المعروف: «**فإن لم تجد فالق أخاك بوجه طلق**» ويروى «**طليق**» ولقد أحسن القائل:

بني إن البر شيء هين وجه طليق ولسان لين(١)

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٦٣).

الباطن

فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل هو ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة [(١)].

معنى قرب الله من عابديه وسائليه:

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة:١٨٦]، فهذا قربه من داعيه.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف:٥٦]، فذكر الخبر وهو قريب عن لفظة الرحمة وهي مؤنثه إيذانا بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي -ﷺ- قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(٢)] و«**أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل**»[(٣)]، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي -ﷺ- في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «**أيها الناس اربعوا على أنفسكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[(٤)]، فهذا

---

(١) طريق الهجرتين (٤٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٧٩) في الدعوات، باب: رقم (٧)، والنسائي (٢٧٩/١) في المواقيت، باب: النهي عن الصلاة بعد العصر، وأحمد في «مسنده» (١١٣/٤)، من حديث عمر بن عبسة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١١٧٣): صحيح.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٩٢) في الجهاد والسير، باب: ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ومسلم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، من حديث أبي موسى -رضي الله عنه-.

قربه من داعيه وذاكره، ويعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه، وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله. ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفوة الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهرا ليس فوقه شيء، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا فليضرب عنه صفحا إلى ما هو أولى به [1].

---

(١) طريق الهجرتين (٤٤).

الباعث

ورد في القرآن فعلاً فقال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة:٥٦]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

وهذا الاسم يختص ببعث الأرواح والأجساد والرسل والخواطر إلى غير ذلك، فمعناه قريب من معنى المرسل والمنشئ والخالق أيضًا فهو من صفات الأفعال، وقال ابن العربي: حقيقة البعثة تحريك الشيء في إزعاج [واستعجال] فالبارئ تعالى هو الذي يحرِّكُ الموتى ويظهرهم، وهو الذي حرك الرسل لدعاء الخلق وأظهرهم، وهو الذي حرَّك الرسل عباده إلى الطاعة، وهو الذي بعث عبادًا له على بني إسرائيل، وهو الذي يبعث الكسير وينعشه، فعاد جميع ما بيناه إلى الإظهار والتحريك. لكن سبب ذلك يختلف.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه باعث الموتى يوم النشور ومنشئهم وخالقهم ومعيدهم كما بدأهم. قال الله مخبرًا عن الكفار: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]، فقال لهم المحققون العابدون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، فالله سبحانه يحيي الموتى يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصِّل ما في الصدور. ثم يجب عليه أن يسعى في أسباب البعث من الجهل لنفسه وأهله، وذلك بتحصيل العلم الذي عنه تكون الحياة الحقيقية؛ فيبعث قلبه على اليقين ولسانه على الذكر وجوارحه على العمل وقد ذكر الله العلم والجهل في كتابه العزيز، وسماهما حياة وموتًا. فقال وقوله الحق: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاه﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام:٣٦]، فمن رقى غيره من الجهل إلى المعرفة فقد أنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة. وكل من كان له مدخل في إفادة الخلق بالعلم، ودعائهم إلى الله تعالى فله بذلك نوع من الإحياء وهي رتبة الأنبياء ومن ورثهم من العلماء. وهذا بين لا إشكال فيه. ثم يجب عليه أيضًا قبول باعث الحق، وردُّ باعث الباطل، ولا خلاف في ذلك فاعلمه[1].

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٤٧٨/١) بتصرف.

البــاقي

قال الله -عز وجل-: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

قال الحليمي -رحمه الله-: وهذا أيضًا من لوازم قوله القديم، لأنه إذا كان موجودًا لا عن أول، ولا بسبب لم يجز عليه الانقضاء والعدم، فإن كل منقض بعد وجوده فإنما يكون انقضاؤه. لانقطاع سبب وجوده، فلما لم يكن لوجود القديم سبب فيتوهم أن ذلك السبب إن ارتفع عدم، علمنا أنه لا انقضاء له[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١١، ١٢).

البديع

قال الله -جل ثناؤه-: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧، والأنعام:١٠١]، وعن أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -ﷺ- سمع رجلاً يقول: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أسألك الجنة وأعوذ بك من النار**» فقال النبي -ﷺ-: «**لقد كاد يدعو الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[(١)].

قال الحليمي في معنى البديع: إنه المبدع، وهو محدث ما لم يكن مثله قط، قال الله -عز وجل-: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧، والأنعام:١٠١]، أي: مبدعهما، والمبدع من له إبداع، فلما ثبت وجود الإبداع من الله - عز وجل- لعامة الجواهر والأعراض، استحق أن يسمى بديعًا ومبدعًا[(٢)].

(١) صحيح: والحديث أخرجه أبو داود (١٤٩٥) في الصلاة، باب الدعاء، والترمذي (٣٥٤٤) في الدعوات، باب: رقم (١٠٩)، والنسائي (٥٢/٣) في السهو، باب: الذكر بعد الدعاء، وابن ماجه (٣٨٥٨) في الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، وأحمد في مسنده، (١٥٨/٣، ٢٥٦)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٣، ٢٤).

الـبر

أن يعرف بره سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو ماء لفضحه بين خلقه فحذروه. وهذا من كمال بره. ومن أسمائه البر وهذا البر من ميده كان عن ربه كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، مشاهدة هذا البر والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة. فيبقى مع الله سبحانه. ذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته. وشهود ذل معصيته. فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً، بل في هذه الحال. فإذا فقدها فليرجع إلى طالعة الخطيئة، وذكر الجناية. ولكل وقت ومقام عبودية تليق به[١].

منها أنه سبحانه يجب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه ويريهم مواقع بره وكرمه محبته الأفضال والأنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة الباطنة.

ومن أعظم أنواع الإحسان والبر: أن يحسن إلى من أساء ويعفو عمن ظلم ويغفر ن أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذر من اعتذر إليه وقد ناب عباده إلى هذه شيم الفاضلة والأفعال الحميدة وهو أولى بها منهم وأحق وكان له في تقدير أسبابها من حكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول فسبحانه وبحمده.

وحكى بعض العارفين أنه قال: طفت في ليلة مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا طواف وطاف بي هاتف أنت تسألني العصمة وكل عبادي يسألونني العصمة فإذا صمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر؟ قال: فبقيت ليلتي إلى الصباح أستغفر الله حياءً ه. هذا ولو شاء الله -عز وجل- ألا يعصى في الأرض طرفة عين لم يعص ولكن ضت مشيئته ما هو موجب حكمته سبحانه فمن أجهل بالله ممن يقول أنه يعصى قسراً بر اختياره ومشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً [٢].

) مدارج السالكين (ص ٢٠٥).

) مفتاح دار السعادة (ص٤٩٧).

بيان ما اختص الله به الإنسان من أنواع البر وصنوف الكرامات:

قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٠]، فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون:٤]، فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل مافيه كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:١٢،١٣].

وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤]، فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعاً وأملأ صواعاً من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضياً بعيش بني جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول لي أسوة بهم:

وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وليس نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب فاستلان ما استوعره البطالون وأنس بما استوحش منه الجاهلون [(١)].

❁❁❁

---

(١) مفتاح دار السعادة (ص٤٥٩).

البـــصير

فهو البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع[(١)].

البصيرة ثلاث درجات:

فالبصيرة: نور يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل. كأنه يشاهده رأي عين. فيتحقق -مع ذلك- انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم. وهذا معنى قول بعض العارفين البصيرة: تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وقال بعضهم البصيرة: ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان.

والبصيرة على ثلاث درجات: من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصفات: ألا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصفت الله به نفسه، ووصفه به رسوله. بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله. فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر.

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويا على عرشه، متكلماً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك. موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال، منزها عن العيوب والنقائص والمثال.

هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه. حي لا يموت. قيوم لا ينام. عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. بصير يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. تمت كلماته صدقا وعدلا، وجلت صفاته أن

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢١١).

تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا. وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلا. ووسعت الخليقة أفعاله عدلا. وحكمة ورحمة وإحسانا وفضلا. له الخلق والأمر. وله النعمة والفضل. وله الملك والحمد. وله الثناء والمجد. أول ليس قبله شيء. وآخر ليس بعده شيء. ظاهر ليس فوقه شيء. باطن ليس دونه شيء. أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد. ولذلك كانت حسنى. وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، ولا ترك الإنسان سدًى عطلا. بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته.

وتفاوت الناس في إدراك هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم. وإذا تأملت حال العامة -الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم- رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيماناً، وأعظم تسليما للوحي، وانقيادًا للحق.

المرتبة الثانية من البصيرة في الأمر:

وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به. ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.وقد علمت بهذا أصل البصائر من العلماء من غيرهم.

المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد:

وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلا وآجلا، في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته. فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته. بل شك في وجوده. فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك. ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملا، وتركها سدى. تعالى الله عن هذا الحسبان علوًا كبيرًا.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية. ولهذا كان الصحيح: أن المعـاد معلـوم بالعقل. وإنما اهتدي إلى تفاصيله بالوحي. ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه. لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته. وكلاهما مستلزم للكفر به [١].

وللمصنف في البصيرة طريقة أخرى حيث قال:

البصيرة ما يخلصك من الحيرة. وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عـن عيـن لا يخـاف عواقبها، فترى من حقه أن تؤديه يقيناً، وتغضب له غيرةً.

ومعنى كلامه: أن ما أخبر به الرسول -ﷺ- صادر عن حقيقـة صادقـة، لا يخـاف متبعها فيما بعد مكروهاً. بل يكون آمناً من عاقبة اتباعهـا. إذ هـي حـق. ومتبـع الحـق لا خوف عليه، ومن حق ذلك الخبر عليك: أن تؤدي ما أمرت بـه منـه مـن غيـر شـك ولا شكوى، والأحوط بك والذي لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الأمر بامتثال صادر عن تصديـق محقق، لا يصحبه شك، وأن تغضب على من خـالف ذلـك غيـرة عليـه أن يضيـع حقـه، ويهمل جانبه.

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام البصيرة لأنه على قدر المعرفة بـالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله: تكون الغيرة عليه أن يضيع، والغضب على مـن أضاعـه. فـإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلالـه وتعظيمـه. وذلـك عيـن البصيـرة. فكمـا أن الشك القادح في كمال الامتثال معم لعين البصيرة، فكذلك عـدم الغضـب والغيرة علـى حقوق الله -إذا ضيعت، ومحارمه إذا انتهكت- معم لعين البصيرة.

قال الدرجة الثانية: أن تشهد في هداية الحق وإضلالـه: إصابـة العـدل، وفـي تلويـن أقسامه: رعاية البر، وتعاين في جذبه: حبل الوصل.

يريد -رحمه الله- بشهود العدل في هدايته من هداه، وفي إضلاله من أضله: أمرين.

أحدهما: تفرده بالخلق. والهدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلـك منه علـى وجـه الحكمـة والعـدل، لا بالاتفـاق، ولا بمحـض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هـدي من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده. فالله أعلم حيث يجعل

---

(١) مدارج السالكين (١/١٢٤).

رسالاته، أصلا وميراثا. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]، وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه. ولا يبقى إلا أن يقال: فلم خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط في الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الأضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم.

في تلوين أقسامه رعاية البر:

يريد بتلوين الأقسام: اختلافها في الجنس والقدر والصفة، من أقسام الأموال والقوى، والعلوم والأعمال، والصنائع وغيرها. قسمها على وجه البر والمصلحة، فأعطى كلا منهم ما يصلحه، وما هو الأنفع له، براً وإحساناً.

وقوله وتعاين في جذبه حبل الوصال.

يريد تعاين في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك: أنه يريد تقريبك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصال. وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكا بحبله -الذي هو عهده ووصيته إلى عباده- على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبذل النصيحة في العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة. فمن لا بصيرة له فهو بمعزل عن هذا.

قال الدرجة الثالثة: بصيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة.

يريد بالبصيرة في الكشف والعيان: أن تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب، ولم يقل تفجر العلم لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم. ونسبتها إلى العلم نسبة الروح إلى الجسد. فهي روح العلم ولبه.

وصدق -رحمه الله- فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التي لا تنال بكسب ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه.

وقوله وتثبت الإشارة:

يريد بالإشارة: ما يشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات، والأذواق التي ينكرها الأجنبي من السلوك، ويثبتها أهل البصائر. وكثير من هذه الأمور ترد على السالك. فإن كان له بصيرة ثبتت بصيرته ذلك له وحققته عنده. وعرفته تفاصيله. وإن لم يكن له بصيرة، بل كان جاهلا، لم يعرف تفصيل ما يرد عليه. ولم يهتد لتثبيته.

قوله وتنبت الفراسة:

يعني أن البصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر:٧٥]، قال مجاهد: للمتفرسين. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل**» ثم قرأ: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾[1].

والتوسم تَفَعُّلٌ من السيما. وهي العلامة. فسمي المتفرس متوسماً. لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء. لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك آدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه. فكل قلب قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة. وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان. فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد. فيصير نوراً على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم بزيادة مادته ودوامها. ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال. ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه في الغلاف والأكنة. فأظلم، وعمي عن

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٢٧) في التفسير، باب: ومن سورة الحجر، وقال الألباني في ((ضعيف الجامع)) (١٢٧) : ضعيف.

البصيرة. فحجبت عنه حقائق الإيمان. فيرى الحق باطلا، والباطل حقا، والرشد غيا، والغي رشدا. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، والرين والران هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة. وهي نوعان:

فراسة علوية شريفة: مختصة بأهل الإيمان، وفراسة سفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر. فالأولى فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل. أما الثانية فهي فراسة كشف الصور، والإخبار ببعض المغيبات السفلية التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالا للنفس، ولا زكاة ولا إيمانا ولا معرفة. وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هذه السفليات. لأنهم محجوبون عن الحق تعالى. فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريق هؤلاء وهؤلاء.

وأما فراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره: فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متصلة بالله، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال.

وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب. وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علماً وإرادة وعملا.

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده [1].

(١) مدارج السالكين (١٢٧).

التــواب

نطق به التنزيل فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، ولكن في القرآن معرفًا ومنكرًا واسمًا فعلاً.

يقال: تاب يتوب توبة فهو تائب، والتوبة: الرجوع عن الذنب. وفي الحديث: «الندمة توبة»[١]، وكذلك التوب مثله، وفي التنزيل: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:٣].

وقال الأخفش: التوب جمع توبة مثل عزمة وعزم، وتاب إلى الله توبة ومتابًا، وقد تاب الله عليه وفقه للتوبة، وفي كتاب سيبويه التتوبة: التوبة، واستتابه: سأله التوبة فمعنى توبة العبد رجوعه من المخالفة إلى الموافقة، ومن المعصية إلى الطاعة، تقول: آب وتاب وثاب وناب كل ذلك رجع[٢].

قال الحليمي: وهو المعيد إلى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعته وندم على معصيته، فلا يحبط ما قدم من خير ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان.

وقال أبو سليمان: التواب: هو الذي يتوب على عباده فيقبل توبتهم كلما تكررت التوبة تكرر القبول، وهو يكون لازمًا ويكون متعديًا بحرف، يقال: تاب الله على العبد بمعنى وفقه للتوبة، فتاب العبد، كقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، ومعنى التوبة عودة العبد إلى الطاعة بعد المعصية[٣].

والتوبة الشرعية: الندم على ما وقع التفريط فيه لرعاية حقوق الله. ويظهر صدق الندم على الجوارح بالإقلاع والانكفاف في كل ما يتمكن به. فيصل رحمه التي كان قطعها، ويعيد الصلاة التي كان تركها، ويرد الأموال التي كان أخذها، إلى غير ذلك مما

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢) في الزهد، باب: ذكر التوبة، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢): صحيح.
(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٤٠٧/١).
(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٧٨).

كان اقترفه وخالف فيه أمر ربه واجترحه. فهذا تفسير توبة العبد من الذنب. وأما توبة الرب سبحانه على العبد فقال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الرب سبحانه بأنه تواب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تجوز في حق الرب سبحانه فيدعى به كما جاء في الكتاب والسنة، ولا يتأول. وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه- وتوبة الله على عبده رجوعه به من حال المعصية إلى حال الطاعة. وقال آخرون توبة الله على العبد قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة. وقال الأقليشي: سمَّي الله سبحانه نفسه توابًا لأنه خالق التوبة في قلوب عباده وميسر أسبابها لهم والراجع بهم من الطريق التي يكره إلى الطريق التي يرضى. وسمى نفسه أيضًا توابًا لقبوله توبة من يرجع إليه. ومن القسم الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، ومن القسم الثاني قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٣٩]، فبهذين القسمين سمي نفسه توابًا. ولقد جهل المعتزليُّ الحقيقة فأنكر القسم الأول وهو خلق التوبة في قلب العبد، وهذا مطموس القلب عن طريق القصد. ولما كانت المعاصي متكررة من عباده جاء بصيغ المبالغة ليقابل الخطايا الكثيرة بالتوبة الواسعة. وقال ابن الحصار: قال الله العظيم: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، وقال: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة:١١٨]، فقوله: في تكملة الآية الأولى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:١١٧]، تصريح بتوبته على الإطلاق على من واقع الذنب وكانت منه مخالفة وعصيان فتوبة الله على العبد قد يراد بها تجديد التوبة وتواليها عليه كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، معناه جددوا الإيمان، واستديموه، واثبتوا عليه. وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، ووصفه نفسه بأنه التواب مبالغة لكثرة من يتوب عليه، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضي عمره. وإذا تقرر أن وصفه سبحانه بالتواب خلقه التوبة للعباد وقبولها منهم كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى:٢٥]، أي يقبل توبتهم كما قيل له -عز وجل-: «تواب» فقال أبو القاسم الزجاجي: ليس لنا أن نطلق على الله تعالى من الصفات إلا ما أطلقه جماعة المسلمين أو جاء في الكتاب والسنة، وإن كان في اللغة

محتملاً. وقد قال الله -عز وجل-: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [التوبة:١١٧]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى:٢٥]، فقدْ جاء الفعل منه على فعل ويفعل، وما نطق به بفعل يفعل، فاسم الفاعل منه قياسًا فاعل، كقولك: ضرب يضرب فهو ضارب، وذهب يذهب فهو ذاهب، وقتل يقتل فهو قاتل، فكذلك يقال قياسًا: تاب فهو تائب. فإن كانت الأمة تطلق ذلك على الله- تعالى فقياسه في اللغة مستقيم، وإن لم تطلق ذلك فلا يجوز الإقدام عليه، وإن كان في اللغة جائزًا. وعلى أنه إنما قيل لله -عز وجل-: تواب لمبالغة الفعل بكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه، ويردد هذا الفعل. وتكراره إنما كان ليدل على هذا المعنى. فلا يجاوز هذا. وقد جاء في صفاته -عز وجل- من الفعل ما لم ينطق منه باسم الفاعل، كقوله -عز وجل-: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، ولم يقل لله -عز وجل-: متبارك كما قيل: تعالى فهو متعال، والوزن والتقدير في العربية واحد، وقد جاء في صفاته من نطق منه باسم الفاعل كقولنا: «الله المؤمن المهيمن» ولا تقل: آمن الله ولا هيمن الله، وإنما تنتهي في صفاته -عز وجل- إلى ما أطلقته الأمة وجاء في التنزيل، ونمسك عما سواه. وإذا ثبت هذا فاعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة في قلب أحد؛ لأنه سبحانه هو المنفرد بخلق الأعمال وحده، خلافًا للمعتزلة، ومن قال بقولهم، وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه، ولا أن يعفو عنه. قال ابن الحصار: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، -عز وجل- وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحبر أو الراهب فيعطيه شيئًا ويحط عنه الذنب افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

فيجب على كل مسلم أن يعلم أن لا تواب على الإطلاق إلا الله تعالى، وأن التوبة الواقعة من العبد ليست بمجرد كسبه دون فعل الله، بل العبد تابع في ذلك الفعل لقضاء الرب وفعله الجاري عليه بقدرة ربه. ولذلك قال تعالى: : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، فجعل سبب توبة العبد توبة الله عليه أولاً فالذي يرجعه الله من طريق المعصية إلى الطاعة لا يستبد هو بالرجوع ولا يقدر عليه. والتوبة فرض على كل مسلم من غير خلاف بين المسلمين في كل حين، كالإيمان، قال الله العظيم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وإذا كان سيد البشر يتوب إلى

الله في اليوم مائة مرة، فكيف بأهل الغفلة؟! وإذا قيل له ولصحبه الذين هم خيار خلقه: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة:١١٧]، فجرت عليهم هذه الصفة، وهم أهل الصفوة والمعرفة فكيف بغيرهم الذين لا يشابهونهم في خيرهم؟! فكل عبد مكلف مفتقر إلى التوبة، لأنه لا يخلو من هفوة ما، وحوبة: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]، وكما أن الإيمان يَجُبُّ ما قَبلَه من الآثام، فكذلك التوبة تَجُبُّ ما قبلها من الذنوب: وفي التائبين قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٧٠]، وكلاهما- عمل القلب، فكما أن الإيمان لا يتم إلا بالإسلام، فكذلك التوبة، لأن التوبة إيمان، فلا بد لها من عمل الظاهر والباطن كما قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١]، وإنما ذكر الصلاة والزكاة لأنهما أعظم أركان الدين، وإنما الواجب عليهم امتثال جميع الأوامر واجتناب جميع النواهي، وهذا حكم الكافر إذا تاب، وأما المؤمن إذا تاب فعليه أن يتلافى ما كان فرط منه من عمل بظاهره وباطنه فعمل الباطن الندم والخوف والعزم على ألا يعود، وعمل الظاهر يختلف باختلاف الذنوب، وذلك معتبر بالأوامر والنواهي وما يمكن تلافيه فعلاً أو قولاً، وما لا يمكن ذلك فيه إلا بالعزم. وسواء صدر ذلك منه جهلاً أو عمدًا أو سهوًا، والتوبة لازمة فعليه في السهو رد ما أتلف وقضاء ما فرط، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال في سورة النحل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩]، وكلاهما مكيٌّ وتكرر هذا في سورة النساء فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، وهذه الآية مدنية باتفاق، ودخلت كلمة إنما في أولها للحصر ودخلت الألف واللام للحصر فيما تقدم ذكره بمكة، فضمن الله في الآيات كلها توبة من عمل السوء بجهالة، ولا سيما إذا وقعت بشروطها، فإنها تعقب المغفرة بطريق الفضل من الله لا بطريق الوجوب عليه، إذ لا يجب للمخلوق على الخالق شيء ثم تعلم أن من كل ذنب تصح التوبة ويرجع العبد المذنب كمن لا ذنب له. ووقع التعريض بإبليس ومن كفر كفره، وسلك مثل سبيله من أحبار اليهود والنصارى؛ الذي تعمدوا التكذيب، واستمروا عليه بما أتوه من ذلك. وبقي من تعمد ولم يكذب في المشيئة،

ونص في النساء على أن آخر أمد قبول التوبة الموت وهو عند المعاينة وحضور اليقين للمحتضر بأنه يموت، وقد بين ذلك بقوله الحق: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا**﴾ [غافر:٨٤-٨٥]، والقرب في حق كل مكلف ما لم يحتضر، وفي حق الجميع ظهور الآيات التي أخبر رسول الله - ﷺ - بظهورها، وعرض القرآن بها، منها ما خرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(١). وقد أتينا على هذا المعنى في كتاب التذكرة - مستوفى(٢).

❁❁❁

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٣) في الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٤١٦/١). وانظر «التذكرة» له بتحقيقنا، مطبعة الدار التوفيقية.

الجامع

نطق به القرآن مضافًا فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن:٩]، وجاء في حديث أبي هريرة وأجمعت عليه الأمة.

ويجوز إجراؤه على المخلوق، قال الله العظيم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، ولا خلاف في ذلك.

والجمع في اللغة عبارة عن ضمّ الشيء إلى الشيء، وهو التأليف. وقد يكون في الأجسام ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، و﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ويكون في المعاني إلا أن العرب فرقت بينهما. فإذا استعملته في الأجسام [كان الثلاثي وحده، وإن استعملته في المعاني] كان الفعل [الثلاثي] وغيره. [يقال] أجمعت الأمر، وعلى الأمر. والأمر مجمع. ويقال أيضًا: اجمع أمرك ولا تدعه منتشرًا. فأما قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس:٧١]، مفعول بفعل مضمر وليس بمعطوف التقدير وادعوا شركاءكم، لأنه لا يقال: أجمعت شركائي، إنما يقال، جمعت.

ومن هذا قول الشاعر:

يا ليت زوجك في الوغى متقلدًا سيفًا ورمحًا

أي وحاملاً رمحًا؛ لأن الرمح لا يتقلد به. وأجمعت الشيء جعلته جمعيًا وجمعت الشيء المتفرق فاجتمع، وتجمع القوم أي اجتمعوا من هنا وهناك. والجمع مصدر قولك: جمعت الشيء المتفرق، وقد يكون اسمًا لجماعة الناس. ويُجْمع على جموع. والموضع مجمع ومَجمع مثال مطلع ومطلع جمع مجمع من الثلاثي، وأجمع يجمع على كذا إجماعًا ومنه - إجماع الأمة على كذا.

وجامع في وصف الله تعالى يكون ذاتيًا وفعليًّا، أما الذاتي هو جمعه تعالى للفضائل كلها والصفات الجميلة أجمعها، ولأن المعلومات محصورة في علمه قبل إيجادها. وكيف لا يكون علمه جامعًا لها وفق علمه وإرادته أوجدها بقدرته. وأما إذا كان فعليًا فهو الذي دلَّ عليه القرآن في غير ما آية. فهو الجامع حقًا جمع بين المتفرقات

والمتمثلات والمضادات. وقالت المبتدعة: ليس جامعًا على الإطلاق إلا بجمع الروح والجسد، وسائر ذلك يفعله الخلق دونه أو معه.. تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. بل هو الجامع على الإطلاق: جمع بين المتفرقات والمتباينات. وجمعه سبحانه بين المتفرقات فعل مخصوص من أفعاله، وهو تركيب الجوهر حتى يصير أجسامًا بما يخلق الله فيها من التركيب، ثم يفرقها. ثم يجمعها فيؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات وتلك آية على أنه القادر لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه، وخالق كل شيء ومبدعه. فجمعه بين المتباينات والمتضادات الذي هو من أعظم الدلالات على وجوده، وهو جمعه بين السماء وكواكبها، والأرض وبحارها، والمعادن المختلفة وما فيها - إلى غير ذلك مما استودع الأرض من الحيوانات والنبات، مما هو متباين الأشكال والألوان والطعوم والأوصاف. ومن تأمل الرُّمانة ولون قشرها، وشكله، وطعمه، وشكل حبِّها، ولونه، وطعمه، ثم ما بين الحبات من دقيق قشرة، وغلظ الرمَّانة رأى أشياء متباينةً قد حواها جسم واحد، وكذلك جمعه بين العظم والعصب والعرق والعضلة والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط في بدن الحيوان. وأما المتضادَّات فجمعه بين الحرارة والبرودة، والرطوبة والبيوسة في أمزجة الحيوانات. وهي متنافرات متعاندات. وذلك أبلغ وجوه الجمع وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله هو الجامع بكل اعتبار، ومن جهل أو شكَّ فقد كذب بهذا الأخبار ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن:٩]، ثم يجب عليه أن يُجمع على عبادة ربه ويجمع همومه فيه، ولا يفرقها فيما عداه، وأن يكون جامعًا بين الآداب الظاهرة في الجوارح وبين الحقائق الباطنة في القلوب. فمن كملت معرفته وحسنت سريرته فهو الجامع. ويقال: الجامع هو الذي جمع الفضائل وحوى المكارم والمآثر(١)

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٤٨١/١).

الجبّـار

وأما الجبر فيرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول:

أحدها: أن يغنى الرجل من فقر، أو يجبر عظمه من كسر، وهذا من الإصلاح. وهذا الأصل يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال: جبرت العظم، وجبر. وقد جمع العجاج بينهما في قوله:

قد جبر الدين الإله فجبر

الأصل الثاني: الإكراه والقهر، وأكثر ما يستعمل هذا على أفعل. يقال: أجبرته على كذا، إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء جبرته عليه إلا قليلاً.

والأصل الثالث: من العز والامتناع، ومنه نخلة جبارة. قال الجوهري: والجبار من النخل ما طال وفات اليد. قال الأعشى:

طريق وجبار رواء أصوله عليه أبابيل من الطير تنعب

وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ**﴾ [المائدة:٢٢]، قال: أراد الطول والقوة والعظم. ذهب في هذا إلى الجبار من النخل، وهو الطريق الذي فات الأيدي.

ويقال: رجل جبار، إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار من النخل.

قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم.

وقيل: الجبار هنا من جبره على الأمر، إذا أكرهه عليه. قال الأزهري: وهي لغة معروفة، وكثير من الحجازيين يقولونها.

وكان الشافعي رحمه الله يقول: جبره السلطان، ويجوز أن يكون الجبارة من أجبره على الأمر، إذا أكرهه.

قال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين وهما: جبار من أجبر، ودراك من أدرك. وهذا اختيار الزجاج. قال: الجبار من الناس العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد.

وأما الجبار من أسماء الرب تعالى فقد فسره بأنه الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، والرب سبحانه كذلك.

ولكن ليس هذا معنى اسمه الجبار، ولهذا قرنه باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت.

وكان النبي -ﷺ- يقول: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»[(١)].

فالجبار اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار.

قال ابن عباس في قوله تعالى: الجبار المتكبر هو: العظيم. وجبروت الله: عظمته. والجبار من أسماء الملوك. والجبر الملك. والجبابرة الملوك.

قال الشاعر:

وانعم صباحاً أيها الجبر

أي أيها الملك.

وقال السدي: هو الذي يجبر الناس ويقهرهم على ما يريد.

وعلى هذا فالجبار معناه القهار.

وقال محمد بن كعب: إنما سمي الجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأناً من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته.

قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد.

وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب سبحانه الذي لا يُنال، ومنه قولهم: نخلة جبارة، إذا قامت يد المتناول.

فالجبار في صفة الرب سبحانه يرجع إلى ثلاثة معان: المُلك، والقهر، والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجبار مقروناً بالعزيز والمتكبر. وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين.

وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي: الخالق البارئ المصور. فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٧٣) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، والنسائي (١٩١/٢) في الافتتاح، باب: نوع آخر من الذكر في الركوع، من حديث عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه-، وقال الألباني في: «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

لمعنى اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعـزة والملـك، ولهـذا كان من أسمائه الحسنى.

وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص كمـا قـال تعـالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ [غافر:٣٥].

وقال تعالى لرسوله -ﷺ-: ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ**﴾ [ق:٤٥]، أي مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان.

وفي الترمذي وغيره عن النبي -ﷺ-: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس**»[1][2].

(١) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفـرد» (٥٥٧)، والترمذي (٢٤٩٢) في صفة القيامة، باب: رقم (٤٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/١٧٩)، والحميدي في «مسنده» (٥٩٨)، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، وقـال الألبـاني في «صحيح سنن الترمذي»: حسن.

(٢) شفاء العليل (ص ٢٣٠).

الجميل

وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه بل لو كان جمال الخلق كلهم على رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسبة إلى جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى حذاء جرم الشمس: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**﴾ [النحل:٦٠].

وقد روي عن النبي -ﷺ-: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[1] عبد الله بن عمرو ابن العاص، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وثابت بن قيس، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وأبو ريحانة -رضي الله عنهم-.

ومن أسمائه الحسنى:الجميل، ومن أحق بالجمال ممن كل جمال في الوجود فهو من آثار صنعه، فله جمال الذات، وجمال الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها جميلة.

فلا يستطيع بشر النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدن أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذ إلى شيء غيره، ولولا حجاب النور على وجهه لأحرقت سبحات وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه.

كما هو في صحيح البخاري من حديث أبي موسى -رضي الله عنه- قال: قام فينا رسول الله -ﷺ- بخمس كلمات قال:

«**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩١) في الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، وقد أخرجه أبو أمامة وابن عمر، وجابر، وأبو سعيد، كما في «صحيح الجامع» (١٧٤١-١٧٤٣).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

معرفة الله سبحانه وتعالى بالجمال:

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس.

ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه. ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله. ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي - ﷺ - في دعاء الطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة**».

وقال عبد الله بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره، ومن أسمائه الحسنى (الجميل) وفي الصحيح عنه - ﷺ -: «**إن الله جميل يحب الجمال**»(١).

وجماله سبحانه من أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء. فأسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها صفات كمال وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة. وأما جمال الذات وما هو عليه فالأمر لا يدركه سواه. ولا يعلمه غيره. وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار، كما قال رسوله - ﷺ - فيما يحكى عنه: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**» ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء، فإنه سبحانه الكبير المتعال، فهو سبحانه العلي العظيم.

---

(١) روضة المحبين: (١/٣٤٩).

قال ابن عباس : حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال. وستر بنعوت العظمة والجلال.

ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات. ومن هنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله، وأن أحداً من خلقه لا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وأنه يستحق أن يعبد لذاته. ويحب لذاته، ويشكر لذاته، وأنه سبحانه يحب نفسه ويثني على نفسه ويحمد نفسه، وأن محبته لنفسه وحمده لنفسه وثناءه على نفسه وتوحيده لنفسه هو في الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه، وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله، فكل أفعاله حسن محبوب وإن كان في مفعولاته ما يبغضه ويكرهه، فليس في أفعاله ما هو مكروه مسخوط، وليس في الوجود ما يحب لذاته ويحمد لذاته إلا هو سبحانه وكل ما يحب سواه، فإن كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يحب لأجله فمحبته صحيحة، وإلا فهي محبة باطلة.

وهذا هو حقيقة الإلهية، فإن الإله الحق هو الذي يحب لذاته ويحمد لذاته. فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبره ورحمته، فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله فيحبه ويحمده لذاته وكمّاله، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو فيحبه لإحسانه وإنعامه. ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعاً.

وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة، والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها، فإنها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملاً.

وحمده يتضمن أصلين. الإخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً.

ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه، ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا، فإن حمدهم له بمشيئته وإذنه

وتكوينه، فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً والمسلم مسلماً والمصلي مصلياً والتائب تائباً، فمنه ابتدأت النعم وإليه انتهت، فابتدأت بحمده وانتهت إلى حمده وهو الذي ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح وهي من فضله وجوده وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها، وهي من فضله وجوده، وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه، وما سواه فقير إليه بكل وجه.

والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات، فإن ما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا ينفع[(١)].

إن الله جميل ويحب الجمال:

وقوله في الحديث: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[(٢)] يتناول جمال الثياب المسئول عنه في نفس الحديث. ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء كما في الحديث الآخر: «**إن الله نظيف يحب النظافة**»[(٣)] وفي الصحيح: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا**»[(٤)] وفي السنن: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[(٥)] وفيها عن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي -ﷺ- وعلي أطمار فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم. قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاء، قال: «فلتر نعمته وكرامته عليك»[(٦)] فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده فإنه من الجمال الذي يحبه. وذلك من شكره على نعمه. وهو جمال باطن. فيجب أن يرى على عبده

---

(١) الفوائد (١٩٩/١).

(٢) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) في الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في النظافة، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٩٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦١٦): ضعيف.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥) في الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٥) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨١٩) في الاستئذان والآداب، باب: ما جاء أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» حسن صحيح.

(٦) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠٦٣) في اللباس، باب: في غسل الثوب وفي الخلقان، والنسائي (١٨٠/٨) في الزينة، باب: الجلاجل، من حديث أبي الأحوص، عن أبيه، وقال الألباني: صحيح.

الجمال الظاهر بالنعمة. والجمال الباطن بالشكر عليها.

ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباساً وزينة تجمل ظواهرهم وتقوى تجمل بواطنهم فقال: «**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير**» [الأعراف:٢٦]، وقال في أهل الجنة: ﴿**وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً**﴾ [الإنسان:١١]، فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير. وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة. يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة. فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله.

ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا كل ما خلقه جميل. فهو يحب كل ما خلقه ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئاً. قالوا ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوي الوجود مليح

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ [السجدة:٧]، وقوله: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [النمل:٨٨]، وقوله: ﴿**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾ [الملك:٣]، والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال ولا يرى في الوجود قبيحاً. وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم والبغض في الله والمعاداة فيه وإنكار المنكر والجهاد في سبيله وإقامة حدوده. ويرى جمال الصور من الذكور والإناث من الجمال الذي يحبه الله فيتعبدون بفسقهم، وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها، وإن كان اتحادياً قال هي مظهر من مظاهر الحق، ويسميها المظاهر الجمالية.

وقابلهم الفريق الثاني فقالوا: قد ذم الله سبحانه جمال الصور وتمام القامة والخلقة فقال عن المنافقين: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ**﴾ [المنافقون:٤]، وقال: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً**﴾ [مريم:٧٤]، أي أموالاً ومناظر.

قال الحسن هو الصور وفي صحيح مسلم عنه -ﷺ-: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١) قالوا ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك وإنما نفى نظر المحبة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٦٤) في البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

قالوا وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة وذلك من أعظم جمال الدنيا وقال: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الحجر:٨٨]، وفي الحديث: «**البذاذة من الإيمان**»(١) وقد ذم الله المسرفين، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس.

وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد ومنه ما يذم ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له، كما كان النبي -ﷺ- يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء، والتوسل إلى الشهوات وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين فأوله معرفة وآخره سلوك، فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء. ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذى هو وصفه: ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك (٢).

❁❁❁

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤١٦١) في الترجل، وابن ماجه (٤١١٨) في الزهد، باب: من لا يؤبه له، من حديث أبي أمامة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٧٩): صحيح.

(٢) الفوائد: (ص ٢٠١).

الحافظ

ورد به التنزيل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ [يوسف:٦٤].

قال الحليمي: ومعناه الصائن عبده عن أسباب الهلكة في أمور دينه ودنياه.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينزع داخله إزاره، فلينفض بها فراشه، ثم ليتوسد يمينه، ويقول: «**باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، اللهم إن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[1][2].

وهذا الاسم يدل على من له حفظ وهو فعل الفاعل، ويتضمن العلم والحياة وسائر شروطها، ويختص برعاية الممكنات في النفي والإثبات، وحفظ جميع الموجودات من أن يوجد فيها ما لا يريده وما لا يرضاه. ومنه قوله -عز وجل-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، أي ممنوع من الغلط والنسيان والتبديل والتغيير، وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:١-٤]، فهذا الاسم يكون من أوصاف الذات، ومن أوصاف الفعل، فإن كان من صفات الذات فيرجع إلى معنى العليم، لأنه يحفظ بعلمه جميع المعلومات، فلا يغيب عنه شيء منها، كما يقال: فلان يحفظ القرآن، أي: هو حاضر في قلبه. وفي مقابلة هذا الحفظ النسيان: وعلى هذا خرج قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً﴾ [مريم:٦٤]، وقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، وإن كان من صفات الفعل فيرجع إلى حفظه للوجود.

وضد هذا الحفظ الإهمال، وعلى هذا خرج قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ [يوسف:٦٤]، فحفظ الله تعالى للجميع يكون بأقواله وأفعاله وبملائكته: قال الله العظيم: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢]، وقال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، أي: ملائكة تمنعهم وتصدهم[3].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٢٠) في الدعوات، باب: التعوذ والقراءة، عند النوم، ومسلم (٢٧١٤) في الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٩).

(٣) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٠٨).

الحسيب

قال الله -جل ثناؤه-: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [النساء:٦، والأحزاب:٣٩].

قال الحليمي: ومعناه المدرك للأجزاء والمقادير التي يعلم العباد أمثالها بالحساب من غير أن يحسب، لأن الحاسب يدرك الأجزاء شيئًا فشيئًا، ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه، والله تعالى لا يتوقف علمه بشيء على أمر يكون، وحال يحدث، وقد قيل الحسيب هو الكافي، فعيل بمعنى مفعل. تقول العرب نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني أي أعطاني ما كفاني حتى قلت: حسبي(١).

وعلى ذلك فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سريع الحساب، وأسرع الحاسبين، وأن كل حاسب وحساب فمن عنده، وأنه يحاسب خلقه ويجازيهم وروي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه كان يقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [النحل:١].

قال الأقليشي: فأرباب القلوب المحسون بأوجاع الذنوب العالمون يقينًا بمحاسبة علام الغيوب، وإحصاء حسابه جميع العيوب، أقاموا في الدنيا موازين القسط على أنفسهم، وأحصوا عليها بالحساب المحرر كل ما برز عنها وصدر، ثم حاسبوها محاسبة الشريك النحرير القائم بما له شريكه الذي انفصل عن شركته بعداوة وقعت بينها وبينه. فانظر هل يسمع له بترك حبه، أو يسقيه من مائه عند ظمئه عبَّة، فلذلك انتثرت ذنوب هؤلاء من الصحائف كما ينتثر ورق الشجر اليابس بالريح العاصف، فإذا قدموا قضاء الموقف برزت لهم تلك الصحائف منيرة، وقد استنارت فيها المعاني والأحرف؛ لأنها ممحصة مخلصة بدقيق المحاسبة وشديد المطالبة، فكان حسابهم عرضًا لا مناقشة(٢).

❁❁❁

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٧).

(٢) الأسنى: في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٠٩/١).

الحفي

نطق به التنزيل فقال مخبرًا عن الخليل: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، أي كثير لمبرة وقال ابن العربي: إنَّ هذا الاسم لم يذكره أحد من العلماء من سلف منهم ومن خلف، ولكنا استخرجناه من كتاب الله تعالى، قلت: هذه دعوى وقد ذكره قبله غير واحد منا لعلماء كالحليمي والبيهقي وغيرهما. وذكر الهروي في غريبيه أخبرنا ابن عمار عن أبي عمر قال سأل ابن كيسان ثعلبًا عن قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فقال: قال ابن الأعرابي: كان بي بارًا وصولاً قال: فقوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]، قال: معنى هذا غير معنى ذلك. والعرب تقول: فلان حفي بخبر فلان كان معنيًا بالسؤال عنه. وروى عن مجاهد أنه قال: أراد كأنك استحفيت عنها السؤال حتى علمتها أي أكثرت المسألة عنها. يقال: أحفى في السؤال وألحف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمد:٣٧]، أي يبالغ في مسألتكم، وفي الحديث: «**إن عجوزًا دخلت عليه فسأل بها فأحفي**» يقال: أحفى بصاحبه وتحفى به وحفي به أي بالغ في بره ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، أي بارًا وقال الأزهري في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي عالم بها، المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي. وقيل معناه كأنك فرح بسؤالهم عنها، يقال: تحفيت بفلان في المسألة إذا سألت به سؤالاً أظهرت فيه البر. وقال السدي: كأنك حفي عنها كأنك حفي بهم أي صديق لهم. وفي حديث عمر -رضي الله عنه- قال: فأنزل أويسا القرني فاحتفاه وأكرمه قوله: فاحتفاه أي بالغ في إلطافة ومسألته وقد حفي به حفاء وتحفي به أيضًا. ومنه الحديث عن علي -رضي الله عنه-، أن الأشعث سلّم عليه فرد عليه بغير تحف، فهذا كله من كتاب الهروي. وقال الجوهري: والحفاوة بالفتح: المبالغة في السؤال عن الرجل، والعناية في أمره وفي المثل: مأربة لا حفاوة. تقول منه: حفيت به بالكسر حفاوة وحفوة وتحفيت به أي بالغت في إكرامه وإلطافه. وحفي الفرس انسحج حافره، وأحفى الرجل إذا حفيت دابته والحفي: العالم الذي يتعلم الأشياء باستقصاء، والحفي أيضًا المستقصي في السؤال.

قال الأعشى:

فإن تسألني عني فيا رُبّ سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

وحكى ابن العربي عن ثعلب بأنه المعتني بالأمر يقال: أحفى المسألة عن الشيء: علمه. أي الحف في السؤال من قوله تعالى: ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمد:٣٧]، وقيل:

الحفي الحاكم تقول العرب للحاكم الحافي. تحافينا إلى فلان أي تحاكمنا إليه. وقيل: الحفي المانع والحفو المنع. يقال: حفا فلان فلانًا من كل خير إذا منعه منه، وأتاني يسألني فحفوته أي منعته ويقال حفاه: أعطاه. فهذا الاسم مشترك يقع على معان متعددة وأكثر رجوعه إلى الاسم الذي قبله، إلا أن فيه مبالغة في البر والإلطاف والإكرام والإسعاف، قال الفراء: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي عالمًا لطيفًا يجيبني إذا دعوته وإذا كان الحفي هو المعتني بالسؤال فهو سبحانه الذي يسأل عن عباده على العموم والخصوص سؤال تقرير ومباهاة لا سؤال استفهام واستعلام وذلك كثير كقوله -ﷺ-: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل**» الحديث وفيه فيقول: «**كيف تركتم عبادي**»[١]. الحديث. وكقوله -عليه السلام-: «**لله ملائكة سياحون...**» الحديث وفيه «**فيسألهم ربه وهو أعلم بهم ما يقول عبادي**»[٢]. الحديث. وإذا قلنا: إن الحفي هو العالم فقد تقدم وتسميته به مجاز ووجهه أن السؤال يفتح باب العلم فسمي به وإذا قلنا: إن الحفي هو المانع أو الحاكم فيأتي الكلام في ذلك عند اسمه المانع والحكم.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه الحفي على الإطلاق، المبالغ في البر والإفضال، الذي وعد على الحسنة عشرًا ثم تفضل بأن ضاعفها إلى سبعمائة ضعف، قال رسول الله -ﷺ-: «**إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله -عز وجل**»[٣]. رواه أبو هريرة أخرجه مسلم. فتفضل سبحانه بالإسلام بداء ثم تفضل عودًا وعودًا من غير استحقاق يجب عليه، بل كل ذلك فضل منه ورحمة. وسيأتي لهذا مزيد بيان في الاسم بعد هذا، ثم ينبغي له أن يكون كثير السؤال عن العلم بالطلب له والبحث عنه حتى يلحق بالعلماء ويكون تلو الملائكة الكرماء.

❁❁❁

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٥) في مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، ومسلم (٦٣٢) في المساجد، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: وهو السابق.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٢) في الإيمان، باب: حسن إسلام المرء، ومسلم (١٢٩) في الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت له، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

الحفيظ

قال الله -عز وجل-: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى:٦].

وقال الحليمي: ومعناه الموثوق منه بترك التضييع.

وقال أبو سليمان فيما أخبرت عنه: الحفيظ هو الحافظ، فعيل بمعنى فاعل كالقدير والعليم، يحفظ السموات والأرض وما فيهما لتبقى مدة بقائها فلا تزول ولا تدثر، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧]، أي: حفظناها حفظًا، وهو الذي يحفظ عباده من المهالك والمعاطب، ويقيهم مصارع الشر. قال الله -عز وجل-: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١]. أي بأمره، ويحفظ على الخلق أعمالهم، ويحصي عليهم أقوالهم، ويعلم نياتهم، وما تكن صدورهم، فلا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عليه خافية، ويحفظ أولياءه فيعصمهم عن مواقعة الذنوب، ويحرسهم من مكائد الشيطان، ليسلموا من شره وفتنته[1].

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو الحافظ لجميع الممكنات والحفيظ. وأعظم الحفظ حفظ القلوب وحراسة الدين عن الكفر والنفاق وأنواع الفتن وفنون الأهواء والبدع حتى لا يزلّ عن الطريقة المثلى. قال الله العظيم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، لا الحفظ من بلايا الأمراض والأوصاب، والبلايا النازلة بالمال والولد، فإن هذا يؤدي إلى الجنة والأول يؤدي إلى النار ولقد أحسن القائل:

في كل بلوى تصيب العبد عافية ... إلا البلاء الذي يودي إلى النار

ذاك البلاء الذي ما فيه عافية ... من البلاء ولا ستر من العار

ويجب عليه حفظ حدوده وحفظ ما وجب عليه من حقوقه، فيدخل في ذلك معرفة الإيمان والإسلام وسائر ما يتعين عليه علمه، ويجب عليه حفظ ما استحفظه الله إياه

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٩)، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣١٠/١).

بحسن الرعاية له والقيام عليه. ويقال: من حفظ لله جوارحه حفظ الله عليه قلبه، ومن حفظ لله حقه حفظ الله عليه حظه. وفي حديث ابن عباس أن النبي -ﷺ- قال: «**يا بني احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك**»[1]، وسيأتي بكماله. وذكر القشيري: سمعت الشيخ أبا علي الدقاق -رحمه الله- يقول: ورث بعض الصالحين عن موروث له عشرة آلاف درهم فقال إلهي إني محتاج إلى هذه الدراهم ولكني لست أُحسن حفظها فأدفعها إليك لتردها على وقت حاجتي وتصدق بتلك الدراهم ولزم الفقر، قال: فما احتاج ذلك الرجل قط طول حياته إلى شيء فكان إذا أراد شيئًا فتح الله له في الوقت، وحكي عن بعض الصالحين أنه وقع بصره يومًا على محظور فقال: إلهي إنما أرد بصري هذا لأجلك، فإذا صار سببًا لمخالفة أمرك فاسلبنيه. قال: فعمي الرجل. قال: وكان يقوم بالليل ويصلي فغاب ليلة من الليالي من كان يعينه على الطهارة فقال: إلهي إنما: قلت خذ بصري لأجلك، فالليلة أحتاج إليه لأجلك فرده عليّ. قال: فرد الله عليه بصره وصار يبصر بعد العمى، ويحكى أن اللص دخل دار رابعة العدوية وكان النوم أخذها فأخذ اللص الملاءة فخفى عليه باب الحجرة فوضع الملاءة فأبصر الباب فرفع الملاءة ثانيًا فخفي عليه الباب، ولم يزل يفعل ذلك مرات فهتف هاتف: ضع الملاءة فإنا نحفظها لها ولا ندعها وإن كانت نائمة. فهذا تحقيق الحفظ[2].

❁❁❁

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة، باب: رقم (٢٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٩٣/١)، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣١٣/١).

الحـق

الحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما، هو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات سطورًا في صفحاته يقرؤه كل موفق كاتب، وغير كاتب كما قيل:

تـأمل سـطور الكائنـات فإنهـا ... من الملأ الأعلى إليـك رسـائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما الحق الذي هو غاية خلقها فهو غاية تراد من العباد وغاية تراد بهم فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا يشركون به شيئاً فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]، فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذه الغاية هي المرادة من العباد وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده. وأما الغاية المرادة بهم في الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُون * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُون﴾ [يونس:٣،٤]، فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخراً ووسطاً، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق.

وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وتأمل ما في هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان الذي ظنه أعداؤه. إذ هو مناف لكمال ملكه، ولكونه الحق. إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي فيتصرف في خلقه بقوله وأمره. وهذا هو الفرق بين الملك والمالك إذ المالك هو المتصرف بفعله والملك هو المتصرف بفعله وأمره. والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره فمن ظن أنه خلق خلقه عبثاً لم يأمرهم ولم ينههم. فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة. فقد طعن في ملك الله ولم يقدره حق قدره، وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها.

فكما أن ذاته الحق فقوله الحق. ووعده الحق. وأمره الحق. وأفعاله كلها حق وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق. فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه وبكل اعتبار فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه. فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثاً، وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعي رحمه الله: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر. ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان.

فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب، ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨]، فمن لم يتركه وهو نطفة سدى. بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي. وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشراً سوياً. فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية

كماله الذي خلق له. فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات. كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه.

و إنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثاً ويتركها سدى بعد كمال خلقها، فتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم، ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب كيف كان هذا الزعم منهم قولاً بأن خلق السموات والأرض باطل فقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ [ص: ٢٧]، فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولاً، ولم يجعل لهم أجلاً للقائه كان ذلك ظناً منهم أنه خلق خلقه باطلاً، ولهذا أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلاً، وأنهم لما علموا ذلك، وشهدوا به علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]، فلما علموا أن خلق السموات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض فقالوا: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض الإقرار به تعالى بوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدهموها، وذلك تمام نعمته عليهم فتوسلوا بإنعامه عليهم أولاً إلى انعامه عليهم آخراً، وتلك وسيلة طاعته إلى كرامته وهي إحدى الوسائل إليه. وهي الوسيلة التي أمرهم بها في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ [المائدة: ٣٥]، وأخبر عن خاصة عباده أنهم يبتغون الوسيلة إليه إذ يقول تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾ [الإسراء: ٥٧].

على أن في هاتين الآيتين أسراراً بديعة ذكرتها في كتاب التحفة المكية في بيان الملة الإبراهمية، فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض. إنها لم يخلقها باطلاً، وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه والتوسل إليه بطاعته والإيمان به. وهذا الذي ذكرناه قطرة من بحر لا ساحل له فلا تستطله فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس ولا يقبله كل محروم، والله يختص برحمته من يشاء [(١)].

(١) بدائع الفوائد (٣٣٥/٤).

الحَكَم

والحكم نوعان:

حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني فهذا الذي ذكره الشيخ في منازل السائرين وشرحه عليه الشارحون إنما مراده به الحكم الكوني القدري، وحينئذ فلا بد من تفصيل ما أجملوه من مسالمة الحكم والاستسلام له وترك المنازعة له، فإن هذا الإطلاق غير مأمور به ولا ممكن للعبد في نفسه بل الأحكام ثلاثة: حكم شرعي ديني، فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول فإذا تلقى يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلا البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول فإذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة إقرارًا وتصديقا بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذ وعمل، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقه تحت الأمر، واضمحل خوضه في معرفته بالحق فاطمأن إلى الله معرفة به ومحبة له وعلما بأمره.

الحكم الثاني: الحكم الكوني:

الذي للعبد فيه كسب فيدافع به وله كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي: «الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعا للقدر لا واقفا مع القدر» إرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الديني.

الحكم الثاني: الحكم الكوني القدري:

الذي للعبد في كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضا، فينازع حكم الحق بالحق للحق[1].

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٦٦).

التحاكم إلى غير الله تحاكم إلى الطاغوت:

ومن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أمر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر[1].

(١) طريق الهجرتين (ص ٦٦).

الحكيم

والحكمة إنما تكون في حق من يفعل شيئا لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئا لشيء البتة فلا يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئا لشيء البتة فلا يتصور في حقه الحكمة. وهؤلاء يقولون[1]: ليس في أفعاله وأحكامه لام التعليل، وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فإنما اقترنت بها اقترانا عاديا، لا أن هذا كان لأجل هذا، ولا نشأ السبب لأجل المسبب، بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة، إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة التي ترجح مثلا على مثل، بل لا مرجح أصلا، وليس عندهم في الأجسام طبائع وقوى تكون أسبابا لحركاتها، ولا في العين قوة امتازت بها على الرجل يبصر بها ولا في القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر، بل خص سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصا لمثل على مثل بلا سبب أصلا ولا حكمة.

فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد، كما لم يثبت له أولئك كمال الملك، وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الأمة، ولهذا كان منكر والأسباب والقوى والطبائع يقولون: العقل نوع من العلوم الضرورية كما قال القاضيان أبو بكر بن الطيب وأبو يعلى ابن الفراء وأتباعهما، وقد نص أحمد على أنه غريزة، وكذلك الحارث المحاسبي وغيرهما، فأولئك لا يثبتون غريزة ولا قوة ولا طبيعة ولا سببا، وأبطلوا مسميات هذه الأسماء جملة وقالوا: إن ما في الشريعة من المصالح والحكم لم يشرع الرب سبحانه ما شرع من الأحكام لأجلها بل اتفق اقترانها بها أمرًا اتفاقيا، كما قالوا نظير ذلك في المخلوقات سواء، والعلل عندهم أمارات محضة لمجرد الاقتران الاتفاقي. وهم فريقان:

أحدهما: لا يعرجون على المناسبات ولا يثبتون العلل بها البتة، وإنما يعتمدون على تأثير العلة بنص أو إجماع، فإن فقدوا فزعوا إلى الأقيسة الشبيهة.

والفريق الثاني: أصلحوا المذهب بعض الإصلاح وقربوه بعض الشيء وأزالوا تلك النفرة عنه، فأثبتوا الأحكام بالعلل والعلل بالمناسبات والمصالح، ولم يمكنهم الكلام في

---

(١) يشير إلى الأشاعرة نفاة الحكمة ومن شابههم.

الفقه إلا بذلك، ولكن جعلوا اقتران أحكام تلك العلل والمناسبات بها اقترانا عاديا غير مقصود في نفسه والعلل والمناسبات أمارات ذلك الاقتران، وهؤلاء يستدلون على إثبات علم الرب بما في مخلوقاته من الأحكام والإتقان والمصالح، وهذا تناقض بيِّن منهم، فإن ذلك إنما يدل إذا كان الفاعل يقصد أن يفعل الفعل على وجه مخصوص لأجل الحكمة المطلوبة منه، وأما من لم يفعل لأجل ذلك الإحكام والإتقان وإنما اتفق اقترانه بمفعولاته عادة فإن ذلك الفعل لا يدل على العلم، ففي أفعال الحيوانات من الإحكام والإتقان والحكم ما هو معروف لمن تأمله، ولكن لما لم تكن تلك الحكم والمصالح مقصودة لها لم تدل على علمها.

والمقصود أن هؤلاء إذا قالوا: إنه تعالى لا يفعل لحكمة امتنع عندهم أن يكون الإحكام دليلا على العلم وأيضا فعلى قولهم يمتنع أن يحمد على ما فعله لأمر ما حصل للعباد من نفع، فهو سبحانه لم يقصد بما خلقه لنفعهم ومصالحهم، بل إنما أراد مجرد وجوده لا لأجل كذا ولا لنفع أحد ولا لضره، فكيف يتصور في حق من يكون فعله ذلك حمد؟ فلا يحمد على فعل عدل، ولا على ترك ظلم، لأن الظلم- عندهم- هو الممتنع الذي لا يدخل في المقدور، وذلك لا يمدح أحد على تركه وكل ما أمكن وجوده فهو عندهم عدل فالظلم مستحيل غندهم إذ هو عبارة عن الممتنع المستحيل لذاته الذي لا يدخل تحت المقدور ولا يتصور فيه ترك اختياري فلا يتعلق به حمد، وإخباره تعالى عن نفسه بقيامة بالقسط حقيقته عندهم مجرد كونه فاعلا لا أن هناك شيئا هو قسط في نفسه يمكن وجود ضده، وكذلك قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، نفي عندهم لما هو مستحيل في نفسه لا حقيقة له، كجعل الجسم في مكانين في آن واحد وجعله موجودا معدوما في آن واحد، فهذا ونحوه عندهم هو الظلم الذي تنزه عنه، وكذلك قوله: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا**»[(١)] فالذي حرمه على نفسه هو المستحيل الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين وليس هناك ممكن يكون ظلما في نفسه وقد حرمه على نفسه، ومعلوم أنه لا يمدح الممدوح بترك ما لو أراده لم يقدر عليه. وأيضا فإنه قال: «**وجعلته محرما بينكم**» فالذي حرمه على نفسه هو الذي جعله محرما بين عباده وهو الظلم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧) في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

المقدور الذي يستحق تاركه الحمد والثناء. والذي أوجب لهم هذا مناقضة القدرية المجوسية ورد أصولهم وهدم قواعدهم، ولكن ردوا باطلا بباطل وقابلوا بدعة ببدعة وسلطوا عليهم خصومهم بما التزموه من الباطل فصارت الغلبة بينهم وبين خصومهم سجالا مرة يَغلبون ومرة يُغلبون لم تستقر لهم النصرة، الثابتة لأهل السنة المحضة الذين لم يتحيزوا إلى فئة غير رسول الله -ﷺ-، ولم يلتزموا غير ما جاء به، ولم يؤصلوا أصلا ببدعة يسلطون عليهم به خصومهم، بل أصلهم ما دل عليه كتاب الله وكلام رسول وشهدت به الفطر والعقول [1].

ورود الحكمة في الكتاب والسنة:

النوع الأول: التصريح بلفظ الحكمة وما تصرف منه، كقوله: ﴿**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ**﴾ [القمر:٥].

وقوله: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء:١١٣].

وقوله: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾ [البقرة:٢٦٩].

والحكمة هي: العلم النافع، والعمل الصالح. وسمي حكمة لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلى غايتهما. وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلاً إلى الغايات المحمودة والمطالبة النافعة، فيكون مرشداً إلى العلم النافع والعمل الصالح، فتحصل الغاية المطلوبة.

فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين، ولا هداهم، ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلالتهم على أسبابها وموانعها ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم لأجلها، ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها، لم يكن حكيماً ولا كلامه حكمة، فضلاً عن أن يكون بالغة.

النوع الثاني: إخباره أنه فعل كذا لكذا، وأنه أمر بكذا لكذا، كقوله: ﴿**ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [المائدة:٩٧]، وقوله: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾ [الطلاق:١٢].

---

(١) طريق الهجرتين (ص ١٩٦).

وقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

وقوله: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وقوله: ﴿إِنَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥].

وقوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن:٢٧،٢٨].

أي: ليتمكنوا بهذا الحفظ والرصد من تبليغ رسالاته فيعلم الله ذلك واقعاً.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

وقوله: ﴿وَيُبْطِلَ البَاطِلَ﴾

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل:١٠٢].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر:٣١].

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة:١٤٣].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وقوله: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم:٥٢].

وقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥].

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

وقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]. وهذا في القرآن كثير.

فإن قيل: اللام في هذا كله لام العاقبة، كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً﴾ [القصص:٨].

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣].

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج:٥٣].

وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

فإن ما بعد اللام في هذا ليس هو الغاية المطلوبة، ولكن لما كان الفعل منتهياً إليه وكان عاقبة الفعل دخلت عليه لام التعليل وهي في الحقيقة لام العاقبة.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن لام العاقبة إنما تكون في حق من هو جاهل أو هو عاجز عن دفعها. فالأول كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً﴾ [القصص:٨].

والثاني: كقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

وأما من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فيستحيل في حقه دخول هذه اللام. وإنما اللام الواردة في أفعاله وأحكامه لام الحكمة والغاية المطلوبة.

الجواب الثاني: إفراد كل موضع من تلك المواضع بالجواب. أما قوله: ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً**﴾ [القصص:٨].

فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدواً وحزناً. وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم.

فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من ألا يكون فيه صنع ولا اختيار.

فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر. وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا**﴾ [الأنعام:٥٣].

فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور، وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم أَنِفَ وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان خيراً وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه.

فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به. وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره. والعلل الغائية تارة تطلب لنفسها وتارة تطلب لغيرها، فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه.

وقول هؤلاء ما قالوه، وما يترتب عليه هذا القول، موجب لآثار مطلوبة للفاعل من إظهار عدله وحكمته وعزه وقهره وسلطانه وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه

عنده، ومنعه من يستحق المنع ولا يليق به غيره. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها. وكانت فتنة بعضهم ببعض لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء [1].

صور الابتلاء في خلقه رحمة منه وحكمة فيها له:

فإن قيل: فكيف تصنعون بما يشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للأطفال والحيوانات ومن هو خارج عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟

قيل: قد تقدم من الكلام في ذلك ما يكفي بعضه لذى الفطرة السليمة والعقل المستقيم وأما من فسدت فطرته وانتكس قلبه وضعفت بصيرة عقله فلو ضرب له من الأمثال ما ضرب فإنه لا يزيده إلا عمى وتحيرا ونحن نزيد ما تقدم ايضاحا وبيانا إذ بسط هذا المقام أولى من اختصاره فنقول: قد علمت أن جميع أسماء الرب سبحانه حسنى وصفاته كمال وأفعاله حكمة ومصلحة، وله كل ثناء وكل حمد ومدحه، وكل خير فمنه وله بيده، والشر ليس إليه بوجه من الوجوه. لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن كان في مفعولاته فهو خير بإضافته إليه وشر بإضافته إلى من صدر عنه ووقع به. فتمسك بهذا الأصل ولا تفارقه في كل دقيق وجليل، وحكمه على كل ما يرد عليك، وحاكم إليه واجعله آخيتك التي ترجع إليها وتعتمد عليها.

واعلم أن لله خصائص في خلقه ورحمة وفضلا يختص به من يشاء، وذلك موجب ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى وسوسة شياطين الإنس والجن والنفس الجاهلة الظالمة إنه هلا سوى بين عباده في تلك الخصائص وقسمها بينهم على السواء فإن هذا عين الجهل والسفه من المعترض به، وقد بينا فيما تقدم أن حكمته تأبى ذلك وتمنع منه. ولكن اعلم أن الأمر قسمة بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء ويقصد بعذابه من يشاء وهو المحمود على هذا، فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبيثون مقصودون بعذابه، ولكل واحد قسطه من

---

(١) شفاء العليل (ص ٣٣٦).

الحكمة والابتلاء والامتحان، وكل مستعمل فيما هو له مخلوق، وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته، فكذلك لا تضرهم الأدواء ولا السموم، بل متى وسوس لهم العدو واغتالهم بشيء من كيده أو مسهم بشيء من طيفه تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون وإذا وقعوا في معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة وانقلب في حقهم دواء وبدل حسنة بالتوبة النصوح والحسنات الماحية، لأنه سبحانه عرفهم بنفسه وبفضله وبأن قلوبهم بيده وعصمتهم إليه حيث نقض عزماتهم وقد عزموا ألا يعصوه، وأراهم عزته في قضائه، وبره وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه وافتقارهم وذلهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلى النجاة أبدا، فإنهم لما أعطوا من أنفسهم العزم ألا يعصوه وعقدوا عليهم قلوبهم ثم عصوه بمشيئته وقدرته وعرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره إياهم وكريم حلمه عنهم وسعة مغفرته لهم برد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته، وأنه حليم ذو أناة ورحيم سبقت رحمته غضبه، وأنهم متى رجعوا إليه بالتوبة وجدوه غفورا رحيما حليما كريما يغفر لهم السيئات ويقيلهم العثرات ويودهم بعد التوبة ويحبهم، فتضرعوا إليه حينئذ بالدعاء وتوسلوا إليه بحسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءه ويسرهم للتوبة والإنابة وأقبلوا بقلوبهم إليه إعراضا عنه، ولم تمنعه معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبره لهم وإحسانه إليهم فتاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه فلما تابوا إليه استغفروه وأنابوا إليه تعرف إليهم تعرفا آخر: فعرفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبره وامتنانه وكرمه وشرعه، ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والإيضاع في طريق معاصيه،وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم، وكرمه في أن خلى بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمه وإعانته، ثم لم يخل بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يرجى معه فلاح، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي فاستخرج منهم داء لو استمر معهم لأفضى إلى الهلاك، ثم تداركهم بروح الرجاء فقذفه في قلوبهم وأخبر أنه عند ظنونهم به، ولو أشهدهم عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه ومقته على من عصاه فقط لأورثهم ذلك المرض القاتل أو الداء العضال من اليأس من روحه والقنوط من رحمته وكان ذلك عين هلاكهم، ولكن رحمهم قبل البلاء، وجعل

تلك الآثار التي توجبها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمة لهم وسببا إلى علو درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده، فأشهدهم بالجناية عزة الربوبية وذل العبودية، ورقاهم بآثارهم إلى منازل قربه ونيل كرامته، فهم على كل حال يربحون عليه يتقلبون في كرمه وإحسانه، وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير به يسوقه إلى كرامته وثوابه.

وكذلك عطاياه الدنيوية نِعَمٌ منه عليهم فإذا استرجعها أيضا وسلبهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة ما قيل: إن الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت الآخرة. والرب سبحانه قد تجلى لقلوب المؤمنين العارفين وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضى مشيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه وكرمه وبره وإحسانه وسعة مغفرته ورحمته وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلى حيث احتملته القوى البشرية ووراءه مما لم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خلد مما لا نسبة لما عرفوه إليه.

فاعلم أن الذين كان قسمهم أنواع المعاصي والفجور، وفنون الكفر والشرك والتقلب في غضبه وسخطه وقلوبهم وأرواحهم شاهدة عليهم بالمعاصي والكفر مقرة بأن له الحجة عليهم وأن حقه قبلهم، ولا يذكر أحد منهم النار إلا وهو شاهد بذلك مقر به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد. فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة أخرى لا يشهد بها أعداؤه، ولو شهدوا بها وباءوا بها لكانت رحمته أقرب إليهم من عقوبته، فيشهدون أنهم عبيده وملكه وأنه أوجدهم ليظهر بهم مجده وينفذ فيهم حكمة ويمضي فيهم عدله، ويحق عليهم كلمته ويصدق فيهم وعيده ويبين فيهم سابق علمه ويعمر بها ديارهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته، وشهد أولياؤه عظيم ملكه وعز سلطانه وصدق رسله وكمال حكمته وتمام نعمته عليهم وقدر ما اختصم به ومن أي شيء حماهم وصانهم وأي شيء صرف عنهم، وأنه لم يكن لهم إليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها إليه ألا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين، وشهدوا له سبحانه بأن كان منه إليهم وفيهم مما يقتضيه إتمام كلماته الصدق والعدل قوله وتحقق مقتضى أسمائه فهو محض حقه، وكل ذلك منه حسن جميل له عليه أتم الحمد وأكمله وأفضله، وهو حكم عدل وقضاء فصل، وأنه المحمود على ذلك كله فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث، بل ذلك عين الحكمة ومحض الحمد وكمال أظهره في حقه وعز أبداه وملك أعلنه ومراد له أنفذه كما فعل بالبدن وضروب الأنعام أتم بها مناسك أوليائه وقرابين عباده،

وإن كان ذلك إلى الأنعام هلاكا وإتلافا، فأعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن تكون دماؤهم قرابين أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله كما قال حسان بن ثابت:

يتطهرون يرونه قربانهم بدماء من علقوا من الكفار

وكذلك لما ضحى خالد بن عبد الله القسري بشيخ المعطلة الفرعونية جعد بن درهم فإنه خطبهم في يوم أضحى فلما أكمل خطبته قال: يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، تعالى عما يقول الجعد علوا كبيرا. ثم نزل فذبحه، فكان ضحيته.

وذكر ذلك البخاري في كتاب خلق الأفعال فهذا شهود أوليائه من شأن أعدائه، ولكن أعداءه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يقرون به، ولو شهدوه وأقروا به لأدركهم حنانه ورحمته، ولكن لما حجبوا عن معرفته ومحبته وتوحيده وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به صاروا أسوأ حالا من الأنعام وضربوا بالحجاب، وأبعدوا عنه بأقصى البعد وأخرجوا من نوره إلى الظلمات، وغيبت قلوبهم في الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته في غابات، ليتم عليهم أمره، وينفذ فيهم حكمه، والله عليم حكيم والله أعلم [(١)].

الحكمة في التفاوت بين العباد:

وأيضاً فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبي بالإنعام وخص دون غيره بالإكرام ولو تساووا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجاً له من العبد أن يرى غيره في ضد حاله التي هو عليها من الكمال والفلاح. وفي الأثر المشهور أن الله سبحانه لما أرى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال: يا رب هلا سويت بين عبادك؟ قال: إني أحب أن أشكر فاقتضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التي يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد.

وأيضاً فإنه سبحانه لا شيء أحب إليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره

---

(١) طريق الهجرتين: (ص ٢٢٥).

وانكساره وتضرعه إليه. ومعلوم أن هذا المطلوب من العبيد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين.

وأيضاً فإنه سبحانه له الخلق والأمر والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هي دار نعيم ولذة [١].

الأرض دار ابتلاء وامتحان:

واقتضت حكمته -سبحانه- استخراج آدم وذريته إلى دار تجري عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فإن الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وقد أرشد سبحانه إلى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [القيامة:٣٦]. أي مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا منافٍ لكمال حكمته وأن ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سدًّى معطلٌ أيضاً مستقر في الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما قبحه مستقر في فطرتكم وعقولكم وقال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]، ونزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا القرآن كثيرة[٢].

(١) مفتاح دار السعادة (ص ٢٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (ص ٢٦).

الحليم

قال الحليمي في معنى الحليم: إنه الذي لا يحبس إنعامه وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقي البر التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا، وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه كما يقيها الناسك الذي يسأله، وربما شغلته العبادة عن المسألة[1].

وقال أبو سليمان الخطابي: الحليم، هو ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل، ولا عصيان عاصٍ، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم هو الصفوح مع القدرة، المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة[2].

وقال الأقليشي: أما اتصاف الله سبحانه بالحلم بمعنى البراءة عن الطيش فمعلوم بالبرهان المؤدي إلى معرفة كمال الله تعالى، وأما اتصافه بالحلم بمعنى تأخير العقوبة أو رفعها، فأحدهما معلوم بالمشاهدة، والثاني: بالموارد النقلية وإجماع أهل الملة الحنيفية.

أما تأخير العقوبة في الدنيا عن الكفرة والفجرة من أهل العصيان فمشاهد بالعيان، أنا نراهم يكفرون ويعصون، وهم معافون وفي نعم الله يتقلبون.

وأما رفع العقوبة في الأخرى فلا يكون مرفوعًا إلا عن بعض من استوجبها من عصاة الموحدين، وأما الكفار فلا مدخل لهم في هذا القسم ولا لهم في الآخرة حظ من هذا الاسم، وهذا معروف بقواطع الآثار، ومجمع عليه عند أولي الاستبصار، فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الحليم على الإطلاق هو الله سبحانه، وجريان هذا الاسم على غيره مجاز لا حقيقة.

فمن الواجب على من عرف أن ربه حليم على من عصاه، أن يحلم هو على من خالف أمره، فذاك به أولى، حتى يكون حليمًا فينال من هذا الوصف بمقدار يكسر سَوْرَةَ غضبه، ويرفع الانتقام عمن أساء إليه، بل يتعود الصفح حتى يعود الحِلْم له سجية، وكما تحب أن يحلم عنك مالكك، فاحلم أنت عمن تملك، لأنك متعبد بالحلم، فتاب

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٣).

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٩٤).

عليه، قال الله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الشورى:٤٠]، وقال: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [الشورى:٤٣]، والصبر داخل تحت الحلم، إذ كل حليم صابر، وقد وصف -عز وجل- نفسه بالصبر كما في حديث أبي موسى عن النبي -ﷺ-: «**ليس أحد أو وليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»[1]، أخرجه البخاري.

فوصف الله تعالى بالصبر، إنما هو بمعنى الحلم، ومعنى وصفه بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد في التنزيل، وإنما ورد في حديث أبي موسى، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم، قاله ابن فورك[2].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٩٩) في الأدب، باب: الصبر على الأذى، ومسلم (٢٨٠٤) في صفة القيامة، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله -عز وجل-.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٩٧-٩٨).

الحميد المجيد

فالحميد فعيل من الحمد، وهو بمعنى محمود، وأكثر ما يأتي فعيلاً في أسمائه تعالى بمعنى فاعل، كسميع، وبصير، وعليم، وقدير، وعلي، وحكيم، وحليم. وهو كثير. وكذلك فعول، كغفور، وشكور، وصبور.

وأما الحميد: فلم يأت إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإن فعيلاً إذا عدل به عن مفعول دل على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية والغريزة والخلق اللازم، كما إذا قلت فلان ظريف أو شريف أو كريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فعل بوزن شرف، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة، ككبر وصغر وحسن ولطف، ونحو ذلك.

ولهذا كان حبيب أبلغ من محبوب، لأن الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها، فهو حبيب في نفسه وإن قدر أن غيره لا يحبه لعدم شعوره به، أو لمانع منعه من حبه، وأما المحبوب فهو الذي تعلق به حب المحب، فصار محبوباً بحب الغير له. وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته، تعلق به حب الغير أو لم يتعلق، وهكذا الحميد والمحمود.

فالحميد: هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه، والمحمود من تعلق به حمد الحامدين، وهكذا المجيد والممجد، والكبير والمكبر، والعظيم والمعظم، والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تثن عليه، لم تكن حامداً له، وكذا من أثنيت عليه لغرض ما، ولم تحبه لم تكن حامداً له حتى تكون مثنياً عليه محباً له، وهذا الثناء والحب تبع للأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم، ولله سبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه ما والإحسان كله له ومنه، فهو أحق بكل حمد، وبكل حب من كل جهة، فهو أهل أن يحب لذاته ولصفاته

ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه ولكل ما صدر منه سبحانه وتعالى [(١)].

كما أن مجرد الفعل من غير قصد ولا حكمة ولا مصلحة يقصده الفاعل لأجلها لا يكون متعلقاً للحمد، فلا يحمد عليه، حتى لو حصلت به مصلحة من غير قصد الفاعل لحصولها لم يستحق الحمد عليها، كما تقدم تقريره. بل الذي يقصد الفعل لمصلحة وحكمة وغاية محمودة وهو عاجز عن تنفيذ مراده أحق بالحمد من قادر لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لقصد الإحسان، هذا المستقر في فطر الخلق.

والرب سبحانه حمده قد ملأ السموات والأرض وما بينهما وما بعد ذلك، فملأ العالم العلوي والسفلي والدنيا والآخرة، ووسع حمده ما وسع علمه، فله الحمد التام على جميع خلقه، ولا حكم يحكم إلا بحمده، ولا قامت السموات والأرض إلا بحمده، لا يتحول شيء في العالم العلوي والسفلي من حال إلى حال إلا بحمده، ولا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إلا بحمده. كما قال الحسن رحمة الله عليه: لقد دخل أهل النار النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً وهو سبحانه إنما أنزل الكتاب بحمده، وأرسل الرسل بحمده، وأمات خلقه بحمده، ويحييهم بحمده، ولهذا حمد نفسه على ربوبيته الشاملة لذلك كله فـ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢].

وحمد نفسه على إنزال كتبه فـ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ**﴾ [الكهف:١].

وحمد نفسه على خلق السموات والأرض: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ [الأنعام:١].

وحمد نفسه على كمال ملكه: ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [سبأ:١].

فحمد ملأ الزمان والمكان والأعيان وعم الأقوال كلها: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ**﴾ [الروم:١٧، ١٨].

---

(١) جلاء الأفهام (ص٢٤٣).

وكيف لا يحمد على خلقه كله وهو: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧]، وعلى صنعه وقد أتقنه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، وعلى أمره وكله حكمة ورحمة، وعدل ومصلحة، وعلى نهيه وكل ما نهى عنه شر وفساد، وعلى ثوابه وكله رحمة وإحسان، وعلى عقابه وكله عدل وحق فلله الحمد كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله.

والمقصود أنه كلما كان الفاعل أعظم حكمة كان أعظم حمداً، وإذا عدم الحكمة ولم يقصدها بفعله وأمره عدم الحمد [(١)].

وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسعة والجلال، والحمد يدل على صفات الإكرام، والله سبحانه ذو الجلال والإكرام، وهذا معنى قول العبد: لا إله إلا الله والله أكبر، فلا إله إلا الله دال على ألوهيته وتفرده فيها، فألوهيته تستلزم محبته التامة، والله أكبر دال على مجده وعظمته، وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره، ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيراً، كقوله: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الإسراء:١١١]، فأمر بحمده وتكبيره.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، وقال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وفي المسند وصحيح أبي حاتم وغيره: من حديث أنس، عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**» [(٢)] يعني الزموها وتعلقوا بها، فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد. ونظير هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ [النساء: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧] وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٥]، وهو كثير في القرآن [(٣)].

---

(١) شفاء العليل (ص ٣٨٢).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) جلاء الأفهام (ص٢٤٣).

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما:

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات. مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح - ﷺ -: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزاً. ويسامح جهلا بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغاياتها أيضاً: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى.إذ كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم أو التعبد بأسماء التودد، والبر، واللطف، والإحسان عن أسماء العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله. وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها [١].

إثبات الحمد كله لله عز وجل:

نسبة القدرة والحكمة لله تستلزم أمرا ثالثا وهو الحمد.ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث هو عقد نظامها وجامع شملها، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء

(١) مدارج السالكين (١ /٤١٩).

هذين الأصلين وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾** [الإسراء:٤٤]، وكان في قول النبي - ﷺ - عند الاعتدال من الركوع: «**ربنا ولك الحمد، ملء السماء وملء الأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**»[1] فله سبحانه الحمد حمدا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده. وذاك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته وملء ما تخلقه بعد ذلك.

الثاني: أن يكون المعنى ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدر مملوءًا بحمدك وإن لم يكن موجودا.ولكن يقال: المعنى الأول أقوى لأن قوله: «**ما شئت من شيء بعد**» يقتضي أنه شيء يشاؤه، وما شاء كان، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له. فتأمله لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بد أن يكون شيئا موجودا يملؤه حمده وأيضا فإن قوله: «**من شيء بعد**» يقتضي أنه شيء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها. ولو أريد تقدير خلقه لقيل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك لأن المقدر يكون مع المحقق. وأيضا فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملأه الحمد، بل قال: ما شئت. والعبد قد حمد حمدا أخبر به، وإن ثناءه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه وما يشاء بعد ذلك، وأيضا فقوله: «**وملء ما شئت من شيء بعد**» يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك.

وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء القدر، وقد لا تتعلق وأيضا فإذا قيل: «**ما شئت من شيء بعد ذلك**» كان الحمد مالئا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما، ولا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٦) في الصلاة، باب: ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، من حديث ابن أبي أوفى -رضي الله عنه-.

ريب أن له الحمد دائما في الأولى والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل: «ملء ما لا يتناهى» فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودا مقدرا، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها فهذا كله مما يشاؤه بعد.

وأيضا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته وإما ظاهرة في مخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه البتة فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام، فجعل الحمد مالئا له لا حقيقة له [(١)].

معنى قوله الحمد لله ملء السموات:

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة على جهة التمثيل: أي لو كان أجساما لملأ السموات والأرض وما بينهما قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأ بها الأجسام، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد. فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالئ والمملوء، فإذا قيل امتلأت الجفنة طعاما فهذا الامتلاء نوع، وإذا قيل: امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر. وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر كما في أثر معروف: «**أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه، وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له**» وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود كنيف مليء علما. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا. وكان يقال: ملأ بن أبي الدنيا الدنيا علما. ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبه رعبا، وهذا أكثر من أن تستوعب شواهده، وهو حقيقة في بابه وجعل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل

(١) طريق الهجرتين (ص ١٩٢).

ودعوى لا دليل عليها البتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم موصوف بصفة الكمال مذكور بنعوت الجلال منزه عن الشبيه والمثال ومنزه عما يضاد صفات كماله: فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه، ومستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون إلا محمودا كما لا يكون إلا إلها وربا وقادرا.

معنى الحمد كله لله:

فإذا قيل «الحمد كله لله» فهذا له معنيان:

(أحدهما): أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام، وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا كما يحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم- فذلك من حمده تبارك وتعالى بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمد فهو المحمود أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه،

وفي الدعاء المأثور: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله**»[1] وهو سبحانه له الملك وقد آتى من الملك بعض خلقه، وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد

(١) أخرجه البيهقي والديلمي عن أبي سعيد، كما في «كنز العمال» (٢٠١١٢/٧)، وابن تركان في الدعاء والديلمي، كما في «كنز العمال» (٢٢٥٥١/٨).

ما شاء. وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضا داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية أيضا، وإذا قال: «**اللهم لك الحمد**» فالمراد به أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

(**المعنى الثاني**): أن يقال: «**لك الحمد كله**» أي: الحمد التام الكامل فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة، والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو وليس الملك التام الكامل إلا له وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربه ومليكه، ولا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة فله الملك كله. والقدرية المجوسية يخرجون من ملكه أفعال العباد، ويخرجون سائر حركات الملائكة والجن والإنس عن ملكه.

وأتباع الرسل يجعلون ذلك كله داخلا في ملكه وقدرته ويثبتون كمال الحمد أيضا، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى كمال الحمد أيضا، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى ما خلقه ويخلقه، لما له فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل. وأما نفاة الحكمة والأسباب من مثبتي القدر فهم في الحقيقة لا يثبتون له حمدا كما لا يثبتون له الحكمة فإن الحمد من لوازم الحكمة والحكمة إنما تكون في حق من يفعل شيئا لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئا لشيء البتة فلا يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئا لشيء البتة فلا يتصور في حقه الحكمة. وهؤلاء يقولون: ليس في أفعاله وأحكامه لام التعليل، وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فإنما اقترنت بها اقترانا عاديا، لا أن هذا كان لأجل هذا، ولا نشأ السبب لأجل المسبب، بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة، إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة التي ترجح مثلا على مثل، بل لا مرجح أصلا، وليس عندهم في الأجسام طبائع وقوى تكون أسبابا لحركاتها، ولا في العين قوة امتازت بها على الرجل يبصر بها ولا في القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر، بل خص سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصا لمثل على مثل بلا سبب أصلا ولا حكمة، فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد، كما لم يثبت له أولئك كمال الملك، وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الأمة، ولهذا كان منكر والأسباب والقوى والطبائع يقولون:

العقل نوع من العلوم الضرورية كما قال القاضيان أبو بكر بن الطيب وأبو يعلى بن الفراء وأتباعهما، وقد نص أحمد على أنه غريزة، وكذلك الحارث المحاسبي وغيرهما، فأولئك لا يثبتون غريزة ولا قوة ولا طبيعة ولا سببا، وأبطلوا مسميات هذه الأسماء جملة وقالوا: إن ما في الشريعة من المصالح والحكم لم يشرع الرب سبحانه ما شرع من الأحكام لأجلها بل اتفق اقترانها بها أمرًا اتفاقيا، كما قالوا نظير ذلك في المخلوقات سواء، والعلل عندهم أمارات محضة لمجرد الاقتران الاتفاقي.

وهم فريقان:

أحدهما: لا يعرجون على المناسبات ولا يثبتون العلل بها البتة، وإنما يعتمدون على تأثير العلة بنص أو إجماع، فإن فقدوا فزعوا إلى الأقيسة الشبيهة.

والفريق الثاني: أصلحوا المذهب بعض الإصلاح وقربوه بعض الشيء وأزالوا تلك النفرة عنه، فأثبتوا الأحكام بالعلل والعلل بالمناسبات والمصالح، ولم يمكنهم الكلام في الفقه إلا بذلك، ولكن جعلوا اقتران أحكام تلك العلل والمناسبات بها اقترانا عاديا غير مقصود في نفسه والعلل والمناسبات أمارات ذلك الاقتران، وهؤلاء يستدلون على إثبات علم الرب بما في مخلوقاته من الأحكام والإتقان والمصالح، وهذا تناقض بيِّن منهم، فإن ذلك إنما يدل إذا كان الفاعل يقصد أن يفعل الفعل على وجه مخصوص لأجل الحكمة المطلوبة منه، وأما من لم يفعل لأجل ذلك الإحكام والإتقان وإنما اتفق اقترانه بمفعولاته عادة فإن ذلك الفعل لا يدل على العلم، ففي أفعال الحيوانات من الإحكام والإتقان والحكم ما هو معروف لمن تأمله، ولكن لما لم تكن تلك الحكم والمصالح مقصودة لها لم تدل على علمها. والمقصود أن هؤلاء إذا قالوا: إنه تعالى لا يفعل لحكمة امتنع عندهم أن يكون الإحكام دليلا على العلم وأيضا فعلى قولهم يمتنع أن يحمد على ما فعله لأمر ما حصل للعباد من نفع، فهو سبحانه لم يقصد بما خلقه لنفعهم ومصالحهم، بل إنما أراد مجرد وجوده لا لأجل كذا ولا لنفع أحد ولا لضره، فكيف يتصور في حق من يكون فعله ذلك حمد؟ فلا يحمد على فعل عدل، ولا على ترك ظلم، لأن الظلم- عندهم- هو الممتنع الذي لا يدخل في المقدور، وذلك لا يمدح أحد على تركه وكل ما أمكن وجوده فهو عندهم عدل فالظلم مستحيل عندهم إذ هو عبارة عن الممتنع المستحيل لذاته الذي لا يدخل تحت المقدور ولا يتصور فيه ترك اختياري فلا يتعلق به حمد، وإخباره تعالى عن نفسه بقيامه بالقسط حقيقته عندهم مجرد كونه فاعلا لا أن

هناك شيئا هو قسط في نفسه يمكن وجود ضده، وكذلك قوله: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت:٤٦]، نفي عندهم لما هو مستحيل في نفسه لا حقيقة له، كجعل الجسم في مكانين في آن واحد وجعله موجودا معدوما في آن واحد، فهذا ونحوه عندهم هو الظلم الذي تنزه عنه، وكذلك قوله: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا**»[1] فالذي حرمه على نفسه هو المستحيل الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين وليس هناك ممكن يكون ظلما في نفسه وقد حرمه على نفسه، ومعلوم أنه لا يمدح الممدوح بترك ما لو أراده لم يقدر عليه. وأيضا فإنه قال: «**وجعلته محرما بينكم**» فالذي حرمه على نفسه هو الذي جعله محرما بين عباده وهو الظلم المقدور الذي يستحق تاركه الحمد والثناء.

والذي أوجب لهم هذا مناقضة القدرية المجوسية ورد أصولهم وهدم قواعدهم، ولكن ردوا باطلا بباطل وقابلوا بدعة ببدعة وسلطوا عليهم خصومهم بما التزموه من الباطل فصارت الغلبة بينهم وبين خصومهم سجالا مرة يغلبون ومرة يغلبون لم تستقر لهم النصرة، الثابتة لأهل السنة المحضة الذين لم يتحيزوا إلى فئة غير رسول الله - ﷺ -، ولم يلتزموا غير ما جاء به، ولم يؤصلوا أصلا ببدعة يسلطون عليهم به خصومهم، بل أصلهم ما دل عليه كتاب الله وكلام رسول وشهدت به الفطر والعقول. فصل في بيان أن حمده تعالى شامل لكل ما يحدثه.

بيان حمد المدح وحمد الشكر:

والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبليه، وما يقضيه من طاعة ومعصية، والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر، أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق إذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه من الإحسان، والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة والطاعة من أجل نعمة، وأما المعصية فإذا اقترنت بالصبر بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

سبحانه، ولكنه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فإذا بها قد تعلق خطامها في أصل شجرة فجاء حتى أخذها، فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته، فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أحب إليه سبحانه من عدمه، وله أسباب ولوازم لا بد منها، وما يحصل لتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبا له فهذا الفرح أحب إليه بكثير ووجوده بدون لازمه ممتنع، فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة. هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه، وأما بالإضافة إلى العبد فإنه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لا تحصل بدونها، فتقدير الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه والرب سبحانه محمود على الأمرين، فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية، وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملأ الأعلى ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها، فلا بد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحل الأسفل، فإن هذه النفوس إذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التي توصلها إلى ما هي مهيأة له ولا يليق بها سواه والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له فما كل أحد قابلا لنعمته تعالى فحمده وحكمته تقتضي ألا يودع نعمه وإحسانه وكنوزه في محل غير قابل لها. ولا يبقى إلا أن يقال: فما الحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غير قابلة لنعمته؟ فقد تقدم من الجواب عن ذلك ما فيه كفاية[1].

---

(١) طريق الهجرتين (ص ١٩٤).

الحي القيوم

فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلمو أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم: فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته وعزته. فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته وهذا من كمال قدرته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة، فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإنالة الطلبات، والمقصود إن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالى لا شيء من مخلوقاته، كما أن المستعيذ بعزته في قوله: أعوذ بعزتك، مستعيذ بعزته التي هي صفته لا بعزته التي خلقها يعز بها عباده المؤمنين.

وهذا كله يقرر قول أهل السنة إن قول النبي -ﷺ-: «**أعوذ بكلمات الله التامات**»[1] يدل على أن كلماته تبارك وتعالى غير مخلوقة، فإنه لا يستعاذ بمخلوق، وأما قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً**﴾ [غافر: ٧] فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء كما قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسعتها عموم تعلقها بكل شيء. كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم[2].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء، باب: في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشفاء وغيره، من حديث خولة بنت حكيم السلمية -رضي الله عنها-.

(٢) بدائع الفوائد (٢/٣٣٢).

أثر معرفة العبد أن الله قيوم:

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع ولا يضل ولا ينسى.

وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية. وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو وأن إلهيه ما سواه باطل ومحال، كما أن ربوبية ما سواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد، ويصلى له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده، فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها وكل غنى لغيره فقر وضلال، وكل عز بغيره ذل وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وفاقة.

فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات، ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإن الإله على حقيقة هو الغنى الصمد ولا حاجة به إلى أحد، وقيام كل شيء به وليس قيامه بغيره، ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظم فساد واختل أعظم اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل، فإن استقلالهما ينافي استقلالهما واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر[(١)].

ومن تجريبات السالكين، التي جوبوها فألقوها صحيحة: أن من أدمن يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- شديد اللهج بها جداً. وقال لي يوماً: لهذين الاسمين -وهما الحي القيوم- تأثير عظيم في حياة القلب. وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم. وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر

---

(١) طريق الهجرتين: (ص ٧٩).

وصلاة الفجر يا حي يا قيوم. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث حصلت له حياة القلب. ولم يمت قلبه.

ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها، وسر ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاته: عرف ذلك وتحققه. فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له. فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك [1].

(١) مدارج السالكين (١/٤٤٧).

الحيّ

وقد وصف نفسه بالحياء، ووصفه رسوله، فهو الحيي الكريم، كما: قال النبي -ﷺ-: «**إن الله حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً**»(١)، وقالت أم سليم: «**يا رسول الله: إن الله لا يستحيي من الحق**»(٢) وأقرها على ذلك، وقال النبي -ﷺ-: «**إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن**»(٣).

والحياء عند هؤلاء من الكيفيات النفسانية، فلا يجوز عندهم وصف القديم بها، المقصود أنه كلما كانت صفات الكمال في الحيي،كان فرحه ومحبته ورضاه وغضبه ومقته أكمل،ولهذا كان النبي -ﷺ- إذا غضب لم يقم لغضبه، شيء، وفي الأثر: إن موسى كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته وكان أشد بني إسرائيل حياء حتى إنه لا يغتسل إلا وحده من شدة حيائه.

وإذا كانت هذه الصفات كمال، فلا يجوز سلبها عمن هو أحق بالكمال المطلق من كل أحد بمجرد تسميتها كيفيات نفسية،وأعراضاً، وانفعالات، ونحو ذلك فإن هذا من اللبس والتلبيس، وتسمية المعاني الصحيحة الثابتة بالأسماء القبيحة المنفرة، وتلك طريقة للنفاة مألوفة وسجية معروفة، وإذا عرف هذا تبين أن هؤلاء المعطلة النفاة أضاعوا حق الله الذي يستحقه لنفسه،والذي بعث به رسله وأنزل به كتبه،والذي هو أصل دينه، ومنتهى عبادته بما هم متناقضون فيه(٤).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨٨) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٥٥٦) في الدعوات، باب: في دعاء النبي -ﷺ-، وابن ماجه (٣٨٦٥) في الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء، من حديث سلمان -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

(٢)صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٦٠٩١) في الأدب، باب: التبسم والضحك، ومسلم (٣١٣) في الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، من حديث أم سلمة -رضي الله عنها-.

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (١١٦٤) في النكاح، باب: ما جاء في كراهية إيتان النساء في أدبارهن، وابن حبان في «صحيحه» (٤٢٠١)، من حديث علي بن طلق -رضي الله عنه-، وقال الألباني في: «ضعيف سنن الترمذي»: ضعيف.

(٤) الصواعق المرسلة (ص ١٤٩٨).

الخافض الرافع

وليس في القرآن خافض لا مضافًا ولا مفردًا ولا فيه فعل يشتق منه هذا الوصف، وأما رافع فلم يرد في القرآن اسمًا بهذه الصيغة إلا أنه جاء مضافًا في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ [آل عمران:٥٥]، وورد: ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**﴾ [غافر:١٥]، وقال: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة:١١]، وقد تقدما في اسمه الجميل من حديث أبي موسى وفيه «**يخفض القسط ويرفعه**»[1]، وجاء في حديث أبي هريرة اسمان وأجمعت عليهما الأمة.

ويجوز إجراؤهما على العبد فعلين واسمين منكرين من غير خلاف وقد قال عباس ابن مرداس للنبي -ﷺ-:

ومن نخفض اليوم لا يُرفع

وأقره -عليه السلام- على ذلك ورفعه.

يقال: خفض يخفض واسم الفاعل خافض، ورفع يرفع، واسم الفاعل رافع والمفعول منهما مرفوع ومخفوض، والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والإهانة. وربما ترتب أحدهما على الآخر بزيادة الدرجات في المكان بحسب الزيادة في المكانة. هذان الاسمان يدلان على الارتفاع والانحطاط ويتضمنان الإقبال والإعراض والقرب والبعد والعز والذل والموالاة والمعاداة وغير ذلك. وبدأ جل جلاله بالخفض قبل الرفع لأن الاسمين من أسماء التعلق وعبيده سبحانه هم المعنيون بذلك فرفع المؤمنين دنيا وأخرى وخفض الكافرين والمنافقين كذلك، قال الله تعالى في المؤمنين: ﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ [الفرقان:٧٥]، وقال: ﴿**إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ [سبأ:٣٧]،وقال: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء:١٤٥]، وقيل: إنما بدأ بالخفض لأنه خلقهم أولاً في جنته ثم أهبطهم إلى أرضه ثم يرفع من يشاء منهم ويخفض كما ذكرنا فهذان هما الخفض والرفع الحسي وأما المعنوي فهو أن يضع من الأقدار ويرفعها ومنه قوله القائل:

---

١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩) في الإيمان، باب: في قوله -عليه السلام-: «إن الله لا ينام».

ولا تحاد الضعيف علك أن تر كع يومًا والدهر قد رفعه

فهو سبحانه الواضع قدر من شاء والرافع المعلي لقدر من شاء كما روى مسلم عن عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان وكان عمر يستعمله على الوادي فقال: من استعملت على هذا الوادي؟ قال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال فاستخلفت عليهم مولى؟ قال إنه: قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض قال: أما نبيكم -ﷺ- فقد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**»(١)، وروى أبو الدرداء عن النبي -ﷺ- في قول الله -عز وجل-: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن:٢٩]، قال: «**من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرج كربًا ويرفع أقوامًا ويضع آخرين**»(٢) فهما أسماء الأفعال بلا خلاف يرفع من يشاء بإنعامه، ويخفض من يشاء بانتقامه، وعلى هذا يحمل تصريفه لعباده في حالتي عزهم وذلهم وغناهم وفقرهم وكذلك رفع الحق وحزبه وخفض الباطل وصحبه ورفع الدين وشعاره، وخفض الكفر وآثاره، ورفع التوحيد ودليله وخفض الإلحاد وسبيله، ورفع القلوب لتقريبه وخفض النفوس لحكم تبعيده ورفع أولياءه بحفظ عهده وحسن وده وجميل رفده وصدق وعده، وخفض الأعداء بصده وردِّه وطرده وبعده ورفع من اتبع رضاه، وخفض من اتبع هواه. وقيل من رضي بدون قدره رفعه الله فوق غايته، وفي الصحيح عن النبي -ﷺ-: «**ما نقص مال من صدقة ولا ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزًّا ولا تواضع عبد لله إلا رفعه الله**»(٣).

فيجب على كل مسلم أن يعتقد أن الله سبحانه هو الخافض الرافع كما يعلم أنه يهدي من يشاء لا يشركه في ذلك أحد. وليس المرفوع قدرًا، والمعلى شأنًا وأمرًا، والمستحق مجدًا وفخرًا من رفع الطين على الطين، وتكبر على المساكين، وتجبر على أشكاله بكثرة ماله، واستقامة أحواله، وإنما المشرف شأنًا والمعلى رتبة ومكانًا من رفعه الله بتوفيقه، وأيده لتصديقه، وهداه إلى طريقه، صفى قلبه، وخلى له وجهه، وصعد إلى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨١٧) في صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، من حديث عمر -رضي الله عنه- مرفوعًا.

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (٢٠٢) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، من حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: حسن.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) في الزهد، باب: ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، من حديث أبي كبشة الأنماري -رضي الله عنه-، وقال الألباني في: «صحيح سنن الترمذي»: صحيح.

السماء أنينه، وصدق إلى شوقه وحنينه. وفي الصحيح عن النبي -ﷺ-: «**رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»[١]. واعلم أن المخفوض حقًا من تنكبه التوفيق والنصرة، وأدركه الخذلان والفترة، وأمرته نفسه ولم يجد خيرًا من ربه وإن رجع إلى ربه لم يجد خطر القدرة من قلبه، وإن رجع إلى قلبه لم يجد ثقة بمناجاته. فهو بالهجران موسوم، وبين الفترات والأشغال مقسوم، يبيت في فترة ويصبح في حسرة فعلى هذا الرفع والخفض أمارتان للجزاء فمن فتحت لروحه أبواب السماء فرفع واستبشر ومن نكس إلى أسفل أبعد وأبس ويحسب ذلك الأعمال بشارات، ونذارات ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل:٥-١٠]، ثم يجب عليه إن كان ذا سلطان يرفع من رفعه الله ويبعد من أبعده الله فيعلى أهل العلم والعمل ويرفع أقدارهم ومنازلهم ويخفض أهل الجهل والبطالة والغفلة. وكذلك يخفض دين الكفر بمقاتلة المحاربين من الكافرين حتى يدخلوا في قبة هذا الدين أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ويخفض الظلمة، وأهل الجور على الأمة، وكل من يخالف الملة بمجاهرة المعصية. وكذلك يخفض أهل البدع من هذه الأمة، لزيغهم عن منهج السنة فإن لم يكن له سلطان استعمل ذلك في المؤاخاة فيصحب من رفعه الله ويعظمه ويرفعه ويجتنب من أبعده الله ويخفضه فإن لم يستطع فبالحب والبغض فإن من الإيمان الحب في الله والبغض في الله[٢].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٢) في البر والصلة، باب: فضل الضعفاء والخاملين، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣٦٤/١).

الخالق

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فهذا استدلال في غاية الظهور، ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله، وحدوث العالم وإثبات نوعي توحيده تعالى. توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة، والذل والخضوع والحب إلا له، ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد -ﷺ- أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله. وقد أخبر عن المعاد والجنة والنار.

فثبت صحة ذلك ضرورة فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدرها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ، فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته، لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكاً خالصاً حقيقياً، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه. فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ، ولم يقل إلهكم. والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ، فنبه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم.

كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، فإذا كان هو وحده الخالق، فكيف لا يكون وحده المعبود وكيف يجعلون معه شريكاً في العبادة. وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق.

وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١]، فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم. وإنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم، ولا في خلقكم، وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله، ونعوت جلاله فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته فلا شبيه له فيها، ولا في أفعاله فلا شريك له فيها. ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن يتقوه فيطيعونه، ولا يعصونه ويذكرونه. فلا ينسونه ويشكرونه، ولا يكفرونه فهذه حقيقة تقواه. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، قيل: إنه تعليل للأمر. وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل: المعنى خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها: إن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: إن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

الثالث: إن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، تعليلاً للأمر بالعبادة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فهذا تعليل لكتب الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلاً للأمرين معاً وهذا هو الأليق بالآية والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، فذكر تعالى دليلاً آخر متضمناً للاستدلال بحكمته في مخلوقاته، فالأول متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء.

والثاني: متضمن للحكم المشهودة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة. وهو تعالى كثيراً ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن ونظيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢،٣٣]، فذكر خلق السموات والأرض، ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ

لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ﴾ [النمل:٦٠، ٦١]، إلى آخر الآيات على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم ما يحسب عقول العالمين. أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك. ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤]، وهذا كثير في القرآن لمن تأمله.

وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالم وهو الأرض وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء. فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشاً على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها فجعلها فراشاً ومهاداً وبساطاً وقراراً، وجعل سقفها بناء، محكماً مستوياً لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب. ثم قال: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريبة، وقادح وإن كل متكلم ومستدل ومحجاج. إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه، فغايته إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن. فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال. فكيف يجعلون له أنداداً. وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله [1].

(١) بدائع الفوائد (٣١٣/٤).

الخـبير

يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وهذا من أبلغ التقرير فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع يعلم مصنوعه وإذا كنتم مقررين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمن فكيف تخفى عليه وهي خلقه وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور فلم يكن في الآية على أصولهم دليل علمه بهذا ولهذا طرد غلاة القوم وذلك ونفوا علمه فأكفروهم السلف قاطبة.

وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين أعني تقديرين تكون من فيه محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية فعلى التقدير الأول ألا يعلم الخالق الذي شأنه بالخلق، وعلى التقدير الثاني ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه.

ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاطت بظواهرها فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور[1].

ومنها: **ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة:**

فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها. وينزلها منازلها اللائقة بها. فلا يضع الشيء في غير موضعه. ولا ينزله غير منزله، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته. فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل.

ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع. ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به.

---

(١) الصواعق المرسلة (ص ٤٩١).

فهو أعلم حيث يجعل رسالته. وأعلم بمن يصلح لقبولها. ويشكره على انتهائها إليه ووصولها. وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله. وأحكم من أن يمنعها أهلها. وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار. ولم تظهر لخلقه. ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها. وفواتها شر من حصول تلك الأسباب.

فلو عطلت تلك الأسباب -لما فيها من الشر- لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب. وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر. فلو قدر تعطيلها- لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي- لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه[1].

(١) مدارج السالكين (٢/١٨٤).

الخلاق

قال الله -عز وجل-: ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

ومعناه: الخالق خلقًا بعد خلق[1]

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٦).

الجليـل

ومعناه المستحق للأمر والنهي، فإن جلال الواحد فيما بين الناس إنما يظهر بأن يكون له على غيره أمر نافذ لا يجد من طاعته فيه بدًا، فإذا كان من حق الباري جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذًا، وطاعته لازمة، وجب اسم الجليل حقًا، وكان لمن عرفه أن يدعوه بهذا الاسم، وبما يجري مجراه، ويؤدي معناه.

قال أبو سليمان: هو من الجلال والعظمة، ومعناه منصرف إلى جلال القدر، وعظم الشأن، فهو الجليل الذي يصغر دونه كل جليل، وتضع معه كل رفيع[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٣)

ذو الطول

قال الله -عز وجل-: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣].

قال الحليمي: ومعناه الكثير الخير لا يعوزه من أصناف الخيرات شيء، إن أراد أن يكرم به عبده، وليس كذا طول ذي الطول من عباده، قد يحب أن يجود بالشيء فلا يجده.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣]، يعني: ذا السعة والغنى[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٣).

ذو الجلال والإكرام

ومعناه المستحق للأمر والنهي، فإن جلال الواحد فيما بين الناس إنما يظهر بأن يكون له على غيره أمر نافذ لا يجد من طاعته فيه بدًا، فإذا كان من حق الباري -جل ثناؤه- على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذًا، وطاعته لازمة، وجب اسم الجليل حقًا، وكان لمن عرفه أن يدعوه بهذا الاسم، وبما يجري مجراه، ويؤدي معناه.

قال ابن سليمان وهو من الجلال والعظمة، ومعناه منصرف إلى جلال القدر، وعظم الشأن، فهو الجليل الذي يصغر دونه كل جليل، ويتضع معه كل رفيع[١].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٢٣).

ذو انتقام والمنتقم

نطق به القرآن فقال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤]، وفي التنزيل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦]، ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، وقال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة:٩٥]، وأجمعت عليه الأمة. وليس من أسماء التضرع والابتهال.

ويجوز إجراؤه على المخلوق قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [البروج:٨]، ولا خلاف فيه، ووصف نفسه سبحانه بأنه منتقم، ولم يصف نفسه بأنه غاضب، وإن كان الفعل قد تكرر في القرآن في مواضع كثيرة -ثم إن الغضب- في وصفه سبحانه قد يكون عين الانتقام فتسد هذه الصفة -مسد صفة الغاضب- ويكون الغضب على هذا من صفات الأفعال. وقد يرجع وصفه بالغضب إلى إرادة الانتقام[1]، فيكون من صفات الذات المتضمنة في وصفه بالمنتقم، والانتقام إنزال بلاء بأهل العتو والإجرام. ومنتقم اسم الفاعل من النقمة ويقال نقمة ونقمة. ويقال في الماضي نقم منه بفتح عين الماضي أو كسرها، ينقم بفتح القاف وكسرها في المستقبل، قال زهير:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

يروى بفتح القاف من ينقم ويكسرها. وتقول: انتقم ينتقم. ومنه قول عائشة -رضي الله عنها-: «**ما انتقم رسول الله -ﷺ- لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها**»[2]. واسم الفاعل منتقم والمصدر النقمة والانتقام.

وللنقم معان أربعة:

الأول: التعدي، **والثاني**: الأخذ، **والثالث**: الذم والإنكار للأفعال القبيحة، **والرابع**: المكافأة بالعقوبة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ [الزخرف:٥٥]، فأما قولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف:١٢٦]، فتحتمل

(١) صفة الغضب من الصفات التي يجب إثباتها لله تعالى دون تأويل أو تحريف، كما هو مذهب السلف الصالح.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في المناقب، باب: صفة النبي -ﷺ- ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائلن باب: مباعدته -ﷺ- للآثام.

معنيين: تنكرون علينا، أو تأخذون علينا وما أشبه ذلك. وقوله -ﷺ-: «**ما نقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله**» معناه ما يطغيه. وقوله سبحانه: ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ**﴾ [البروج:٨]، يحتمل الوجهين في تنقمون. والانتقام يكون بالأعراض وبالأقوال وبالأفعال، وكل ذلك بيِّن في الشرع بحسب المنتقم منه وجنايته. وإذا كان هذا فهو سبحانه منتقم بكلامه في ذم الكفار ولعنه لهم، وهو منتقم منهم بعقوبته، فتارة يكون من صفات الذات، وتارة يكون من صفات الفعل على ما ذكرنا. فالمنتقم من له انتقام واقع أو محذور مترقب، ويتضمن كل صفة يفتقر إليها الفعل. وانفرد سبحانه بمضمون هذا الاسم لأربعة أوجه:

أحدها: عموم انتقامه لكل من كذب أو أشرك ولا يصح ذلك من غيره فانتقامه يكون على هذا الوجه لنكوص العبد عن طاعته، والتخلف عن استجابته له ولرسوله.

والثاني: دوام مجازاته ولا محيص لمخلوق عما أراد به.

الثالث: أن انتقامه ليس بموقوف على أذى غيره.

الرابع: أنه غير محتاج إلى أعوان فيما يريده من ذلك.

فيجب على كل مسلم أن يعلم أن لا منتقم على الحقيقة إلا الله تعالى. فما كان من فعل الله سبحانه بغير واسطة سببًا فلا إشكال فيه، وما كان بسبب عادي فلا أثر للسبب كما تقدم في غير موضع؛ لأن الله سبحانه خالق الانتقام وخالق السبب. ثم يجب على كل مسلم جعل له الانتقام ألا يتعدى في انتقامه ما حدّه له خالقه سبحانه. فإن كان منتصرًا لله سبحانه أو قائمًا بحد من حدود الله فعله على مقتضى الشرع، وكان له في ذلك الأجر[1].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٤٩٠) بتصرف.

الرازق

قال الله -عز وجل- ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:١١٤]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢، وغير موضع]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت:٦٠].

ورزق يرزق رزقًا فهو رازق، ورزاق للمبالغة، والرزق ما انتفع به، والجمع الأرزاق. والرزق: العطاء، هو مصدر رزقه الله.

والرزقة بالفتح: المرة الواحدة، والجمع الرزقات، وهي اجتماع الجند، وارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم(١).

وقال الحليمي: ومعنا المفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قوامًا إلا به، والمنعم عليهم بإيصال حاجتهم من ذلك إليهم لئلا ينغص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم، ولا ينفقوها أصلاً لفقدهم إياه(٢).

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٧٨/١).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٦٦).

الراشد والرشيد والمرشد

أشار إليها التنزيل فقال: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف:١٠]، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً﴾ [الكهف:١٧].

ويجوز إجراؤهما على العبد من غير خلاف. قال الله تعالى مخبرًا عن قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، يقال: رشد يرشد فهو راشد ورشيد للمبالغة، ورشد بالكسر يرشد رشدًا لغة فيه، وأرشد غيره لذا هداه يرشده فهو مرشد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً﴾ [الكهف:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا اليَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً﴾ [النساء:٦]، وروى في الحديث: «**أن قومًا جاءوا إلى النبي -ﷺ- فقالوا: نحن بنو غيَّان فقال: بل أنتم بنو رشدان**»[1]، فجعله في مقابلة الغي ويقال: فلان لِرشْدَةٍ، وفلان لزنية. وهذا يدل على أن حقيقة الرشد والهدى متقاربتان، أو هما هما.

والرشد قد يكون وصفًا ذاتيًا ثابتًا لله تعالى وقد يكون سلبيًا، وقد يكون فعليًّا. أما كونه ذاتيًّا فراجع إلى العلم والإرادة؛ ألأن الرشد في اللسان يقع على العالم بما يقدم ويؤخر فيتصف الله تعالى به من طريق كمال علمه وإتقان صنعه ووجود العالم منه على النظام الجميل، الذي هو عليه على ما اقتضاه علمه الرشيد. وأما كونه من صفات السلب فهو بمعنى تعاليه وتقدُّسِهِ عن السَّفَه وصفات النقص التي تشوب المخلوق، إذا عدم الرشد في العلم والعمل، وأما كونه من صفات الأفعال فيكون فعيلاً بمعنى مفعل. وقد اختلف في تأويل وزن رشيد. فقيل: فعيل بمعنى مفعول، وقيل: رشيد بمعنى أنه ذو رشد فيكون فعيل بمعنى فاعل كرحيم من راحم وسميع من سامع، وقيل: رشيد فعيل بمعنى مفعل أرشد يرشد إرشادًا فهو مرشد ورشيد، قال الحليمي: الرشيد المرشد، ومعناه الدالُّ على المصالح والداعي لها. وهذا من قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف:١٠]، فإن مهيئ الرشد مرشد، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً﴾ [الكهف:١٧]، فكان ذلك دليلاً على أن من هداه فهو وليُّه ومرشده. وقال الغزالي: الرشيد هو الذي تنساق تدبيراته على سنن السَّدَاد من غير إشارة مشير وتسديد مُسَدِّد وإرشاد

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥٦٢/٧) مرسلاً.

مرشد. وهو الله تعالى، ورشْدُ كل عبد بقدر هدايته في تدبيراته إلى إصابة شاكلة الصواب من مقاصده في دينه ودنياه.

وقال ابن الحصَّار: وهذا الاسم يقارب معناه معنى حكيم، لأن الحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها وكذلك الرشيد، وهو المصيب في أفعاله المستقيم التدبير -إلا أن الرشد مؤذنٌ بتوفير حظِّ النفس والبداية بها قبل الغير. وبهذا المعنى يفارق معنى حكيم، لأن الحكمة تُشْعِرُ بذلك من حيثُ اللفظُ.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو المرشد الراشد على الإطلاق في جميع ما ذرأ، وأنه أرشد الخلق إلى طريق الحق وإلى المصالح التي ينتظم بها وجودهم. فهو أرشد الملائكة والأنبياء والأولياء والمؤمنين إلى معرفته بما وهبهم من اليقين، وهو أرشد الخلق إلى طلب قوام بنيتهم، وليس ذلك مخصوصًا بالإنسان، بل ذلك عامٌّ في جميع الحيوان. فسبحان من أرشد الصغار من الأطفال والبهائم إلى المنافع، كالتقام الثَّدي ومَصِّ الضِّرْع، والعنكبوت لنسج تلك البيوت، والنحل لصنعة ذلك الشكل، والفرخَ ليفقأ البيضة عند انتهاء أمره، والجنين للخروج من بطن أمِّه. بل أرشد المطر للانصباب، والنار للإحراق، والماء للإرواء، وقس على هذا. فكل موجود في الأرض والسماء جارٍ على منهج السداد، ومنه سبحانه جاء الرشاد. وأعظم الرشاد إرشادُ عباده المؤمنين إلى دينه ودين ملائكته ورسله، وما حوته كتبه. ذلك الدين القيم. فعليه أن يُحسن معاملة مولاه بما أمره به وعنه نهاه. وهذا غاية الرشد يدل عليه قوله -ﷺ- في خطبته: «**من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فلا يلومن إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا**»[1].

فقد بين -ﷺ- أن الرشد في طاعة الله والغي في معصيته. وعليه أن يرشد عباد الله ويهديهم حتى لا يألفوا أعاديهم. وهي -أي الأعادي- كل ذات وصفة من الصفات التي تصدهم عن طاعة الله وعبادته، وتوقعهم في حبائل العصيان ومهواته. فإذا اتصف بهذه الصفات تسمَّى عند الله رشيدًا، ونال منه حظًّا مجيدًا. ولله عليه في هذه المنة والفضل كما امتن على إبراهيم فقال: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ**﴾[2] [الأنبياء:٥١].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٧٠) في الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، من حديث عدي بن حاتم -رضي الله عنه-.

(٢) الأسنى في: «شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي» (٤٧٤/١).

الـرب

قال الله -عز وجل-: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢].

وعن العباس -رضي الله عنه- أنه سمع رسول اللـه -ﷺ- يقـول: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد -ﷺ- رسولاً**»(١).

قال الحليمي: في معنى الرب: هو المبلغ كل ما أبدع حد كماله الذي قـدر لـه فهـو يسل النطفة من الصلب ثم يجعلها علقة، ثم العلقة مضغفة، ثم يخلق المضغة عظامًـا، ثـم يكسو العظم لحمًا، ثم يخلق الروح في البدن، ويخرجه خلقًا آخر، وهو صغير ضعيـف، فلا يزال ينميه وينشيه حتى يجعله رجلاً، ويكون في بدء أمره شابًا، ثم يجعله كهلاً، ثـم شيخًا وهكذا كل شيء خلقه، فهو القائم عليـه، والمبلـغ إيـاه الجسـد الـذي وضعـه لـه، وجعله نهاية ومقدارًا له.

وقال أبو سليمان فيما أخبرت عنه: قد روى غير واحد من أهل التفسـير فـي قولـه -جل وعلا-: ﴿**الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢]، إن معنـى الـرب السيد، وهـذا يستقيم إذا جعلنا العالمين معناه المميزون دون الجماد، لأنه لا يصـح أن يقـال: سيد الشجر والجبال ونحوها. كما يقال: سيد النـاس، ومـن هـذا قولـه: ﴿**ارْجِـعْ إِلَـى رَبِّـكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ [يوسف:٥٠]، أي: إلى سيدك.

وقيل: إن الرب المالك، وعلى هذا تستقيم الإضافة إلى العموم، وذهـب كثـير منهـم إلى أن اسم العالم يقع على جميع المكونات، واحتجوا بقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿**قَـالَ فِرْعَـوْنُ وَمَـا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِن كُنتُـم مُّوقِنِين**﴾(٢) [الشعراء:٢٣،٢٤]،

والـرب: المصلـح والجـابر والمدبر والقـائم قـال الهروي وغيره: ويقـال لمـن قـام بمصالح شيء وإتمامه: قـد ربـه يربـه فهـو رب ومنـه سـمي الربـانيون لقيـامهم بـالكتب وإصلاح الناس بها. ومنه الحديث «**هل لك من نعمة تربيها عليه**» أي تقـوم بهـا. ومنـه

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٤) في الإيمان، باب: الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي والكبائر.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٧٣-٧٤).

قول النابغة:

وَرَبٌّ عليـه اللـه أحسـن صُنْعِـهِ   وكـان لـه خـير البريـة نـاصرًا

وربيت الأديم: دهنته بالرُّب قال:

فإن كنت مني أو تريدين صحبتي   فكوني له كالسمن رُبَّ لـه الأدم

وهو يرجع إلى معنى الإصلاح يقال: ربيت الزق بالرُب، والربُّ السلاف الخاثر من كل الثمار ويقال من ذلك [ربيت الزق] بالقير إذا أصلحته. والرَّبُّ المعبود يدل عليه حديث عذاب القبر يقال له: من ربك المراد من معبودك. وقال الشاعر:

أَربٌّ يبـول الثعلبـان برأسـه   لقد هان من بالت عليه الثعالبُ

فالله سبحانه رب الأرباب ومعبود العُباد يملك المالك والمملوك وجميع العباد. وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق. وكل مخلوق فمملك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما يملك شيئًا دون شيء، وصفة الله تعالى مخالفة لهذا المعنى فهذا الفرق بين صفات الخالق والمخلوقين، فأما قول فرعون -لعنه الله- إذ قال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [النازعات:٢٤]، فإنه أراد أن يستبد بالربوبية العالية على قومه ويكون رب الأرباب، فينازع الله في ربوبيته وملكه الأعلى: ﴿**فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى**﴾ [النازعات:٢٥]، وقد قيل: إن الرب مشتق من التربية فالله سبحانه مدبر لخلقه ومربيهم ومصلحهم وجابرهم، القائم بأمورهم، قيوم الدنيا والآخرة، كل شيء خلقه، وكل مذكور سواه عبده، وهو سبحانه ربه، لا يصلح إلا بتدبيره، ولا يقوم إلا بأمره، ولا يربيه سواه. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ**﴾ [النساء:٢٣]، فسمي ولد الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها. فعلى أنه مُدَبِّر لخلقه ومربيهم ومُصلحهم وجابرهم يكون صفة فعل. وعلى أن الرب المالك والسيد يكون صفة ذات.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا رب له على الحقيقة إلا الله وحده، وأن يحسن تربية من جُعِلَتْ تربيته إليه، فيقوم بأمره ومصالحه كما قام الحق به، فيرقيه شيئًا شيئًا، وطورًا طورًا ويحفظه ما استطاع جهده كما حفظه الله، قال ابن عباس وسئل عن الرباني فقال: هو الذي يعلم الناس بصغار الأمر قبل كباره. فالعالم الرباني هو الذي يحقق علم الربوبية، ويربي الناس بالعلم على مقدار ما يحتملونه فيبذل لخواصهم جوهره ومكنونه، ويبذل لعوامهم ما ينالون به فضل الله ويدركونه، ثم عليه أن يدعو ربه بهذا

الاسم العظيم، فيقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، إلى غير ذلك من الآي حسبما تقدم. ولا يتحلى به، ولا يصف نفسه به، فقد صح عن النبي -ﷺ-: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي ولا يقل المملوك: ربي وربتي وليقل المالك: فتاتي وفتاي وليقل المملوك: سيدي وسيدتي أنتم المملوكون والرب الله**»(١). ذكره ابن العربي(٢).

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٠)، وأبو داود (٤٩٧٥) في الأدب، باب: لا يقول المملوك «ربي» و«ربك»، وأحمد في «مسنده» (٤٢٣/٢)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وهو في «الصحيحين» بلفظ قريب منه، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح؟

(٢) الأسنى في «شرح أسماء الله الحسنى» للقرطبي (٣٩٦/١).

الرحمن الرحيم

استبعد قوم أن يكون (الرحمن) نعتاً لله من قولنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١، والنمل:٣٠]، وقالوا (الرحمن) علم، والأعلام لا ينعت بها. ثم قالوا: هو بدل من اسم الله قالوا: ويدل على هذا أن الرحمن علم مختص بالله لا يشاركه فيه غيره، فليس هي كالصفات التي هي العليم والقدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى. قالوا: ويدل عليه أيضاً وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠]، وهذا شأن الأسماء المحضة، لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي : والبدل عندي فيه ممتنع، وكذلك عطف البيان لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين، فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها. ولهذا قالوا: وما الرحمن ولم يقولوا: وما الله ولكنه، وإن جرى مجرى الإعلام فهو وصف يراد به الثناء، وكذلك الرحيم إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية. فإن التثنية في الحقيقة تضعيف.

وكذلك هذه الصفة فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر فكان اللفظ مضارعاً للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في الحقيقة، ألا ترى أنهم أيضاً قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين. فقالوا: الحكمان والعلمان وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد. فقالوا: اشترك باب فعلان وباب التثنية. ومنه قول فاطمة: يا حسنان يا حسينان برفع النون لابنيها ولمضارعة التثنية امتنع جمعه فلا يقال غضابين، وامتنع تأنيثه فلا يقال غضبانة، وامتنع تنوينه كما لا ينون نون المثنى فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعته إياها لفظاً ومعنى.

وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة تم كلامه.

قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي

فيها بين العلمية والوصفية. فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجئ قط تابعاً لغيره، بل متبوعاً. وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر. وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً.

الجمع بين الرحمن والرحيم:

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكروهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف، والثاني للفعل. فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يجئ قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها[1].

الرحمة الحقيقية:

ومما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. هذه هي الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

---

(١) بدائع الفوائد (ص ٢٠).

وقد جاء في الأثر: إن المبتلى إذا دعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه ؟ وفي أثر آخر: إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه .

فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه كيف؟ وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها.

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران:٢٨].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: حذرهم من نفسه، لئلا يغتروا به[(١)].

الضلال والغضب:

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين وطريق الضالين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله وأوجبه، وبالله التوفيق[(٢)].

من معاني إضافة الرحمة إلى الله:

واعلم أن الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان: أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٢٤٤).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/٢٤٥).

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: «**احتجت الجنة والنار**»(١)، فذكر الحديث وفيه: «**فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»(٢) فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة وإنما يدخلها الرحماء ومنه قوله -ﷺ-: «**خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض**»(٣)، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً**﴾ [هود: ٩]، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾ [الفرقان: ٤٨].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً وهو قول الداعي اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك(٤)، وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف وحكى فيه الكراهة. قال: إن مستقر رحمته ذاته وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة، ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جداً وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها، ولهذا لا يحسن أن يقال اجمعنا في مستقر جنتك، فإن الجنة نفسها هي دار القرار وهي المستقر نفسه. كما قال: حسنت مستقراً ومقاماً، فكيف يضاف المستقر إليها والمستقر هو المكان الذي يستقر فيه الشيء، ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه الجنة، فتأمله ولهذا قال: مستقر رحمته ذاته.

والصواب أن هذا لا يمتنع وحتى لو قال صريحاً: اجمعنا في مستقر جنتك لم يمتنع. وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة، أو عذاباً. فإن أضيف إلى أحد أنواعه أضيف إلى ما يبينه ويميزه من غيره، كأنه قيل في المستقر الذي هو رحمتك لا في

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٦) في الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: انظر ما قبله.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٠٠) في الأدب، باب: جعل الله الرحمة في مائة جزء، ومسلم (٢٧٥٢) في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، إلا أنه في الصحيح بلفظ: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق».

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٦٨) عن أبي رجاء العطاردي من قوله.

المستقر الآخر، ونظير هذا أن يقول: اجلس في مستقر المسجد. أي المستقر الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة وأيضاً فإن الجنة وإن سميت رحمة لم يمتنع أن يسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة، ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة.

فالداعي أن يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة وهذا ظاهر جداً، فلا يمتنع الدعاء بوجه والله أعلم. وهذا بخلاف قول الداعي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فإن الرحمة هنا صفته تبارك وتعالى وهي متعلق الاستغاثة. فإنه لا يستغاث بمخلوق ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب لما تضمنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين متوسلاً إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو اسم الحي القيوم[1].

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٣٢).

الـرزاق

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [المائدة:١١٤]

قال الحليمي: وهو الرزاق رزقًا بعد رزق، والمكثر الموسع له.

قال أبو سليمان فيما أخبرت عنه: الرزاق هو المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها. قال: وكل ما وصل منه إليه من مباح وغير مباح فهو رزق الله، على معنى أنه قد جعل له قوتًا ومعاشًا: قال الله -عز وجل-: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠،١١]، وقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، إلا أن الشيء إذا كان مأذونًا له في تناوله فهو حلال حكمًا، وما كان منه غير مأذون له فيه فهو حرام حكمًا.

وجميع ذلك رزق على ما بيّناه[(١)].

وعلى ذلك فيجب على كل مسلم أن يعلم أن لا رازق ولا رزاق إلا الله تعالى على الإطلاق وحده. وغيره إن رزق وأعطى فإنما يرزق من رزق الذي أعطى. فارزق مما رزقك الله يأتك الخلف من الله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:٣٩]، ومهما در عليك من الرزق الظاهر فوق القوت، فلا تدخره في مخادع البيوت، واخزنه في سرادق الملكوت يزدد نماءً.

فما أقبح بالمرء أن يكون بطنه مملوءًا وأنه لا يبق له من الجوع دماء، ثم إذا أعوزك الرزق فلا تطلبه بكثرة الحرص، فلن يزيدك في الرزق المقدر إلا ما قسمه لك وقدر. فاطلب منه أعلاه وأجله، وأصفاه وأحلّه، قال -ﷺ-: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لا تموت نفسي حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم**»[(٢)].

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٦٦).

(٢) صحيح: أخرجه أبو نعيم في الحلية، عن أبي أمامة كما في «الجامع الصغير» (٢٢٧٣)، وقال =

فإذا سلكت هذه المذاهب، كنت معلقًا بالرازق من كل جانب وانتفعت بالرزق وانتفع بك غيرك، حيث لم ينقبض عنهم خيرك، وضوعف لك الرزق الباطن والظاهر، في المنزل الطاهر في المقعد الصدق عند الملك القادر[1].

الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨٥): صحيح.

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٢٨٤).

الرفـيع

قال الله -عز وجل-: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر:١٥]، ومعناه: هو الذي لا أرفع قدرًا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها، استحق لها غيرها.

أخبرنا أبو الحسين بن بشر أن أبا علي الحسين بن صفوان البرذعي ثنا عبد الله بن محمد القرشي ثنا يوسف بن موسى، قال: سمعت جريرًا قال: سمعت رجلاً يقول: رأيت إبراهيم الصائغ في النوم -قال وما عرفته قط- فقلت: بأي شيء نجوت؟ قال: بهذا الدعاء:

«**اللهم يا عالم الخفيات، رفيع الدرجات، ذا العرش، يلقي الروح على من يشاء من عباده، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، ذا الطول، لا إله إلا أنت**»[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١٦).

الرفيق

لم يرد في القرآن اسمًا ولا فعلاً، ولكن ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عائشة – رضوان الله عليها- زوج النبي – ﷺ – أن رسول الله – ﷺ –: قال: «**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه**»[(١)].

قال الجوهري: الرفق ضد العنف. وقد رفق به يرفق.

وحكى أبو زيد: رفقت به وأرفقته بمعنى، وكذلك ترفقت به.

ويقال أيضًا: أرفقته أي نفعته.

والرفيق أيضًا المرافق في السفر، فهو يطلق على غير الله –عز وجل– والجمع الرفقاء وقد يكون الرفيق أيضًا واحدًا وجمعًا مثال الصديق قال الله تعالى: ﴿**وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً**﴾ [النساء:٦٩]، والرفيق أيضًا ضد الأخرق فهو مشترك قال غيره: وأصل الرفق الاحتيال لإصلاح الأمور وإتمامها، والله تعالى عن ذلك ما يليق بجلاله سبحانه فهو الرفيق أي الكثير الرفق وهو اللّيّن والسهل، وضده العنف وهو التشديد والتصعيب، وقد يجيء الرفق بمعنى الإرفاق وهو الإعطاء؛ إذ هو الميسِّر والمسَهِّل لأسباب الخير محلها والمعطي لها وأعظمها تيسير القرآن للحفظ ولولاه ما قال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ [القمر:٣٢]، ما قدر على حفظه أحد فلا تيسير إلا بتيسيره، ولا منفعة إلا بإعطائه وتقديره، وقد يجيء الرفق أيضًا بمعنى التمهل في الأمور والتأني فيها، يقال منه رفقت الدابة أرفقها إذا اشددت عضدها لتبطئ في مشيها.

وعلى هذا يكون الرفيق في حق الله تعالى بمعنى الحليم، فإنه لا يعجل بعقوبة العصاة ليتوب من سبقت له الشقاوة.

وقال الخطابي: قوله: إن الله رفيق معناه ليس بعجول، وإنما يعجل من يخاف الفوت. فأما من كانت الأشياء في قبضته وملكه فليس يعجل فيها.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٣) في البر والصلة، باب: فضل الرفق.

وأما قوله: يحب الرفق أي يحب ترك العجلة في الأعمال والأمور، وقد تقدم هذا في اسمه الحليم، فينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقًا في أموره وجميع أحواله غير عجل فيها، فإن العجلة من الشيطان، فمن تعجل لا تفارقه الخيبة والخسران، وقال رسول الله - ﷺ - لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**»[(١)][(٢)].

❁❁❁

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٥)، ومسلم (١٨) في الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله - ﷺ -، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٥٥٦).

الرقيب

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ [الأحزاب:٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] ..إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل -عليه السلام-: أنه: سأل النبي -ﷺ- عن الإحسان؟ فقال له: «**أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

المراقبة دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين. والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات. فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟.

قال الجريري: من لم يحكّم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ومسلم (٩) في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وفي الباب عن عمر -رضي الله عنه-.

وقيل: الرجاء يحرك إلى الطاعة، والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة.

وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على فصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله، وأن يكون العلم على ظاهرك قائماً.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك. ولا يغرنك اجتماعهم عليك. فإنهم يراقبون ظاهرك. والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته؛ في سره وعلانيته.

والمراقبة هي التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة. والله أعلم.

فالمراقبة: دوام ملاحظة المقصود. وهي على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مذهل، ومداناة حاملة. وسرور باعث.

فقوله دوام ملاحظة المقصود أي دوام حضور القلب معه.

وقوله بين تعظيم مذهل فهو امتلاء القلب من عظمة الله عز وجل.

بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسى هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائماً.

فإن الحضور مع الله يوجب أنساً ومحبة، إن لم يقارنها تعظم، أورثاه خروجاً عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب، فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينيه.

فقد تضمن كلامه خمسة أمور: سير إلى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأما قوله ومداناة حاملة فيريد دنواً وقرباً حاملا على هذه الأمور الخمسة. وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنه كلما ازداد قرباً من الحق ازداد له تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به. لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبته. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عزوجل، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتهم إيمانه وأعماله. فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي -ﷺ- ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان. فقال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**»(١).

وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر -بعد إذ أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى في النار**»(٢).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً، فاتهمه. فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه. وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به، تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٤) في الإيمان، باب: الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد -ﷺ- رسولاً فهو مؤمن، من حديث العباس -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٦) في الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، ومسلم (٤٣) في الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

قال الدرجة الثانية:مراقبة نظر الحق برفض المعارضة، بالإعراض عن الاعتراض، ونقض رعونة التعرض.هذه مراقبة لمراقبة الله لك. فهي مراقبة لصفة خاصة معينة. وهي توجب صيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره. فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم.

ثم بين الشيخ سبب المعارضة، وبماذا يرفضها العبد. فقال: بالإعراض عن الاعتراض فإن المعارضة تتولد من الاعتراض.

والاعتراض ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة، التي يسميها أربابها قواطع عقلية. وهي في الحقيقة خيالات جهلية، ومحالات ذهنية، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجل. وحكموا بها عليه. ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله -ﷺ-. وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه. ووعادوا بها أولياءه. وحرفوا بها الكلم عن مواضعه. ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له: رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة. وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض: ثلاثة أنواع:

أحدها: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منها. وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض. وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

النوع الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان، وحظوظ النفوس الجاهلة.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ. وكل ما هم فيه فحظ، ولكن حظهم متضمن مخالفة مراد الله، والإعراض عن دينه، واعتقاد أنه قربة إلى الله. فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات، المعترفين بذمها، المستغفرين منها، المقرين بنقصهم وعيبهم، وأنها منافية للدين؟

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينه. واغتالوا بها القلوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد. لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من يكيد.

النوع الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله. وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس: قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع: قدمنا الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة.

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل. ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار.

ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيالها من بلية، عمت

فاعمت، ورزية رمت فأصمت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت. فصمت منها الآذان، وعميت منها العيون. عطلت لها -والله- معالم الأحكام. كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم. وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

النوع الرابع: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال. وهو ما بين جلي وخفي، وهو أنواع لا تحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم. ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عيانا، فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلا نفساً قد اطمأنت إليه، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والانقياد. والرضا كل الرضاء.

وأما نقض رعونة التعرض فيشير به إلى معنى آخر، لا تتم المراقبة عنده إلا بنقضه، وهو إحساس العبد بنفسه وخواطره وأفكاره حال المراقبة، والحضور مع الله. فإن ذلك تعرض منه، لحجاب الحق له عن كمال الشهود، لأن بقاء العبد مع مداركه وحواسه ومشاعره، وأفكاره وخواطره، عند الحضور والمشاهدة، هو تعرض للحجاب. فينبغي أن تتخلص مراقبة نظر الحق إليك من هذه الآفات. وذلك يحصل بالاستغراق في الذكر. فتذهل به عن نفسك وعما منك. لتكون بذلك متهيئاً مستعداً للفناء عن وجودك، وعن وجود كل ما سوى المذكور سبحانه.

وهذا التهيؤ والاستعداد: لا يكون إلا بنقض تلك الرعونة. والذكر يوجب الغيبة عن الحس. فمن كان ذاكراً لنظر الحق إليه من إقباله عليه، ثم أحس بشيء من حديث نفسه وخواطره وأفكاره: فقد تعرض واستدعى عوالم نفسه، واحتجاب المذكور عنه. لأن حضرة الحق تعالى لا يكون فيها غيره.

وهذه الدرجة لا يقدر عليها العبد إلا بملكة قوية من الذكر، وجمع القلب فيه بكليته على الله عزوجل.

قال الدرجة الثالثة: مراقبة الأزل، بمطالعة عين السبق، استقبالاً لعلم التوحيد. ومراقبة ظهور إشارات الأزل على أحايين الأبد، ومراقبة الإخلاص من ورطة المراقبة.

قوله مراقبة الأزل أي شهود معنى الأزل، وهو القدم الذي لا أول له بمطالعة عين السبق أي بشهود سبق الحق تعالى لكل ما سواه. إذ هو الأول الذي ليس قبله شيء. فمتى طالع العبد عين هذا السبق شهد معنى الأزل وعرف حقيقته، فبدا له حينئذ علم التوحيد، فاستقبله كما يستقبل أعلام البلد، وأعلام الجيش. ورفع له فشمر إليه. وهو شهود انفراد الحق بأزليته وحده. وأنه كان ولم يكن شيء غيره ألبتة. وكل ما سواه فكائن بعد عدمه بتكوينه. فإذا عدمت الكائنات من شهوده، كما كانت معدومة في الأزل. فطالع عين السبق، وفني بشهود من لم يزل عن شهود من لم يكن. فقد استقبل علم التوحيد.

وأما مراقبة ظهور إشارات الأزل على أحايين الأبد فقد تقدم أن ما يظهر في الأبد؛ هو عين ما كان معلوماً في الأزل، وأنه إنما تجددت أحايينه، وهي أوقات ظهوره. فقد ظهرت إشارات الأزل، وهي ما يشير إليه العقل بالأزلية من المقدرات العلمية على أحايين الأبد. هذا معناه الصحيح عندي.

والقوم يريدون به معنى آخر: وهو اتصال الأبد بالأزل في الشهود. وذلك بأن يطوي بساط الكائنات عن شهوده طياً كلياً. ويشهد استمرار وجود الحق سبحانه وحده، مجرداً عن كل ما سواه. فيصل -بهذا الشهود- الأزل بالأبد.

ويصيران شيئاً واحداً. وهو دوام وجوده سبحانه، بقطع النظر عن كل حادث.

والشهود الأول أكمل وأتم. وهو متعلق بأسمائه وصفاته. وتقدم علمه بالأشياء، ووقوعها في الأبد مطابقة لعلمه الأزلي، فهذا الشهود يعطي إيماناً ومعرفة، وإثباتاً للعلم والقدرة، والفعل والقضاء والقدر.

وأما الشهود الثاني: فلا يعطى صاحبه معرفة ولا إيماناً، ولا إثباتاً لاسم ولا صفة، ولا عبودية نافعة. وهو أمر مشترك. يشهده كل من أقر بالصانع، من مسلم وكافر. فإذا استغرق في شهود أزليته، وتفرده بالقدم، وغاب من الكائنات: اتصل في شهوده الأزل بالأبد. فأي كبير أمر في هذا؟ وأي إيمان ويقين يحصل به؟ ونحن لا ننكر ذوقه. ولا نقدح في وجوده. وإنما نقدح في مرتبته وتفضيله على ما قبله من المراقبة، بحيث يكون لخاصة الخاصة. وما قبله لمن هم دونهم. فهذا عين الوهم. والله الموفق.

فإذا اتصل في شهود الشاهد: الأزل الذي لا بداية له، بالأزمنة التي يعقل لها بداية - وهي أزمنة الحوادث- ثم اتصل ذلك بما لا نهاية له، بحيث صارت الأزمنة الثلاثة

واحداً. لا ماضي فيه، ولا حاضر، ولا مستقبل، وذلك لا يكون إلا إذا شهد فناء الحوادث فناء مطلقاً، وعدمها عدماً كلياً. وذلك تقدير وهمي مخالف للواقع. وهو تجريد خيالي، يوقع صاحبه في بحر طامس لا ساحل له، وليل دامس لا فجر له.

فأين هذا من مشهد تنوع الأسماء والصفات؟ وتعلقها بأنواع الكائنات، وارتباطها بجميع الحادثات؟ وإعطاء كل اسم منها وصفة حقها من الشهود والعبودية؟ والنظر إلى سريان آثارها في الخلق والأمر، والعالم العلوي والسفلي، والظاهر والباطن، ودار الدنيا ودار الآخرة؟ وقيامه بالفرق والجمع في ذلك علماً ومعرفة وحالا؟! والله المستعان.

قوله ومراقبة الإخلاص من ورطة المراقبة.

يشير إلى فناء شهود المراقب عن نفسه وما منها. وأنه يفنى بمن يراقبه عن نفسه وما منها. فإذا كان باقياً بشهود مراقبته: فهو في ورطتها لم يتخلص منها. لأن شهود المراقبة لا يكون إلا مع بقائه.

والمقصود: إنما هو الفناء والتخلص من نفسه ومن صفاتها وما منها.

وقد عرفت أن فوق هذا درجة أعلى منه وأرفع، وأشرف. وهي مراقبة مواقع رضا الرب، ومساخطه في كل حركة. والفناء عما يسخطه بما يحب، والتفرق له وبه وفيه، ناظراً إلى عين جمع العبودية، فانياً عن مراده من ربه -مهما علا- بمراد ربه منه. والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

(١)مدارج السالكين (٢/٦٥).

الرءوف

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧].

قال الحليمي: ومعناه المساهل عباده لأنه لم يحملهم -يعني من العبادات- ما لا يطيقون- يعني بزمانة أو علة أو ضعف- بل حملهم أقل ما يطيقونه بدرجات كثيرة، ومع ذلك غلظ فرائضه في حال شدة القوة، وخففها في حال الضعف ونقصان القوة. وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر، والصحيح بما لم يأخذ به المريض، وهذا كله رأفة ورحمة.

قال الخطابي: وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة[١].

ولذلك قال: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٣]، ولم يقل رحمة، فإن ضرب العصاة على عصيانهم رحمة لهم لا رأفة فإن صفة الرأفة إذا انسدلت على مخلوق لم يلحقه مكروه، فلذلك تقول لمن أصابه بلاء في الدنيا وفي ضمنه خير في الأخرى: إن الله قد رحمه بهذا البلاء. وتقول لمن أصابه عافية في الدنيا في ضمنها خيرًا في الأخرى، واتصلت له العافية أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا: إن الله قد رأف به.

وقال الأقليشي: فتأمل هذه التفرقة بين الرأفة والرحمة، ولذلك جاءا معًا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، والحج:٦٥]، وعلى هذا الرأفة أعم من الرحمة فمتى أراد الله بعبد رحمة أنعم عليه بها. إلا أنها قد تكون عقيب بلاء وقد لا تكون، والرأفة بخلاف ذلك على ما بيناه[٢].

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا رءوف على الإطلاق إلا الله، وأن رأفته ليست كرأفتنا على ما بينا، ومن رأفته لعباده ورحمته بهم أن ذادهم[٣] عن مراتع[٤] الهلكة، ومنعهم من موارد الشهوات فمتى أصابهم نصيب من كتاب سبق أقال عثرتهم وأيقظهم

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٧).

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/١٧٣).

(٣) أي: منعهم.

(٤) المرتع: الاتساع في الخصب، وكل مخصب مرتع.

من سبات غمراتهم، وربما رأف بهم ورحمهم بما يكون في الظاهر بلاء وشدة، وهو في الحقيقة رأفة بهم ورحمة. قال رسول الله -ﷺ-: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلي الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء على العبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»(١).خرجه الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال فيه: حسن صحيح.

وعن أنس -رضي الله عنه-: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٢). والآثار والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

ثم عليك أن ترأف بنفسك، كما رأف الله سبحانه بها، فلا تحملها فوق وسعها ولا ما هو خارج عن مقتضى كرم طبعها. والرأفة بها أن تسلك بها أوضح المسالك، وتقيها موارد الهلكة. وكذلك بغيرك. فبهذا تكون ذا قلب رءوف، وتكون رأفة الله عليك في الدارين تطوف(٣).

---

(١) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) في الزهد، باب: في الصبر على البلاء، وابن ماجه (٤٠٢٣) في الفتن، باب: في الصبر على البلاء، والدارمي (٢٧٨٣)، وأحمد في «مسنده» (١٧٢/١، ١٧٣، ١٨٠)، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: حسن صحيح.

(٢) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) في الزهد، باب: في الصبر على الابتلاء، وابن ماجه (٤٠٣١) في الفتن، باب: الصبر على البلاء، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: حسن صحيح.

(٣) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١٧٥/١).

السبوح

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: إن رسول الله -ﷺ- كان يقول في ركوعه: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[١].

قال: فذكرت ذلك لهشام الدستوائي فقال: «في ركوعه وسجوده». أخرجه مسلم في الصحيح.

قال الحليمي في معنى السبوح: إنه المنزه عن المعائب والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدوث. والتسبيح: التنزيه[٢].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٧) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٣٧).

سريع الحساب وسريع العقاب

نطق به القرآن فقال: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢]، و ﴿سَرِيعُ العِقَابِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، وقد مضى الكلام فيه عند الحاسب. وهو مجمع عليه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: كنت بالثغر في محرس الكوفيين مع الشيخ الإمام أبي بكر الطرطوشي فتذاكرنا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال في سورة الأعراف: ﴿لَسَرِيعُ العِقَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

فقلنا: ما الفائدة في دخول اللام في إحدى الآيتين مع سقوطها في الآية الأخرى؟

فأجاب عن ذلك الشيخ الإمام أبو بكر الطرطوشي فقال: حكم اللام التأكيد في لسان العرب، والآية في الأنعام دخلت الأمة فيها في الخطاب، وكانت أمة معصومة في الدنيا، لا تعاقب إلا في الآخرة فسقطت اللام التي حكمها التأكيد في الخبر عنها، والآية التي في الأعراف خوطب بها بنو إسرائيل، وقد عجلت عقوبتهم في الدنيا بالمسخ والخسف فدخلت اللام التي حكمها التأكيد في الخبر عنها[1].

❁❁❁

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٤٨٣).

السـلام

ما حقيقة هذه اللفظة؟ حقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها فمن ذلك، قولك: سلمك الله وسلم فلان من الشر . ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم اللهم سلم[1] ومنه سلم الشيء لفلان. أي خلص له وحده. فخلص من ضرر الشركة فيه قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩]، أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره. ومنه السلم ضد الحرب قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١]، لأن كلاً من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ولهذا يبني منه على المفاعلة. فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل والدغل. وحقيقته الذي قد سلم لله وحده. فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخالفات. بل هو المستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته. فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته.

ومنه أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة، لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك فسلم لربه، وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمؤمن به.

ومنه السلم للسلف وحقيقته العوض المسلم فيه، لأن من هو في ذمته قد ضمن سلامته لربه، ثم سمى العقد سلماً وحقيقته ما ذكرناه. فإن قيل: فهذا ينتقض بقولهم للديغ سليما قيل: ليس هذا بنقض له. بل طرد لما قلناه فإنهم سموه سليماً باعتبار ما يهمه ويطلبه، ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة. فليس عنده أهم من السلامة ولا هو أشد طلباً منه لغيرها. فسمي سليماً لذلك وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة، لأنه

---

(١) صحيح: وهو جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٨٠٦) في الأذان، باب: فضل السجود ومسلم (١٨٢) في الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها أي نجاته. فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها وهذا أحسن من قولهم: إنما سميت مفازة وسمي اللديغ سليماً تفاؤلاً، وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذي ذكرناه وداخل فيه فهو أعم وأحسن.

فإن قيل: فكيف يمكنكم رد السلم إلى هذا الأصل. قيل: ذلك ظاهر، لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضاً للهوي والسقوط طالباً للسلامة راجياً لها سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلماً لتضمنها سلامته. إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعاً. فصح أن السلم من هذا المعنى. ومنه تسمية الجنة بدار السلام وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها إضافة إلى مالكها السلام سبحانه.

الثاني: أنها إضافة إلى تحية أهلها فإن تحيتهم فيها سلام.

الثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر والثلاثة متلازمة. وإن كان الثالث أظهرها فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام. وكان يقال دار الرحمن، أو دار الله، أو دار الملك. ونحو ذلك.

فإذا عهدت إضافتها إليه، ثم جاء دار السلام حملت على المعهود، وأيضاً فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها، أو إلى أهلها.

أما الأول: فنحو دار القرار دار الخلد جنة المأوى جنات النعيم جنات الفردوس. وأما الثاني فنحو دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن، وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين.

أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصاً بها كالخلد والقرار والبقاء.

الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها مثل كونها دائمة وباقية، ودار الخلد والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر. فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام التي لا يتم النعيم فيها إلا به

فإضافتها إليه أولى وهذا ظاهر[١].

فإذا عرف هذا فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه هو أولى من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص، من كل وجد. فهو السلام الحق بكل اعتبار والمخلوق سلام بالإضافة فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم. وسلام في صفاته من كل عيب ونقص. وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة. بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار. فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.

وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه، ونزهه به رسوله فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك.

ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها فحياته سلام من الموت. ومن السنة والنوم، وكذلك قيوميته، وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر. وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً. وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه مايل كل ما سواه محتاج وهو غني عن كل ما سواه. وملكه سلام من منازع فيه، أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه. وإلهيته سلام من مشارك له فيها. بل هو الله الذي لا إله إلا هو. وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته. وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره. بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه، وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله، ووضعه الأشياء مواضعها وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه. بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضاً لحكمته ولعزته فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده. وحكمته وعزته فهو سلام مما يتوهم أعداؤه، والجاهلون به من خلاف حكمته.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٨٩).

وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم. ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة. وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب، وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم. والإحسان إليهم وخلاف حكمته. بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من كونه معارضة أو لحاجة إلى المعطي. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق. بل عطاؤه إحسان محض لا لمعارضة ولا لحاجة. ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه بل العرش محتاج إليه وحملته محتاجون إليه. فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه، وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه. وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل، أو مشبه وسلام من أن يصير تحت شيء، أو محصوراً في شيء. تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله. وغناه وسمعه وبصره. سلام من كل ما يتخيله مشبه، أو يتقوله عطل. وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق. بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾ [الإسراء: ١١١]، فلم ينف أن يكون له ولي مطلقاً. بل نفى أن يكون له ولي من الذل. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه، أوتملق له، أو انتفاع بقربه. وسلام مما يتقوله المعطلون فيها. وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه، أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني والله المستعان المسئول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط إنه قريب مجيب[١].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٩٤).

هل السلام مصدر؟

فالجواب: أن السلام الذي هو التحية اسم مصدر ومنه المصدر الجاري عليه تسليم كعلم تعليماً، وفهم تفهيماً وكلم تكليماً. والسلام من سلم كالكلام من كلم.

فإن قيل: وما الفرق بين المصدر والاسم؟! قلنا: بينهما فرقان: لفظي ومعنوي. أما اللفظي: فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالأفعال من أفعل والتفعيل من فعل والانفعال من انفعل والتفعلل من تفعلل وبابه. وأما السلام والكلام، فليسا بجاريين على فعليهما، ولو جريا عليه لقيل: تسليم وتكليم.

وأما الفرق المعنوي. فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله، فإذا قلت: تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك. دل على الحدث ومن قام به فيدل التسليم على السلام والمسلم، وكذلك التكليم والتعليم.

وأما اسم المصدر فإنما يدل على الحدث وحده. فالسلام والكلام لا يدل لفظه على مسلم ولا مكلم بخلاف التكليم والتسليم. وسر هذا الفرق أن المصدر في قولك سلم تسليماً وكلم تكليماً بمنزلة تكرار الفعل. فكأنك قلت سلم سلم وتكلم تكلم، والفعل لا يخلو عن فاعله أبداً. وأما اسم المصدر. فإنهم جردوه لمجرد الدلالة على الحدث وهذه النكتة من أسرار العربية. فهذا السلام الذي هو التحية.

وأما السلام الذي هو اسم من أسماء الله ففيه قولان:

أحدهما: أنه كذلك اسم مصدر وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه والمعنى أنه ذو السلام وذو العدل على حذف المضاف.

والثاني: أن المصدر بمعنى الفاعل هنا أي السالم كما سميت ليلة القدر سلاماً أي سالمة من كل شر. بل هي خير لا شر فيها. وأحسن من القولين وأقيس في العربية أن يكون نفس السلام من أسمائه تعالى. كالعدل وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل لكونه غالباً عليه مكرراً منه كقولهم رجل صوم وعدل وزور وبابه. وأما السلام الذي هو بمعنى السلامة فهو مصدر نفسه وهو مثل الجلال والجلالة. فإذا حذفت التاء كان المراد نفس المصدر. وإذا أتيت بالتاء كان فيه إيذان بالتحديد بالمرة من المصدر كالحب، والحبة.

فالسلام والجمال والجلال كالجنس العام من حيث لم يكن فيه تاء التحديد.

والسلامة والجلالة والملاحة والفصاحة كلها تدل على الخصلة الواحدة. ألا ترى أن الملاحة خصلة من خصال الكمال، والجلالة من خصال الجلال. ولهذا لم يقولوا: كمالة. كما قالوا: ملاحة وفصاحة، لأن الكمال اسم جامع لصفات الشرف والفضل. فلو قالوا: كمالة لنقضوا الغرض المقصود من اسم الكمال فتأمله. وعلى هذا جاء الحلاوة والأصالة والرزانة والرجاحة، لأنها خصلة من مطلق الكمال والجمال محدودة فجاءوا فيها بالتاء الدالة على التحديد، وعكسه الحماقة والرقاعة والنذالة والسفاهة فإنها خصال محدودة من مطلق العيب والنقص فجاءوا في الجنس الذي يشمل الأنواع بغير تاء، وجاءوا في أنواعه وأفراده بالتاء وقد تقدم تقرير هذا المعنى. وأيضاً فلا حاجة إلى إعادته.

فتأمل الآن كيف جاء السلام مجرداً عن التاء إيذاناً بحصول المسمى التام. إذ لا يحصل المقصود إلا به فإنه لو سلم من آفة ووقع في آفة لم يكن قد حصل له السلام. فوضح أن السلام لم يخرج عن المصدرية في جميع وجوهه.

فإن قيل: فما الحكمة في مجيئه اسم مصدر ولم يجئ على أصل المصدر؟

قيل: هذا السر بديع. وهو أن المقصود حصول مسمى السلامة للمسلم عليه على الإطلاق من غير تقييد بفاعل. فلما كان المراد مطلق السلامة من غير تعرض لفاعل. أتوا باسم المصدر الدال على مجرد الفعل. ولم يأتوا بالمصدر الدال على الفعل والفاعل معاً فتأمله [١].

هل قول المسلم سلام عليكم هل هو إنشاء أم خبر؟

فجوابه: أن هذا ونحوه من ألفاظ الدعاء متضمن للإنشاء والإخبار فجهة الخبرية فيه لا تناقض جهة الإنشائية. وهذا موضع بديع يحتاج إلى كشف وإيضاح. فنقول: الكلام له نسبتان نسبة إلى المتكلم به نفسه، ونسبة إلى المتكلم فيه إما طلباً، وإما خبراً. وله نسبة ثالثة إلى المخاطب لا يتعلق بها هذا الغرض. وإنما يتعلق تحقيقه بالنسبتين الأوليين فباعتبار تينك النسبتين نشأ التقسيم إلى الخبر، والإنشاء ويعلم أين يجتمعان وأين يفترقان. فله بنسبته إلى قصد المتكلم وإرادته لثبوت مضمونه وصف الإنشاء، وله بنسبته

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٩٥).

إلى المتكلم فيه والإعلام بتحققه في الخارج وصف الإخبار، ثم تجتمع النسبتان في موضع وتفترقان في موضع. فكل موضع كان المعنى فيه حاصلاً بقصد المتكلم وإرادته فقط. فإنه لا يجامع فيه الخبر الإنشاء نحو قوله: بعتك كذا، ووهبتكه وأعتقت وطلقت. فإن هذه المعاني لم يثبت لها وجود خارجي إلا بإرادة المتكلم وقصده. فهي إنشاءات وخبريتها من جهة أخرى وهي تضمنها إخبار المتكلم عن ثبوت هذه النسبة في ذهنه. لكن ليست هذه هي الخبرية التي وضع لها لفظ الخبر وكل موضع كان المعنى حاصلاً فيه من غير جهة المتكلم.

وليس للمتكلم إلا دعاؤه بحصوله ومحبته. فالخبر فيه لا يناقض الإنشاء وهذا نحو سلام عليكم. فإن السلامة المطلوبة لم تحصل بفعل المسلم، وليس للمسلم إلا الدعاء بها ومحبتها فإذا قال: سلام عليكم تضمن الإخبار بحصول السلامة والإنشاء للدعاء بها وإرادتها وتمنيها، وكذلك ويل له قال سيبويه : هو دعاء وخبر ولم يفهم كثير من الناس قول سيبويه على وجهه. بل حرفوه عما أراده به.

وإنما أراد سيبويه هذا المعنى أنها تتضمن الإخبار بحصول الويل له مع الدعاء به، فتدبر هذه النكتة التي لا تجدها محررة في غير هذا الموضع هكذا. بل تجدهم يطلقون تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء من غير تحرير. وبيان لمواضع اجتماعهما وافتراقهما. وقد عرفت بهذا أن قولهم سلام عليكم وويل له وما أشبه هذا أبلغ من إخراج الكلام في صورة الطلب المجرد نحو اللهم سلمه[1].

ما معنى السلام المطلوب عند التحية؟

ففيه قولان مشهوران:

أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم والسلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام نزلت بركة اسمه عليكم، وحلت عليكم ونحو هذا واختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده، واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: السلام على الله قبل عباده السلام على جبريل السلام على فلان فقال النبي - ﷺ -: «**لا**

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٩٧).

تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام. ولكن قولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[١] فنهاهم النبي -ﷺ- أن يقولوا: السلام على الله، لأن السلام على المسلم عليه دعاء له، وطلب أن يسلم والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له. فيستحيل أن يسلم عليه. بل هو المسلم على عباده كما سلم عليهم في كتابه. حيث يقول: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وقوله: ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الصافات: ١٠٩]؛ ﴿**سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ**﴾ [الصافات: ٧٩]؛ ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ**﴾ [الصافات: ١٣٠]، وقال في يحيى: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ**﴾ وقال لنوح: ﴿**اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**﴾ [هود:٤٨]، ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۞ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، فقولاً منصوب على المصدر، وفعله ما تضمنه سلام من القول، لأن السلام قول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم**». وقال: «**يا أهل الجنة سلام عليكم**»، ثم قرأ قوله: ﴿**سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس: ٥٨]، ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم[٢] وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر[٣]، وقال تعالى: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ**﴾ [الأحزاب:٤٤]، فهذا تحيتهم يوم يلقونه تبارك وتعالى. ومحال أن تكون هذه تحية منهم له. فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نهوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منه لهم. والتحية هنا مضافة إلى المفعول فهي التحية التي يحيون بها لا التحية التي

---

(١) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٨٣١) في الأذان، باب: التشهد في الآخرة، ومسلم (٤٠٢) في الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٨٤) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وقال الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» ضعيف.

(٣) منكر جدًا: أخرجه ابن ماجه (١٠٤) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، والحاكم في «مستدركه» (٣/٩٠)، من حديث أبيّ بن كعب-رضي الله عنه-، وقال الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجة»: منكر جدًا.

يحيونه هم بها. ولـولا قولـه تعـالى: في سـورة يـس: ﴿**سَـلامٌ قَـوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيـم**﴾ [يس:٥٨]، لاحتمل أن تكـون التحيـة لهـم مـن الملائكـة كمـا قـال تعـالى: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلامٌ عَلَيْكُم**﴾ [الرعد: ٢٣].

ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم في منازلهم من الجنة يدخلون مسـلمين عليهم، وأما التحية المذكورة في قولـه: ﴿**تَحِيَّتُهُـمْ يَـوْمَ يَلْقَوْنَـهُ سَـلامٌ**﴾ [الأحـزاب: ٤٤]، فتلك تحية لهم وقت اللقاء كما يحيي الحبيب حبيبه، إذا لقيه. فمـاذا حـرم المحجوبـون عن ربهم يومئذ؟

يكفـي الـذي غـاب عنـك غيبتـه فـــذاك ذنـــب عقابـــه فيـــه

والمقصود أن الله تعالى يطلب منه السلام. فلا يمتنع في حقه أن يسـلم على عباده ولا يطلب له، فلذلك لا يسلم عليه. وقوله -ﷺ-: «**إن الله هو السلام**»[1] صريح فـي كون السلام اسماً من أسمائه. قالوا: فإذا قال المسلم: سلام عليكـم كـان معناهـا اسـم السلام عليكم.

ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمـر أن رجـلاً سـلم على النبـي -ﷺ- [وهو يبول] لم يرد عليه حتى اسـتقبل الجـدار، ثـم تيمـم ورد عليـه وقـال: «**إنـي كرهت أن أذكر الله إلا على طهر**»[2]، قالوا: ففي هذا الحديث بيـان أن السـلام ذكـر الله. وإنما يكون ذكراً إذا تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً. أن الكفار من أهل الكتـاب لا يبـدءون بالسـلام[3]. فـلا يقـال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لايكـره أن يقـال لأحدهـم: سـلمك اللـه ومـا ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله. فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسـم عليـه. فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة.

---

(١) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦) في الطهارة، باب: أيرد السلام وهو يبـول؟، وأصلـه عنـد مسـلم (٣٧٠) في الحيض، باب: التيمم، وما بين المعقوفتين زيادة عند أبي داود.

(٣) للحديث الصحيح الذي رواه مسلم (٢١٦٧) في السلام، باب: النهـي عـن ابتـداء أهـل الكتـاب بالسلام، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفـظ: «لا تبـدءوا اليهـود ولا النصـارى بالسـلام، فـإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه».

القول الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة وهو المطلوب المدعو به عند التحية.

ومن حجة أصحاب هذا القول أن يذكر بلا ألف ولام. بل يقول المسلم سلام عليكم ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك.

بل كان يطلق عليه معرفاً كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى فيقال: السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر فإن التنكير لايصرف اللفظ إلى معين فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده، بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.

ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يدل على أن المراد به المصدر ولهذا عطف عليه مصدرين مثله، ومن حججهم أيضاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً، ويكون المعنى بركة اسم السلام عليكم.

فإن الاسم نفسه ليس عليهم، ولو قلت: اسم الله عليك كان معناه بركة هذا الاسم ونحو ذلك من التقدير، ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.

ومن حججهم أيضاً. أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء كما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا.

ولهذا كان السلام أماناً لتضمنه معنى السلامة وأمن كل واحد من المسِّلم والراد عليه من صاحبه.

قالوا: فهذا كله يدل على أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وحذفت تاؤه، لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه، والتاء تفيد التحديد كما تقدم.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال الحق في مجموع القولين فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما وإنما نبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مراراً وهي أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله.

حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به فإذا قال: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه، وكذلك قول النبي - ﷺ - لعائشة: وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر:

« **قولي اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني** »[١] وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: « **اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم** »[٢] وهذا كثيرٌ جداً فلا نطول بإيراد شواهده.

وإذا ثبت هذا. فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي يطلب منه السلامة. فتضمن لفظ السلام معنيين:

أحدهما: ذكر الله كما في حديث ابن عمر.

والثاني: طلب السلامة وهو مقصود المسلم. فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه[٣].

إذا عرف هذا. فالحكمة في طلبه عند اللقاء دون غيره من الدعاء. إن عادة الناس الجارية بينهم أن يحيي بعضهم بعضاً عند لقائه، وكل طائفة لهم في تحيتهم ألفاظ وأمور اصطلحوا عليها.

وكانت العرب تقول في تحيتهم بينهم في الجاهلية. أنعم صباحاً وأنعموا صباحاً. فيأتون بلفظة أنعموا من النعمة بفتح النون. وهي طيب العيش والحياة ويصلونها بقولهم صباحاً، لأن الصباح في أول النهار. فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها واستمرت اليوم كله فخصوها بأوله إيذاناً لتعجيلها وعدم تأخرها إلى أن يتعالى النهار، وكذلك يقولون: أنعموا مساء. فإن الزمان هو صباح ومساء. فالصباح في أول النهار إلى بعد انتصافه. والمساء من بعد انتصافه إلى الليل. ولهذا يقول الناس: صبحك الله بخير، ومساك الله بخير، فهذا معنى أنعم صباحاً ومساء، إلا أن فيه ذكر الله. وكانت الفرس يقولون في تحيتهم: هزا رساله ميمابي أي تعيش ألف سنة وكل أمة لهم تحية من هذا

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥١٣) في الدعوات، باب: رقم (٨٩)، وابن ماجه (٣٨٥٠) في الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية، وقال الألباني في « صحيح سنن ابن ماجه » : صحيح.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٨٣٤) في الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، ومسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٣) بدائع الفوائد (٢/٢٩٨).

الجنس أو ما أشبهه، ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم، كالسجود ونحوه، وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها.

ولهذا سميت تحية وهي تفعلة من الحياة كتكرمة من الكرامة. لكن أدغم المثلان فصار تحية فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل السلام تحية بينهم سلام عليكم وكانت أولى من جميع تحيات الأمم، التي منها ما هو محال وكذب نحو قولهم تعيش ألف سنة، وما هو قاصر المعنى، مثل أنعم صباحاً ومنها ما لا ينبغي إلا لله مثل السجود. فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها. فهي الأصل المقدم على كل شيء.

ومقصود العبد من الحياة: إنما يحصل بشيئين بسلامته من السر وحصول الخير كله، والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير وهي الأصل. ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل حيوان بسلامته أولاً، ثم غنيمته ثانياً.

على أن السلامة المطلقة تضمن حصول الخير. فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف. ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير.

فانتظمْ الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له وحذفت التاء منها لما ذكرنا من إرادة الجنس لا السلامة الواحدة. ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة، بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش، والحياة كانت تحية أهلها فيها سلام، والرب يحييهم فيها بالسلام، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. فهذا سر التحية بالسلام عند اللقاء.

وأما عند المكاتبة فلما كان المراسلان كل منهما غائب عن الآخر ورسوله إليه كتابه يقوم مقام خطابه له. استعمل في مكاتبته له من السلام ما يستعمله معه لو خاطبه لقيام الكتاب مقام الخطاب[1].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٠١).

وهنا سؤال وهو ما سبب تعدية هذا المعنى بعلى؟

فجواب بذكر مقدمة وهي ما معنى قوله سلمت. فإذا عرف معناها عرف أن حرف على أليق به. فاعلم أن لفظ سلمت عليه، وصليت عليه، ولعنت فلاناً موضوعها ألفاظ هي جمل طلبية وليس موضوعها معاني مفردة. فقولك: سلمت موضوعه. قلت السلام عليك. وموضوع صليت عليه. قلت: اللهم صل عليه أو دعوت له وموضوع لعنته قلت: اللهم العنه.

ونظير هذا سبحت الله قلت: سبحان الله ونظيره وإن كان مشتقاً من لفظ الجملة، هلل إذا قال: لا إله إلا الله. وحمدل إذا قال: الحمد الله. وحوقل إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وحيعل إذا قال: حي على الصلاة. وبسمل إذا قال، باسم الله. قال:

وقد بسملت ليلى غداة لقيتها ألا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

وإذا ثبت هذا فقولك: سلمت عليه أي ألقيت عليه هذا اللفظ وأوضعته عليه إيذاناً باشتمال معناه عليه، كاشتمال لباسه عليه. وكان حرف على أليق الحروف به فتأمله.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۞ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١]، فليس هذا سلام تحية ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الصافات: ١٠٩]؛ ﴿**سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ**﴾ [الصافات: ٧٩]، ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله. فذكر أنهم ثلاثة أقسام. مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم. ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ووعد المقرب بالغنيمة والفوز. وإن كان كل منهما سالماً غانماً، وظالم بتكذيبه وضلاله. فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم. فلما لما يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة. فإن قيل: فهذا فرق صحيح.

لكن ما معنى اللام في قوله لك؟ ومن هو المخاطب بهذا الخطاب؟ وما معنى حرف «مِنْ» في قوله من أصحاب اليمين؟

فهذه ثلاثة أسئلة في الآية، قيل: قد وفينا بحمد الله بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية، وبين سلام التحية وهو الذي كان المقصود.

وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالاً للفائدة بحول الله وقوته، وإن كنا لم نر أحداً من المفسرين شفى الغليل في هذا الموضع، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ، بل منهم من يقول المعنى فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حرم على معناها من غير ورود.

فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله له. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، ولم يقل عليهم اللعنة إيذاناً بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية ولك السلام. ومنه هذه الآية: ﴿فَسَلامٌ لَّكَ﴾ [الواقعة: ٩١]، أي ثبت لك السلام وحصل لك. وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب فهو خطاب للجنس أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين. كما تقول هنيئاً لك يا من هو منهم، ولهذا والله أعلم أتى بحرف من في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]، والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائناً من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئاً لك من أتباع رسول الله وحزبه أي كائناً منهم. والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال كما تقول: أحببتك من أهل الدين والعلم أي كائناً منهم فهذا معنى هذا الآية وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير. فقد حام عليه منهم من حام وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه. فراجع ما قالوه والله الموفق المنان بفضله[1].

ولكن ما الحكمة في تسليم الله على أنبيائه ورسله؟ والسلام هو طلب ودعاء فكيف يتصور من الله؟ فهذا سؤال له شأن ينبغي الاعتناء به، ولا يهمل أمره وقل من يدرك سره إلا من رزقه الله فهماً خاصاً وعناية، وليس هذا من شأن أبناء الزمان الذين غاية فاضلهم نقلاً أن يحكي قيلاً وقالاً. وغاية فاضلهم بحثاً أن يبدي احتمالاً، ويبرز إشكالاً،، وأما تحقيق العلم كما ينبغي.

فللحروب أناس قائمون بها وللدواوين كتّاب وحسّاب

وقد كان الأولى بنا الإمساك وكف عنان القلم. وأن نجري معهم في ميدانهم ونخاطبهم بما يألفونه. وألا نجلو عرائس المعاني على ضرير، ولا نزف خودها إلى

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٠٢).

عنين. ولكن هذه سلعة وبضاعة لها طلاب وعروس لها خطاب فستصير إلى أهلها، وتهدى إلى بعلها ولا تستطيل الخطابة، فإنها نفثة مصدور فلنرجع إلى المقصود فنقول: لا ريب أن الطلب يتضمن أموراً ثلاثة طالباً ومطلوباً ومطلوباً منه، ولا تتقوم حقيقته إلا بهذه الأركان الثلاثة وتغاير هذه ظاهر إذا كان الطالب يطلب شيئاً من غيره. كما هو الطلب المعروف مثل من يأمر غيره وينهاه ويستفهمه.

وأما إذا كان طالباً من نفسه فهنا يكون الطالب هو المطلوب منه، ولم يكن هنا إلا ركنان طالب ومطلوب والمطلوب منه هو الطالب نفسه فإن قيل: كيف يعقل اتحاد الطالب والمطلوب منه وهما حقيقتان متغايرتان. فكما لا يتحد المطلوب والمطلوب منه ولا المطلوب والطالب. فكذلك لا يتحد الطالب والمطلوب منه، فكيف يعقل طلب الإنسان من نفسه؟ قيل: هذا هو الذي أوجب غموض المسألة وإشكالها، ولا بد من كشفه وبيانه، فنقول: الطلب من باب الإرادات والمريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئاً، فكذلك يريد من نفسه هو أن يفعله والطلب النفسي وإن لم يكن الإرادة فهو أخص منها، والإرادة كالجنس له، فكما يعقل أن يكون المريد يريد من نفسه، فكذلك يطلب من نفسه، وللفرق بين الطلب والإرادة وما قيل في ذلك مكان غير هذا. والمقصودان طلب الحي من نفسه أمر معقول يعلمه كل أحد من نفسه. وأيضاً فمن المعلوم أن الإنسان يكون آمراً لنفسه ناهياً لنفسه قال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف:٥٣]، وقال: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النازعات: ٤٠] وقال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وهذا أكثر من إيراد شواهده. فإذا كان معقولاً أن الإنسان يأمر نفسه وينهاها. والأمر والنهي طلب مع أن فوقه آمرًا وناهياً، فكيف يستحيل ممن لا أمر فوقه ولا ناه أن يطلب من نفسه فعل ما يحبه وترك ما يبغضه. وإذا عرف هذا عرف سر سلامه تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله، وأنه طلب من نفسه لهم السلامة[1].

---

(١) بدائد الفوائد (٢/٣١٤).

ولكن ما السر في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة؟ وكذلك تسليمهم على نفوسهم وعلى عباده الصالحين؟

فقد تقدم بيان الحكمة في كون السلام ابتداء بلفظ النكرة، ونزيد هنا فائدة أخرى وهي أنه قد تقدم أن في دخول اللام في السلام أربعة فوائد وهذا المقام مستغن عنها، لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى. فلم يقصد تبركاً بذكر الاسم كما يقصده العبد فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها. والعبد هو الذي يقصد ذلك، ولا قصد أيضاً تعرضاً وطلباً على ما يقصده العبد، ولا قصد العموم.

وهو أيضاً غير لائق هنا، لأن سلاماً منه سبحانه كاف من كل سلام، ومغن عن كل تحية ومقرب من كل أمنية. فأدنى سلام منه ولا أدنى هناك يستغرق الوصف ويتم النعمة ويدفع البؤس ويطيب الحياة ويقطع مواد العطب والهلاك، فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى. وتأمل قوله تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾** [التوبة: ٧٢] كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به.

فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون. فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا. فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً. وقد بان بهذا الفرق بين سلام الله على رسله وعباده وبين سلام العباد عليهم.

فإن سلام العباد لما كان متضمناً لفوائد الألف واللام التي تقدمت من قصد التبرك باسمه السلام والإشارة إلى طلب السلام له وسؤالها من الله باسم السلام، وقصد عموم السلام كان الأحسن في حق المسلم على الرسول.

أن يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وإن كان قد ورد سلام عليك، فالمعرفة أكثر وأصح وأتم معنى. فلا ينبغي العدول عنه ويشح في هذا المقام بالألف واللام والله أعلم [١].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣١٩).

ولكن في قوله: ﴿**قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَـادِهِ الَّذِيـنَ اصْطَفَـى**﴾ [النمل:٥٩]، هل السلام من الله فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه، أو هو داخـل فـي القـول والأمر بهما جميعاً؟

فالجواب عنه أن الكلام يحتمل الامرين ويشهد لكل منهما هذا ضرب من الـترجيح فيرجح كونه داخلاً في جملة القول بأمور منها اتصاله به، وعطفه عليه من غير فـاصل. وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعاً على كل واحد منهما هذا هو الأصل ما لم يمنـع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد الله وسبحان الله.

فإن التسبيح هنا داخل في المقول. ومنها أنـه إذا كـان معطوفـاً علـى المقـول كـان عطف خبر على خبر وهو الأصل. ولو كان منقطعاً عنه كان عطفاً علـى جملـة الطلـب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب. ومنها أن قوله: ﴿**قُلِ الحَمْدُ لِلَّـهِ وَسَـلامٌ عَلَـى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى**﴾ [النمل: ٥٩]، ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله ولهذا أتـى بالضمير بلفظ الغيبة، ولم يقل سلام على عبادي. ويشهد لكـون السـلام مـن اللـه تعـالى أمور.

أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفـى كقولـه: ﴿**سَـلامٌ عَلَـى نُـوحٍ فِـي العَـالَمِينَ**﴾ [الصافات : ٧٩]، ﴿**سَـلامٌ عَلَـى إِبْرَاهِيـمَ**﴾ [الصافات : ١٠٩]، ﴿**سَـلامٌ عَلَى مُوسَـى وَهَـارُونَ**﴾ [الصافات : ١٢٠]، ﴿**سَـلامٌ عَلَـى إِلْ يَاسِينَ**﴾ [الصافات : ١٣٠].

ومنها أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفســه. وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه، وسـلامه عليهـم. أمـا الأول فقـال تعـالى: ﴿**سُـبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ**﴾ [الصافات: ١٨٠،١٨١]، وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليـق بجلالـه، ثـم سـلامه علـى رسـله. وفـي اقـتران السـلام عليهـم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع فإنــه نـزه نفسه تنزيهاً مطلقاً.

كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم المرسلين. وهذا يقتضي سـلامتهم مـن كل ما يقول المكذبون المخالفون لهم. وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهـم لـزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد. وأعظم ما جـاءوا بـه التوحيـد ومعرفـة اللـه

ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض. وما خالفه هو الباطل والكذب المحال.

وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:٥٩]، فإنه يتضمن حمده بما فيه من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب. وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به ضد كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه. فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى. كما هو في آخر الصافات. وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ﴾ [الأنبياء:١١٢]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١١٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩]، ونظائره كثيرة جداً.

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمهما انتظاماً واحداً. فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه وليس فيه إلا البلاغ. والكلام كلام الرب تبارك وتعالى فهو الذي حمد نفسه وسلم على عباده. وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول: الحمد الله وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه، وسلم به هو على عباده. فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد اقتداء وطاعة.

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده. فإذا قال العبد: قل هو الله أحد كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة قل تحقيقاً لهذا المعنى.

وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم.

وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، فإنه خبر عن توحيده وهو سبحانه يخبر

عن نفسه بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان[1].

ولكن ما الحكمة في اقتران الرحمة والبركة بالسلام؟

فالجواب عنه: أن يقال لما كان الإنسان لا سبيل له إلى انتفاعه بالحياة إلا بثلاثة أشياء

أحدها: سلامته من الشر ومن كل ما يضاد حياته وعيشه.

والثاني: حصول الخير له.

والثالث: دوامه وثباته له، فإن بهذه الثلاثة يكمل انتفاعه بالحياة شرعت التحية متضمنة للثلاثة، فقوله: سلام عليكم يتضمن السلامة من الشر وقوله: ورحمة الله يتضمن حصول الخير. وقوله: وبركاته يتضمن دوامه وثباته كما هو موضوع لفظ البركة وهو كثرة الخير واستمراره. ومن هنا يعلم حكمة اقتران اسمه الغفور الرحيم في عامة القرآن.

ولما كانت هذه الثلاثة مطلوبة لكل أحد. بل هي متضمنة لكل مطالبه وكل المطالب دونها ووسائل إليها، وأسباب لتحصيلها جاء لفظ التحية دالاً عليها بالمطابقة تارة وهو كمالها، وتارة دالاً عليها بالتضمن، وتارة دالاً عليها باللزوم فدلالة اللفظ عليها مطابقة إذا ذكرت بلفظها، ودلالته بالتضمن إذا ذكر السلام والرحمة فإنهما يتضمنان الثالث، ودلالته عليها باللزوم إذا اقتصر على السلام وحده، فإنه يستلزم حصول الخير وثباته إذ لوعدم لم تحصل السلامة المطلقة. فالسلامة مستلزمة لحصول الرحمة كما تقدم تقريره.

وقد عرف بهذا فضل هذه التحية وكمالها على سائر تحيات الأمم ولهذا اختارها الله لعباده وجعلها تحيتهم بينهم في الدنيا وفي دار السلام. وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكماله. فإذا كان هذا في فرع من فروع الإسلام وهو التحية التي يعرفها الخاص والعام. فما ظنك بسائر محاسن الإسلام وجلالته وعظمته وبهجته التي شهدت بها العقول والفطر. حتى إنها من أكبر الشواهد وأظهر البراهين الدالة على نبوة محمد - ﷺ - وكمال دينه وفضله وشرفه على جميع الأديان، وأن معجزته في نفس دعوته فلو اقتصر عليها كانت آية وبرهاناً على صدقه. وأنه لا يحتاج معها إلى خارق، ولا آية

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٢٢).

منفصلة. بل دينه وشريعته ودعوته وسيرته من أعظم معجزاته عند الخاصة من أمته حتى إن إيمانهم به، إنما هو مستند إلى ذلك. والآيات في حقهم مقويات بمنزلة تظاهر الأدلة.

ومن فهم هذا انفتح له باب عظيم من أبواب العلم والإيمان، بل باب من أبواب الجنة العاجلة يرقص القلب فيها طرباً ويتمنى أنه له بالدنيا وما فيها. وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيساعد على تعليق كتاب يتضمن ذكر بعض محاسن الشريعة وما فيها من الحكم البالغة والأسرار الباهرة التي هي من أكبر الشواهد على كمال علم الرب تعالى وحكمته ورحمته، وبره بعباده ولطفه بهم، وما اشتملت عليه من بيان مصالح الدارين والإرشاد إليها، وبيان مفاسد الدارين والنهي عنها.

وأنه سبحانه لم يرحمهم في الدنيا برحمة، ولم يحسن إليهم إحساناً أعظم من إحسانه إليهم، بهذا الدين القيم وهذه الشريعة الكاملة، ولهذا لم يذكر في القرآن لفظة المن عليهم إلا في سياق ذكرها كقوله: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقوله: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الحجرات:١٧]، فهي محض الإحسان إليهم والرأفة بهم، وهدايتهم إلى ما به صلاحهم في الدنيا والآخرة. لا أنها محض التكليف والامتحان الخالي عن العواقب الحميدة التي لا سبيل إليها إلا بهذه الوسيلة فهي لغاياتها المجربة المطلوبة بمنزلة الأكل للشبع والشرب للري والجماع لطلب الولد. وغير ذلك من الأسباب التي ربطت بها مسبباتها بمقتضى الحكمة والعزة.

فلذلك نصب هذا الصراط المستقيم وسيلة وطريقاً إلى الفوز الأكبر والسعادة، ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا من هذه الطريق، كما لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بالعبور على الصراط.

فالشريعة هي حياة القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح والمشقة الحاصلة فيها.

والتكليف وقع بالقصد الثاني كوقوعه في الأسباب المفضية إلى الغايات المطلوبة لا أنه مقصود لذاته فضلاً عن أن يكون هو المقصود لا سواه.

فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من الفكر في مصادرها ومواردها يفتح لك باباً واسعاً من العلم والإيمان. فتكون من الراسخين في العلم لا من الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. وكما أنها آية شاهدة له على ما وصف به نفسه من صفات الكمال. فهي آية شاهدة لرسوله بأنه رسوله حقاً، وأنه أعرف الخلق وأكملهم وأفضلهم وأقواهم إلى الله وسيلة، وأنه لم يؤت عبد مثل ما أوتي فوالهفاه على مساعد على سلوك هذه الطريق، واستفتاح هذا الباب والإفضاء إلى ما وراءه ولو بشطر كلمة، بل والهفاه على من لا يتصدى لقطع الطريق والصد عن هذا المطلب العظيم ويدع المطي وحاديها، ويعطي القوس باريها.

ولكن إذا عظم المطلوب قل المساعد وكثر المعارض والمعاند وإذا كان الاعتماد على مجرد مواهب الله وفضله يغنيه ما يتحمله المتحمل من أجله. فلا يثنك شنآن من صد عن السبيل وصدف. ولا تنقطع مع من عجز عن مواصلة السرى ووقف، فإنما هي مهجة واحدة فانظر فيما تجعل تلفها وعلى من تحتسب خلفها.

أنت القتيل بكل من أحببته فانظر لنفسك في الهوى من تصطفي

وأنفق أنفاسك فيما شئت فإن تلك النفقة مردودة بعينها عليك وصائرة لا سواها إليك وبين العبد وبين السعادة والفلاح صبر ساعة لله وتحمل ملامة في سبيل الله.

وما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

وقد أطلنا ولكن ما أمللنا. فإن قلباً فيه أدنى حياة يهتز إذا ذكر الله ورسوله ويود أن لو كان المتكلم كله ألسنة تالية والسامع كله آذاناً واعية، ومن لم يجد قلبه، ثم فليشتغل بما يناسبه فكل ميسر لما خلق له وكل يعمل على شاكلته.

وكل امرئ يهفو إلى من يحبه وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الحادي والعشرين، وأن كمال التحية عند ذكر البركات إذ قد استوعبت هذه الألفاظ الثلاثة جميع المطالب من دفع الشر، وحصول الخير وثباته وكثرته ودوامه. فلا معنى للزيادة عليها ولهذا جاء في الأثر المعروف انتهى السلام إلى وبركاته [١].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٢٨).

ولكن ما الحكمة في إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى وتجريد السلام عن الإضافة؟

فجوابه أن السلام لما كان اسماً من أسماء الله تعالى استغنى بذكره مطلقاً عن الإضافة إلى المسمى، وأما الرحمة والبركة فلو لم يضافا إلى الله لم يعلم رحمة من، ولا بركة من تطلب، فلو قيل: عليكم ورحمة وبركة لم يكن في هذا اللفظ إشعار بالراحم المبارك الذي تطلب الرحمة والبركة منه. فقيل: رحمة الله وبركاته، وجواب ثان: أن السلام يراد به قول المسلم سلام عليكم.

وهذا في الحقيقة مضاف إليه ويراد به حقيقة السلامة المطلوبة من السلام سبحانه وتعالى. وهذا يضاف إلى الله فيضاف هذا المصدر إلى الطالب الذاكر تارة، وإلى المطلوب منه تارة، فأطلق ولم يضف، وأما الرحمة والبركة فلا يضافان إلا إلى الله وحده. ولهذا لا يقال: رحمتي وبركتي عليكم، ويقال: سلام مني عليكم وسلام من فلان على فلان.

وسر ذلك، إن لفظ السلام اسم للجملة القولية، بخلاف الرحمة والبركة، فإنهما اسمان لمعناهما دون لفظهما. فتأمله فإنه بديع.

وجواب ثالث: وهو أن الرحمة والبركة أتم من مجرد السلامة. فإن السلامة تبعد عن الشر. وأما الرحمة والبركة فتحصيل للخير وإدامة له وتثبيت وتنمية، وهذا أكمل فإنه هو المقصود لذاته والأول وسيلة إليه، ولهذا كان ما يحصل لأهل الجنة من النعيم أكمل من مجرد سلامتهم من النار، فأضيف إلى الرب تبارك وتعالى أكمل المعنيين وأتمهما لفظاً، وأطلق الآخر وفهمت إضافة إليه من العطف وقرينة الحال، فجاء اللفظ على أتم نظام وأحسن سياق [1].

ولكن ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة؟

فجوابه: إن السلام إما مصدر محض فهو شيء واحد فلا معنى لجمعه. وإما اسم من أسماء الله. فيستحيل أيضاً جمعه. فعلى التقديرين لا سبيل إلى جمعه، وأما الرحمة فمصدر أيضاً بمعنى العطف والحنان فلا تجمع أيضاً والتاء فيها بمنزلتها في الخلة

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٣٠).

والمحبة، والرقة ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة. فكما لا يقال: رقات ولا خلات ولا رأفات، لا يقال: رحمات، وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد وإفراده يشعر بالمسمى مطلقاً من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع، وهذا بديع جداً أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّـهِ الحُجَّـةُ البَالِغَـةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]، أعم وأتم معنى من أن يقال: فلله الحجج البوالغ وكان قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤]، أتم معنى من أن يقال وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها.

وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١]، أتم معنى من أن يقال حسنات. وكذا قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّـنَ اللَّـهِ وَفَضْـلٍ﴾ [آل عمران:١٧١]، ونظائره كثيرة جداً، وسنذكر سر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما البركة فإنها لما كان مسماها كثرة الخير واستمراره شيئاً بعد شيء كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خير مستمر بتعاقب الأفراد على الدوام شيئاً بعد شيء كان لفظ الجمع أولى بها لدلالته على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن، كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُـهُ عَلَيْكُـمْ﴾ [هود:٧٣]، أهل البيت فأفرد الرحمة وجمع البركة. وكذلك في السلام في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته [1].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٣١).

السميع

السميع الذي قد استوى في سمعه سر القول وجهره، وسع سمعه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه ولا يشغله منها سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه كثرة السائلين، قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله وإني ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١) [المجادلة:١].

فعل السمع يراد به أربعة معان:

أحدها: سمع إدراك ومتعلقه الأصوات.

الثاني: سمع فهم وعقل ومتعلقه المعاني.

الثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سأل.

الرابع: سمع قبول وانقياد.

فمن الأول: ﴿سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ [آل عمران:١٨١]، ومن الثاني قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:١٠٤]، ليس المراد سمع مجرد الكلام بل سمع الفهم والعقل.

ومنه سمعنا وأطعنا، ومن الثالث سمع الله لمن حمده، وفي الدعاء المأثور اللهم اسمع أي أجب وأعط ما سألتك. ومن الرابع قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة:٤١]، أي قابلون له ومنقادون غير منكرين له.

ومنه على أصح القولين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، أي قابلون ومنقادون وقيل: عيون وجواسيس وليس بشيء فإن العيون والجواسيس، إنما تكون بين الفئتين غير المختلطتين فيحتاج إلى الجواسيس والعيون وهذه الآية، إنما هي في حق المنافقين وهم كانوا مختلطين بالصحابة بينهم فلم يكونوا محتاجين إلى عيون وجواسيس.

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢١١).

وإذا عرف هذا فسمع الإدراك يتعدى بنفسه، وسمع القبول يتعدى باللازم تارة، وبمن أخرى، وهذا بحسب المعنى. فإذا كان السياق يقتضي القبول عدى بمن، وإذا كان يقتضي الانقياد عدى باللام. وأما سمع الإجابة فيتعدى باللام نحو سمع الله لمن حمده لتضمنه معنى استجاب له ولا حذف هناك، وإنما هو مضمن. وأما سمع الفهم فيتعدى بنفسه، لأن مضمونه يتعدى بنفسه[1].

تميز الإنسان على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان:

إنما يميز الإنسان على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال:٢٢]، فهؤلاء هم الجهال: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال:٢٣]، أي ليس عندهم محل قابل للخير: وَلَوْ كان محلهم قابلا للخير: ﴿**لأَسْمَعَهُمْ**﴾ أي لأفهمهم والسمع هنا سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم.

قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾ [الأنفال:٢٣]، . وقال تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة:١٧١٠]، وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان والسمع يراد به إدراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والإجابة.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٤٥.

والثلاثة في القرآن فمن الأول:قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة-رضي الله عنها-: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله -ﷺ- وأنا في جانب البيت وإنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾** »(١).

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣]، أي لأفهمهم: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق ففيهم آفتان إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، أي قابلون مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلي سمع الله لمن حمده أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبي -ﷺ-: «**إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد**(٢) **يسمع الله لكم أي يجيبكم**». والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل(٣).

مقتضى الإيمان باسمه السميع:

والسماع اسم مصدر. وقد أمر الله به في كتابه. وأثنى على أهله. والخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨]، وقال: ﴿وَاسْمَعُوا

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٦٨٩) في الأذان، باب: إنما جعل الإمام ليؤتم به، ومسلم (٤١١) في الصلاة، باب: ائتمام المأموم بالإمام، من حديث أنس -رضي الله عنه-، وفي الباب من غيره.

(٣) مفتاح دار السعادة (ص ١٥٠).

وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن:١٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء:٤٦]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧،١٨]، وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله: ﴿أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦]-الآية.

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن في المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة السماع تنبيه القلب على معاني المسموع. وتحريكه عنها: طلباً وهرباً وحباً وبغضاً. فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الإلهي الصحيح: «**فبي يسمع. وبي يبصر**»[1] وهذا أعلى سماعا، وأصح من كل أحد.

---

١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢) في الرقاق، باب: التواضع، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، =

والكلام في السماع -مدحاً وذماً- يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته. فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر السماع ويتميز النافع منه والضار. والحق والباطل. والممدوح والمذموم.

فأما المسموع فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه. وأمر به عباده. وأثنى على أهله. ورضي عنهم به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه. ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لا يحبه ولا يبغضه. ولا مدح صاحبه ولا ذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة.

فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله دينا وقربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينا لم يأذن به الله. وضاهأ بذلك المشركين.

السماع الذي مدحه الله تعالى:

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه. وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا. وهم القائلون في النار: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١١]، وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع. سماع إدراك: بحاسة الأذن. وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن وقولهم: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به**﴾ [الجن:١،٢]، وقوله: ﴿**يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى**﴾ [الأحقاف:٣٠] الآية، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وهو فيه بلفظ: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**».

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة. بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل:٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

فالتخصيص هنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا. لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥]، فإن هذا السمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة. وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه. واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، أي قابلون منهم مستجيبون لهم. هذا أصح القولين في الآية.

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس، فضعيف. فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسعي بين العسكر بالفتنة. وفي العسكر من يقبل منهم. ويستجيب لهم. فكان في إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة، حتى لا يقعوا في عنت القبول منهم.

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد.

ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم. وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد في العسكر، ولئلا يبغوهم الفتنة.

وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضاً فإن الجواسيس إنما تسمى عيوناً هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضاً فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]، أي قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً، وتدبراً، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه: هو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات. وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد، لا سماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح. ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومناد ينادي للإيمان. ودليل يسير بالركب في طريق الجنان. وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح. من قبل فالق الإصباح حي على الفلاح، حي على الفلاح.

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غي، وبصيرة من عمى، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة. وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى. وحثاً على تقى. وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء. وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد. ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورا وحياة: هل وجدوا ذلك -أو شيئاً منه- في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك في محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان. فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه. ويزعج قاطنه. فيثور وجده، ويبدو شوقه. فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً

ما كان. ولهذا تجد هؤلاء كلهم ذوقاً في السماع، وحالا ووجدا وبكاء.

ويا لله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات. لعل أكثرها قيل فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور المحرمة. ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته، وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. فكيف يقع لمن أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه، بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضي به؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع. وسنة نبيه -ﷺ-؟!.

يا لله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به منكوس. لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره. فبلاه بقرآن الشيطان، كما في معجم الطبراني وغيره -مرفوعاً وموقوفاً-

«إن الشيطان قال: يا رب، اجعل لي قرآناً.

قال: **قرآنك الشعر**.

قال: اجعل في كتاباً.

قال: **كتابك الوشم**.

قال: اجعل لي مؤذناً.

قال: **مؤذنك المزمار**.

قال: اجعل لي بيتاً.

قال: **بيتك الحمام**.

قال: اجعل لي مصائد.

قال: **مصائدك النساء**.

قال: اجعل لي طعاماً.

قال: **طعامك ما لم يذكر عليه اسمي**»[1] والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ضعيف: ذكره الهيثمي في «المجمع» (١١٩/١)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه يحيى ابن صالح الأيلي، ضعفه العقيلي.

القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ويمدح المعرض عنه:

ومنه الشعر والغناء وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده. فإن الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادني حباً له: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**﴾ [القصص:٥٥]، وقوله: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**﴾ [الفرقان:٧٢]، قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته. فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه. فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب. فإذا جاء القرآن الشيطان فلا إله إلا الله. كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخية النفاق وأساسه.

تلي الكتاب فأطرقوا، لا خيفة لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا والله ما رقصوا من أجل الله
دف، ومزمار، ونغمة شاهد فمتى شهدت عبادة بملاهي؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا تقييده بأوامر ونواهي
وعليهم خف الغنا لما رأوا إطلاقه في اللهو دون مناهي
يا فرقة ما ضر دين محمد وجنى عليه وملّه إلا هي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن شهواتها. يا ويحها المتناهي

وأتى السماع موافقاً أغراضها فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع أسبابه عند الجهول الساهي
إن لم يكن خمر الجسوم. فإنه خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه وانظر إلى النشوان عند تلاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
فاحكم بأي الخمرتين أحق بالـ ـتحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذي يسمعه العبد بطبعه وهواه، أنفع له من الذي يسمعه بالله ولله وعن الله؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك. فهذا غاية اللبس على القوم. فإنه إنما يسمع بالله ولله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه. ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته. فقد جعل الله لك منه قدرا. ولن يجعل الله من شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات[1].

(١) مدارج السالكين (ص ٤٨١).

السيد

وهذا اسم لم يأت به الكتاب ولكنه مأثور عن الرسول -ﷺ-، أخبرنا أبو علي الروذباري قال حدثنا أبو بكر بن يزيد عن أبي نضرة عن مطرف وهو ابن عبد الله بن الشخير قال: قال أبي -رضي الله عنه-: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله -ﷺ- فقلنا أنت سيدنا. فقال رسول الله -ﷺ-: «**السيد الله**» قلنا فأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً. فقال -ﷺ-: «**قولوا بقولكم أو ببعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»(١).

قال الحليمي: ومعناه المحتاج إليه بالإطلاق، فإن سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن رأيه يصدرون، ومن قوله يستهدون، فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خلقًا للباري -جل ثناؤه-، ولم يكن بهم غنية عنه في بدء أمرهم وهو الوجود، إذ لو لم يوجدهم لم يوجدوا، ولا في الإبقاء بعد الإيجاد، ولا في العوارض العارضة أثناء البقاء، كان حقًا له -جل ثناؤه- أن يكون سيدًا، وكان حقًا عليهم أن يدعوه بهذا الاسم(٢).

(١) صحيح: أخرجه ابن سعد كما في «كنز العمال» (٨٣٣٤/٣)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٠٠): صحيح.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٢).

الشـافي

لـم يـرد بـه القـرآن اسـمًا لكـن ورد فعـلاً قـال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، ووردت به السنة اسمًا وفعل، ردت عائشة -رضي الله عنها-: أن النبـي -ﷺ- كان إذا أتى مريضًا قال: «**أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا**»[١].

قال الحليمي: وقد يجوز أن يقال في الدعـاء: «يا شافي يا كـافي» لأن الله -عز وجل-. يشفي الصدور من الشبه، والشكوك، ومن الحسد والغل. والأبدان من الأمراض والآفات ولا يقدر على ذلك غيره، ولا يدعى بهذا الاسم سواه.

ومعنى الشفاء: رفع ما يؤذي ويؤلم عن البدن، قال الجوهري: شفاه اللـه مـن مرضه شفاء (ممدودًا) وأشفى على الشيء أشرف، وأشـفى المريض على المـوت. واستشـفى طلب الشفاء، وأشفيتك الشيء أعطيتكه تستشفي به. ويقال: أشفاه الله عسلاً، إذا جعلـه له شفاء، حكاه أبو عبيدة.

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن لا شافي على الإطلاق إلا الله وحده، وقـد بيـن ذلك رسول الله -ﷺ- بقوله: «**لا شافي إلا أنت**» فيعتقد أن الشفاء له وبه ومنـه، وأن الأدوية المستعملة لا توجب الشفاء، وإنما هي أسباب وأوسـاط يخلـق اللـه عندهـا فعله وهي الصحة التي لا يخلقها أحد سواه. فكيف ينسبها عـاقل إلى جمـاد مـن الأدويـة أو سواها، ولو شاء ربك لخلق الشفاء دون سبب، ولكن لما كانت الدنيا دار أسباب جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة على تعليق الأحكام بالأسباب وإلى هذا المعنى أشار جـبريل -ﷺ- وإياه أوضح لرسول الله-ﷺ-: «**باسم الله أرقيق يشفيك**»[٢]. فبين أن الرقية منه وهي سبب لفعل الله وهو الشفاء[٣].

❁❁❁

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٧٥) في المرضى، باب: دعاء العائد للمريض.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٨٦) في السلام، باب: الطـب والمرضـى والرقـى، مـن حديـث أبـي سعيد -رضي الله عنه-.

(٣) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٥٣٢/١).

الشديد البطش والأليم الآخذ

وجاء ذكرهما في التنزيل فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢]، وقال: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

يقال: بطش يبطش بطشًا. والبطش الأخذ بسرعة مع عنف، ومنه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان:١٦]، قال الحسن وعكرمة: يوم القيامة. وقال ابن عباس وابن مسعود: يوم بدر. وهذا راجع إلى معنى الانتقام وكذلك الأليم الأخذ قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[١] وقرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢] [هود:١٠٢]، أي أن أخذه مؤلم وعقابه موجع. وقد وصف نفسه سبحانه بأنه «آخذ» في قول هود -عليه السلام-: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦]، وهو اسم فاعل من أخذ يأخذ أخذًا، فهو آخذ، والمفعول مأخوذ، وهو من صفات الأفعال الصادرة عن القدرة، وأخذه سبحانه يكون على أوجه كلها راجعة إلى كون المأخوذ في ملكه، وقبضته لقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦]، أي في ملكه وفي قبضته، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، أي أخرجهم من العدم، وأدخلهم تحت ملكه وفي قبضته.

وأما قوله: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:١٠٤]، فالأخذ هنا عبارة عن القبول وصيرورتها في ملكه وقبضته على الوجه المرضي عنده تعالى.

وأما قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، فالأخذ هنا عبارة عن الانتقام كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «إن الله يملي للظالم» الحديث[٣]. وقس على هذا ما يضاهيه فإن أمثلته كثيرة[٤].

---

(١) أي: لم يطلقه، ولم ينفلت منه.

(٢) والحديث أخرجه البخاري (٤٦٨٦) في التفسير، باب: قوله: ﴿وإذا أخذ ربك﴾، ومسلم (٢٥٨٣) في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، من حديث أبي موسى -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

(٤) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٤٩٢).

شديد العقاب

نطق به التنزيل وأجمعت عليه الأمة. ومعناه ظاهر يعاقب الكافرين لكفرهم والعصاة لعصيانهم، فيعاجل من شاء بعقوبته في الدنيا، ويؤخر عقوبة من شاء إلى الآخرة، لا يُسأل عما يفعل.

قال: عاقبه بذنبه معاقبة وعقابًا: أخذه بجزاء الذنب وبعقبه. والاسم العقوبة. ويقال أعقبه على ما صنع أي جازاه به، فعقاب الله تعالى للخلق ما يكون من جزاء على فعل المذموم، وذلك على وجهين:

أحدهما: في الدنيا فيعاقب من شاء بالصواعق المحرقة، والزلازل المتلفة، والفتن المهلكة إلى غير ذلك مما شاء أن يعاقب به. وهذا العقاب مهما حل بكافر كان نقمة، ومهما حل بعصاة المؤمنين كان رحمة لهم، وكفارة لذنوبهم، وطهارة لقلوبهم إن استيقظوا وأقلعوا. وإن أصروا في طغيانهم ولم يسلبهم ما من به عليهم من إيمانهم فهم بين أن يعاقبهم في الأخرى أو يعفو عنهم تعالى. وأما ما أصاب من هذه المحن الأنبياء والأولياء والصالحين المطهرين من الأوزار فليس ذلك بعقاب. إذ العقاب مشعر بجزاء يقع عقب جناية العبد.

ومن حماه الله من الكفر والفسوق والعصيان وحبب إليه الإيمان، وحشا قلبه بنور الإيقان فهو مهما امتحنه بمحنة من الضراء، أو أصابه بما أصابه من البلاء فذلك إكرام من الله يزيده به تطهيرًا وتنويرًا، ويقربه منه تقريبًا، كما قال -عليه السلام-: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»[1].

وقد بينا هذا المعنى في أول كتاب «التذكرة»، وفي أول سورة العنكبوت من كتاب أحكام القرآن والحمد لله. وأما العقاب الذي في الآخرة فيكون عند قبض الروح، وفي القبر، وكرب الموقف، وروعات المبعث، إلى غير ذلك من الشدائد حسبما بيناه في كتاب التذكرة.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

وعقاب بعضهم أشد من عقاب بعض؛ ولذلك قال: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء:١٤٥]، وقال -عليه السلام- في عمه أبي طالب: «**إنه أخف أهل النار عذابًا، وإنه ليلبس نعلين من نار يغلي منهما دماغه**»[١]. أراد أخف أهل النار من الكفار، وأما من دخل النار من الموحدين فبعضهم أيضًا أشد عذابًا من بعض، وأطول أمدًا فمنهم من يعاقب بالنار، حتى يعود حِمَمًا، ومنهم من تأخذ النار بعضه على ما بيناه في كتاب التذكرة، ثم كل موحد فينفصل من العذاب، وينال من الله جميل المآب ويبقى الكافر الجاحد في العذاب فإن الكافرين ﴿**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾[٢] [الأعراف:٤٠].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٢) في الإيمان، باب: «أهون أهل النار عذابًا» من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-. وهو في الصحيحين بدون ذكر أبي طالب من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٤٨٥).

الشـهيد

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء:٧٩]، عقب قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٩].

وذلك يتضمن أشياء:

منها: تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه فما الظن بغيره.

ومنها: أن حجة الله قد قامت عليهم بإرساله، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوؤهم لم يكن ظالماً لهم في ذلك لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها عليهم، وما فيه مضرتهم وما يجلبها عليهم، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ومنها: أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة على صدقه وأنه رسوله حقاً. فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به لرسالته وهو من شهد له رب السموات والأرض.

ومنها: أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته فشهد له بالرسالة وأخبر أن شهادته كافية.

فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم: إن المصائب من عند الرسول - ﷺ - وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى.

ومنها: إبطال قول الجهمية المجبرة ومن وافقهم في قولهم: إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب.

ومنها: إبطال قول القدرية الذين يقولون: إن أسباب الحسنات والسيئات ليست من الله بل هي من العبد.

ومنها: ذم من لم يتدبر القرآن ولم يفقهه، وأن إعراضه عن تدبره وفقهه يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه.

ومنها: إثبات الأسباب وإبطال قول من ينفيها ولا يرى لها ارتباطاً بمسبباتها.

ومنها: أن الخير كله من الله والشر كله من النفس، فإن الشر هو الذنوب وعقوبتها، والذنوب من النفس وعقوبتها مترتبة عليها، والله هو الذي قدر ذلك وقضاه، كل من عنده قضاء وقدراً وإن كانت نفس العبد سببه، بخلاف الخير والحسنات فإن سببها مجرد فضل الله ومنه وتوفيقه كما تقدم تقريره.

ومنها: أنه سبحانه لما رد قولهم: إن الحسنة من الله والسيئة من رسوله وأبطله، بقوله: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ [النساء:٧٨].

رفع وهم من توهم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة ولا هي منها أصلاً، بقوله: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ [النساء:٧٨].

وخاطبه بهذا تنبيهاً لغيره كما تقدم.

ومنها: أنه قال في الرد عليهم: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ [النساء:٧٨].

ولم يقل: من الله، لما جمع بين الحسنات والسيئات، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه، والسيئة إنما تضاف إليه قضاء وقدراً وخلقاً، وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة، فلهذا قال: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ [النساء:٧٨].

وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة، بل من جهة ما تضمنته من الحكمة والعدل والحمد، وتضاف إلى النفس من جهة كونها سيئة.

ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النساء:٧٩].

ولم يقل: من عند الله، فالخير منه وإنه موجب أسمائه وصفاته، والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه فإنه مخلوق له عدلاً منه وحكمة.

ثم قال: ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ [النساء:٧٩].

ولم يقل: من عندك، لأن النفس طبيعتها ومقتضاها ذلك فهو من نفسها، والجميع من عند الله.

فالسيئة من نفس الإنسان بلا ريب، والحسنة من الله بلا ريب، وكلاهما من عنده سبحانه قضاءً وقدراً وخلقاً.

ففرق بين ما من الله وبين ما من عنده.

والشر لا يضاف إلى الله إرادة ولا محبة ولا فعلاً ولا وصفاً ولا اسماً. فإنه لا يريد

إلا الخير ولا يحب إلا الخير ولا يفعل شراً ولا يوصف به ولا يسمى باسمه[(١)].

حال السابق بالخيرات عند قيامه من نومه:

ولهذا القرب من الإمام تأثير في صلاة الفجر خاصة يعرفه من عرف قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء:٧٨]، قيل: يشهده الله عز وجل وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهده ملائكة الليل والنهار، واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة**» ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر لقول أبي هريرة: «**واقرءوا إن شئتم**» ﴿**وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾ رواه البخاري في الصحيح[(٢)].

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد حدثني زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد الأنصاري عن أبي الدرداء عن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن الله عز وجل ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء**» ثم يقول: «**طوبى لمن دخلك ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول: قومي بعزتي. ثم يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه ألا**

---

(١) شفاء العليل (ص ٢٩٨).

(٢)برقم (٦٤٩) في كتاب الأذان، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة.

داع يدعوني فأجيبه؟ **حتى تكون صلاة الفجر**» ولذلك يقول الله -عز وجل-: ﴿**وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾ يشهده الله عز وجل وملائكته ملائكة الليل والنهار[1] ففي هذا الحديث أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر، وعلى هذا فيكون شهوده سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له، وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلوات، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر ولا سيما وهو معلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه. وفي لفظ: «**حتى يضيء الفجر**» وهذا دليل لفظ «**حتى يسطع الفجر**» وذلك هو وقت قراءة الفجر، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي -ﷺ- وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي -ﷺ- يقرأ فيها بالستين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس، هذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص، مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحا به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدار قطني في كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «**ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح**».

رواه عن محمد جماعة: منهم سليمان بن بلال وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هرون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل كلهم قال: «**أن ينصرف القارئ من صلاة الفجر**» فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي -ﷺ- فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد، وإن لم تكن محفوظة وكانت شك الراوي هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين، ولأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زيادة يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأن تعلقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون في الصعود، كما رواه يونس بن أبي إسحق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري

---

(١) أخرجه ابن جرير كما في «كنز العمال» (٢/٤٤٨٥).

أنهما شهدا على النبي - ﷺ - أنه قال: «**إن الله عز وجل يمهل حتى إذا كان ثلث هبط إلى هذه السماء ثم أمر بأبواب السماء ففتحت ثم قال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه، هل من مستغفر فأغفر له هل من مستغيث أغيثه؟ هل من مضطر أكشف عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا، ثم يصعد إلى السماء**» قال الدار قطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحق زيادة حسنة والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها. والله أعلم[1].

(١) طريق الهجرتين (ص ٣٢٥).

الصادق

نطق به القرآن اسمًا وفعلاً، فقال وقوله الحق: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُون﴾ [الأنعام:١٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ [النساء:٨٧]، و﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر:٧٤]، لم يذكره جماعة من العلماء في كتبهم كالقشيري وابن الحصَّارِ وغيرهما وقد خفي على جماعتهم استخراجه من كتاب الله تعالى حتى قال الزجاجي وهذه الصفة من صفاته سبحانه مستنبطة من سورة مريم من قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً﴾ [مريم:٦١]، أي آتيا مفعول بمعنى فاعل، وإذا كان وعده آتيًا فهو صادق فيه، وكل شيء وعد الله -عز وجل- عباده فهو كائن كما وعدهم لا محالة. وكذلك قال الزجاجي أبو القاسم في كتاب اشتقاق أسماء الله -عز وجل- وصفاته المستنبطة من التنزيل وقال القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب «الأمد» له: إن هذا الاسم لم يرد به القرآن، وجاء في السنة من حديث أبي هريرة من طريق عبد العزيز بن الترجمان، وورد فعلاً فيهما. وقال الأقليشي: لم ترد هذه الصفة عند الترمذي ولا وردت في القرآن بهذه الصيغة، لكن ورد: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ [النساء:٨٧]، قلت: عجبًا لهؤلاء الأئمة مع تبحرهم في كتاب الله تعالى، والبحث عن معانيه وتفسيره، وتلاوته ليلاً ونهارًا كيف غفلوا عن هذا الاسم العظيم حتى يقولوا: إنه لم يرد في القرآن وإنما ورد فعله؟! فكأنهم رحمهم الله لم يقرءوا سورة الأنعام لكن الذهول والنسيان يعتري الإنسان، والكمال إنما هو لذي الجلال.

ويجوز إجراء هذا الوصف منكرًا على العبد من غير خلاف قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة:١٧٧]، ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]، ويقال: صدق الرجل فهو صادق وصدوق للمبالغة. فأما قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، فالألف واللام إنما جاءت للتعريف والتفخيم لأمرهم لكثرة تصديقهم. وأكثرهم تصديقًا الصِّدِّيق -بوزن فعِّيل للمبالغة- سماه رسول الله -ﷺ- بذلك فيما رواه علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- أجمعين، فمن صدق الآيات، وأتم بالدلالات، وأجال فكره في الملكوت، وصدق الله فيما عاهده عليه ووفى فهو صدِّيق. وقد يقال لمن كثر صدقه: صدِّيق أيضًا.

والصدق ضد الكذب. وقد صدق في الحديث، ويقال أيضًا: صدقه الحديث وتصادقا في الحديث والمودة، والمصدق الذي يُصَدِّقُكَ في حديثك والذي يأخذ صدقة الغنم. والصِّديقُ. مثال الفِسِّيق: الدائم الصدق الذي كثر صدقه. ويكون الذي يصدق قوله بالعمل، وصدَّق الله في آياته وشواهده ودلائله وأسمائه وصفاته وأفعاله وحُكمه وكلماته، قال الله تعالى في وصف نبيه: ﴿**يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ**﴾ [الأعراف:١٥٨].

والصادق في وصفه سبحانه صفة ذاتية له راجعة إلى معنى كلامه. إذ الصدق ما تضمنه كلامه، وهو المتكلم به.

وقال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ [آل عمران:١٥٢]، فالله تعالى صادق في قوله، صادق في حديثه، صادق في وعده خاطب عباده فأخبرهم بما يرضيه عنهم ويسخطه عليهم، وبما لهم من الثواب عنده إذا أرضوه، ومن العقاب لديه إذا أسخطوه، فصدقهم ولم يغررهم، ولم يلبس عليهم، قاله الحليمي.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أنه لا أحد أصدق من الله، وأن كل صادق وصدق فمن عنده، ثم يجب عليه الصدق في جميع أقواله وكل أفعاله. قال رسول الله -ﷺ-: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق؛ يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١). درجة رفيعة وحلية سنية جليلة وهو أصل لكل حال، وأُسٌّ لكل مقام.

فكل من صدق وتحقق في صدقه فقد نجا، فعليك بدوام الصدق حتى تكتب صديقًا. والصادقون هم الذين أعطوا المجهود من أنفسهم لربهم فيما بينهم وبينه. وقد مدح من صدقه فيما به أمره فقال: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا**﴾ [الأحزاب:٢٣]، ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**﴾ [البقرة:١٧٧]، ﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ**﴾ [مريم:٥٤]، وذم آخرين فقال: ﴿**فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ**﴾ [محمد:٢١].

وفي الحديث: «**الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»(٢). أي من دام على الصدق أثمر

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧) في البر والصلة، باب: قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٨) في صفة القيامة، باب: رقم (٢٢)، وأحمد في «مسنده» (١/٢٠٠)، من حديث الحسن بن علي -رضي الله عنهما-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٧٨): صحيح.

له طمأنينة في قلبه إلى الحق، وسكونًا عن التردد في الأمر ببركة الصدق. وعكسه الكذب، فإنه يُثمر لمن دام عليه ترددًا في الأمر، واضطرابًا وقلة ثبات حتى لا يستقر على شيء، ولا يثبت على أمر، وهو مع ذلك على خطر لقوله -عليه السلام-: «**إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[(١)][(٢)].

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٤٥٧).

الصبور الشكور

أما الصبر، فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهًا له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين، من حديث الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى عن النبي -ﷺ-، قال: «**ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل، يدعون له ولدًا وهو يعافيهم و يرزقهم**»(١).

وفي أسمائه الحسنى: الصبور، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصابر والصبار. وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق، ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنه عن قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث، ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما. وظهور أثر هذا الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم.

والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره. فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع. ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم، كقوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾(٢)، و﴿**اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾(٣).

وفي أثر أن حملة العرش أربعة اثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

فإن المخلوق يحلم عن جهل، ويعفو عن عجز، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٩٩) في الأدب، باب: الصبر على الأذى، ومسلم (٢٨٠٤) في صفات المنافقين، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله -عز وجل-، من حديث أبي موسى -رضي الله عنه-.

(٢) النساء: ١٧، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠، وغير موضع من القرآن.

(٣) النساء: ٢٦، وغير موضع من القرآن.

اقتدار. ولهذا كان في دعاء الكرب وصف سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليمًا من لوازم ذاته سبحانه.

و أما صبره سبحانه، فمتعلق بكفر العباد، وشركهم، ومسبتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة، بل يصبر على عبده، ويمهله، ويستصلحه، ويرفق به، ويحلم عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضع للضيعة، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم، ومن باب البلاء والنقم - أخذه أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الأعذار إليه، وبذل النصيحة له، ودعائه إليه من كل باب. وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية لا تزول.

وأما الصبر، فإذا زال متعلقه، كان كسائر الأفعال التي توجد وجود الحكمة، وتزول بزوالها. فتأمله، فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعشره، وقل من تنبه له ونبه عليه، وأشكل على كثير منهم هذا الاسم، وقالوا: لم يأت في القرآن. فأعرضوا عن الاشتغال به صفحًا، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه، لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق، كما هو أحق باسم العليم، والرحيم، والقدير، والسميع، والبصير، والحي، وسائر أسمائه الحسنى - من المخلوقين - وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم، كالتفاوت الذي بين حياتهم وحياته، وعلمه وعلمهم، وسمعه وسمعهم، وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله**»[1] . فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء، وملك الملوك، وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم - أمر لا يصبر عليه إلا الصبور، الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

---

(١) صحيح: وقد تقدم قبل قليل.

و إذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه، والفرق بينهما، فتأمل في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [فاطر:٤١]، وقوله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**﴾ [مريم:٨٨-٩١]، وقوله: ﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ**﴾ [إبراهيم:٤٦]، على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم و تستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته. وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى. فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعًا: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**»[1]. وهذا مقتضى الطبيعة، لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

وكذلك حرور الجبال، وتفطير السموات، الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه. فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسبابًا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح - تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها.

وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب، كما غلبت الرحمة الغضب، ولهذا استعاذ النبي - ﷺ - بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات، إذ هما قائمان بها، فقال: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك**

---

(١) لم أجده.

منك»[(١)] ، فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقًا وكونًا، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدها ومدها وبسطها على ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «**أعوذ بك منك**» من محض التوحيد، وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه سبحانه وتعالى به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته من مشيئته، وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذي سبحانه خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبته معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم، أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، وإن مقدار يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطلع منها على ما يكره فيغضبه ذلك، فأول ما يعلم بغضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم، فتسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة،حتى ينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلا يسمع، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمة، فتلك ست ساعات. قال: ثم يؤتى بالأرحام، فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [آل عمران:٦]، ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا**﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠]، فتلك تسع ساعات. ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله: ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾ [الرعد:٢٦].

وقوله: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن:٢٩]، قال: هذا شأنكم وشأن ربكم. رواه أبو القاسم الطبراني في السنة، وعثمان بن سعيد الدرامي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وابن مندة، وابن خزيمة وغيرهم.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله-ذكر أثر ذلك شأن خليله إبراهيم، وأراه من ملكوت السموات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده..ثم ذكر الأنبياء من ذريته، وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة-ثم قال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، فأخبر أنه سبحانه، كما جعل في الأرض من يكفر به، ويجحد توحيده، ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من يؤمن بما كفر به أولئك، ويصدق بما كذبوا به، ويحفظ من حرماته ما أضاعوه.

وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو تبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم. ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به. لا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها.

ولما كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف، واسم الصبور في الأفعال، كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور..والله أعلم.

وأما تسميته سبحانه بالشكور، فهو في حديث أبي هريرة، وفي القرآن تسميته شاكرا، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]، وتسميته أيضا شكور، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢]، فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم، وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه، ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه. وأما شكر الرب تعالى، فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقى له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل،وشكره على هذا وذاك. ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبا له، إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها

متن الريح. ولما ترك الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم. ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن، شكر له ذلك بأن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. ولما بذل الشهداء أبدانهم له مزقها أعداؤه، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم، فنالوا منهم وسبوهم، أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكره سبحانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ومخفف به يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يفعله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه.

ومن شكره: أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلبا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن المسلمين.

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما من أحسن إليه. وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو الحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ [النساء:١٤٧]، كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًا كبيرًا. فشكره سبحانه اقتضى ألا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله.

وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه: أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر.

ومن شكره سبحانه: أن العبد من عباده يقوم مقامًا يرضيه بين الناس، فيشكره له، وينوه بذكره، ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين.. كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوه بذكره بين عباده.. وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه. فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر،كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى: أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها.

ولهذا يبغض الكفور، والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل، والمهين، واللئيم. وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفوٌّ يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها [١].

في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم:

فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب، فإن هذ الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له. وهكذا كما أنه أقبح الصبر، فهو أعظمه وأبلغه، فإنه لا صبر أبلغ من صبر يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، وكما لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد، وكما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده: وما رأيت أزهد منك. فقال أنت الزاهد في الدنيا وهي لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت في الآخرة، فمن أزهد منا؟

---

(١) عدة الصابرين (ص ٣٢٩).

قال يحيى بن معاذ الرازي : صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون وفي هذا قيل:

الصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد

ووقف رجل على الشبلي، فقال صبر أشد صبرًا على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله. قال: لا. فقال: الصبر لله. فقال:لا. قال: فالصبر مع الله. قال: لا. قال:فإيش هو؟ قال الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق.

وقيل: الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. وقد جمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته، ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وقال آخر في الصبر عن محبوبه:

إذا لعب الرجال بكل شيء رأيت الحب يلعب الرجال

وكيف الصبر عمن حل مني بمنزلة اليمين مع الشمال

وشكا آخر إلى محبوبه ما يقاسي منْ حبه فقال:

لو كنت صادقًا لما صبرت عني

ولما شكوت الحب قالت كذبتني ترى الصب عن محبوبه كيف يصبر

وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر الله، وصبر بالله، قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور:٤٨].

وقد تنازع الناس أي الصابرين أكمل، فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له غاية، وما كان فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبررا وتقربًا إلى الله لأنه نذر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين لأنه حلف به. فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته ولذلك توحيد الألوهية هو المنهي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عبَّاد الأصنام كانوا

قرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية. هي عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، وكما قال عالى: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ [النحل:١٢٧]، فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم ال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، فهذه الجملة جملة خبرية غير الجملة الطلبية تي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة بالله المعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي طش، وبي يمشي[1].

وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي. فإن ما يكون بالله لا يكون، وبل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله عالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣، والأنفال:٢٦]، وهي المعية الحاصلة لعبده ذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوبًا له، فبه يسمع ويبصر، وكذلك به يبصر، فلا حرك، ولا يسكن، ولا يدرك إلا والله معه. من كان كذلك، أمكنه الصبر له، وتحمل أثقال لأجله، وكما في الأثر الإلهي: وما يتحمل المتحملون من أجلي .

فدل قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، وعلى أنه من يكن الله معه لم مكنه الصبر، وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذًا وتبليغًا، وعلى الحكم قدري احتمالاً له واضطلاعًا به، من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع في درجة الصبر محمود عواقبه. ومن لم يكن صبره بالله، وكما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب ن لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشية بالله. وهذا المراد من قوله: كنت سمعه الذي سمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ليس مراد اني كنت نفسي هذه الأعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة، وإن ذات عبد هي ذات الرب تعالى الله عن قول إخوان النصارى علوًا كبيرًا.

ولو كان كما يظنون لم يكن الفرق بين هذا العبد وغيره. ولا بين حالتي تقربه إلى به بالنوافل وتمقته إليه بالمعاصي، وبل لم يكن هناك مقترب ومتقرب إليه، ولا عبد ولا

---

١) صحيح وقد تقدم وهو بالمعنى هنا.

معبود، ولا محب ولا محبوب. فالحديث كله كذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهًا تعرف التأمل الظاهر. وقد فسر المراد من قوله: «**كنت سمعه وبصره ويده ورجله**»[1] بقوله: بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، فعبر عن هذه المصاحبة التي حصلت بالتقرب إليه بمحابة بألطف عبارة وأحسنها تدل على المصاحبة ولزومها، وحتى صار منزلة سمعه وبصره ويده ورجله[1].

ونظير هذا قوله: «**الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبله، فكأنما صافح الله وقبل يمينه**»[2].

ومثل هذا سائغ الاستعمال أن ينزل إلى منزلة ما يصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبوب وأنت روحي وسمعي وبصري. وذلك معنيان:

أحدهما: أنه صار منه منزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره.

والثاني: أن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه، وكما الحديث: يقول الله تعالى: «**أنا جليس من ذكرني**»[3]. وفي الحديث الآخر: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[4]. وفي الحديث: «**فإذا أحببت عبدي كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدا**»[5]. ولا يعتبر عن هذا المعنى بأتم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها وإيضاح هذه العبارة مما يزيدها جفاء وخفاء.

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله، وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره. وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي الصبر بما يأتي من غيره. قال أبو علي: فاز

---

(١) صحيح: وقد تقدم، وهو لفظ الحديث السابق.

(٢) ضعيف: أخرجه الخطيب في التاريخ، وابن عساكر عن جابر بنحوه، كما في «ضعيف الجامع» (٢٧٧٢).

(٣) ضعيف: أخرجه ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن جابر -رضي الله عنه-، بسند ضعيف، كما في «كنز العمال» (١/١٨٦٥).

(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) في الأدب، باب: فضل الذكر، وأحمد في «مسنده» (٢/٥٤٠)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٦): صحيح.

(٥) صحيح: وقد تقدم.

الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣، الأنفال:٤٦].

وههنا سر بديع، وهو أن تعلق من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر منه على أذى سمعه منه.

وقد قيل: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود: تخلق بأخلاقي فإن من أخلاقي إني أنا الصبور . والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحب أهل العفو.، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب أهل الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب من المؤمن الضعيف، صبور يحب الصابرين، شكور يحب الشاكرين. وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته، فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله: كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا.

وزاد بعضهم البعض قسمًا ثالثا من أقسام الصبر، وهو البر مع الله، وجعلوه أعلى أنواع الصبر. وقالوا: هو الوفاء . لو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسر بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت: وهي الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره، والصبر على نواهيه. فإنه رغم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه، يدور معها حيث د ارت، فيكون دائمًا مع الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة والموافقة – فهذا المعنى حق، ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة. وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر – فهذا حق، ولكن جعله قسمًا رابعًا من أقسام الصبر غير مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله، وثبات القلب بالاستقامة معه، وهو لا يروغ عنه روغان الثعالب هنا وهناك. فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه، وعكوف القلب عليه.

وزاد بعضهم قسمًا آخر من أقسامه، وسماه البصير فيه. وهذا أيضًا غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له. وكما يقال فعلت هذا في الله وله، كما قال خبيب :

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ [الحج:٧٨]، وفي حديث جابر: «**إن الله تعالى لما أحيا أباه وقال له: تمن. قال: يا رب ترجعني إلى الدنيا حتى أقتل فيك مرة ثانية**»(١). وقال النبي: «**ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد**»(٢).

وهذا يفهم منعه معنيان:

أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، وكما الحديث: «**تعلمت فيك العلم**»(٣).

والثاني: أنه بسببه وبجهته حصل على ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم: ذلك في الله في هذا المعنى.

فتأمل قوله -ﷺ-: «**ولقد أوذيت في الله**»، وقول خبيب : وذلك في ذات الإله، وقول عبد الله بن حزام(٤): حتى أقتل فيك، وكذلك قوله: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه.

وليست في هنا للظرفية، ولا لمجرد السببية، وإن كانت السببية هي أصلها، فانظر إلى قوله في نفس المؤمن مائة من الإبل(٥)، وقوله: دخلت امرأة النار في هرة(٦)، كيف

---

(١) لم أقف عليه من حديث جابر.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٧٢) في صفة القيامة، باب: (١٥)، وابن ماجه (١٥١) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله -ﷺ-، وأحمد في «مسنده» (٣/١٢٠، ٢٨٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٠) من حديث أنس -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٢٥): صحيح.

(٣) لعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) هو والد جابر، صاحب الحديث السابق.

(٥) حسن: وهو يشير إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٥٤٧) في الديات، باب: في دية الخطأ شبه العمد، و(٤٥٨٨) باب: دية الخطأ شبه العمد، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- عنهما، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» حسن، ا.هـ، وفي الباب عن غيره.

(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣٦٥) في المساقاة، باب: فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٢) في السلام، باب: تحريم قتل الهرة، وفي البر والصلة، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

تجد فيه معنى زائد على السببية، وليس في للوعاء في جميع معانيها فقولك: فعلته لمرضاتك فيه معنى زيد على قولك: فعلت لمرضاتك وأنت إذا قلت: أوذيت في الله لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك: أوذيت لله ولا: بسبب الله . وإذا فهم المعنى طوى حكم العبارة.

والمقصود أن الصبر في الله إن أريد به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خارج عن الصبر في الله كالمجاهد في الله، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله، والله الموفق.

وأما قول بعضهم: (الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر في الله بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء) فكلام لا يجب التسليم لقائله، لأنه ذكر ما سنح له وتصوره، وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم، ونحن نشرح هذه الكلمات.

أما قوله: (الصبر لله غناء)، فإن الصبر بترك حظوظ النفس، ومرادها لمراد الله، وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه، فانقطعت المفازة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديدًا على النفس، بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه من سهل، وكما قال الجنيد : السير في الدنيا إلى الآخرة سهل، يعني على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد.

وأما قوله: (الصبر بالله بقاء)، فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء، ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلاً، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا نفسه، كان قلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق. وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيمًا وقرة العين وكما قال بعض الزهاد: عالجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة. ومن كان له قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

وأما قوله: (الصبر في الله بلاء)، فالبلاء فوق الغناء، والصبر فوق الصبر له أخص منه وكما تقدم، فإن الصبر فيه منزلة الجهاد فيه، وهو أشق من الجهاد له. فلكل مجاهد في الله وصابر في الله، ومجاهد له وصابر، ومن غير عكس، فإن الرجل قد يجاهد ويصبر

لله مرة ليقع عليه اسم من فعل ذلك لله، ولا يقع عليه اسم فعل ذلك في الله، وإنما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر دخل الجنة.

وأما قوله: (الصبر مع الله وفاء)، فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، ولا يزيغ القلب عن الإنابة، ولا الجوارح عن الطاعة، فتعطي المعية حقها من التوفية، وكما قال تعالى: ﴿**إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم:٣٧]، أي وفيما أمر به بصبره مع الله على أوامره.

أما قوله: الصبر عن الله جفاء، فلا جفاء أعظم من صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذي لا مولى له سواه، ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته، والقرب منه، وإيثار مرضاته على شيء، فأي جفاء أعظم من الصبر عنه؟! وهذا معنى قول من قال: الصبر على ضد بين صبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا كما قيل:

يبين يوم البين أن اعتزامه … على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وقال الآخر:

ولما دعوت الصبر بعدك البكا … أجاب البكا طوعًا ولم يجب الصبر

وقالوا: يدل عليه يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف:١٨]، ورسول الله إذا وعد وفى. ثم حمله الوجد على يوسف والشوق إليه أن قال: ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ [يوسف:٨٤]، فلم يكن عدم صبره عنه منافيًا لقوله: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ فإن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه قد قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف:٨٦]، والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل، وقد امتثل ما أمر به، وقال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي**»[1] .. الحديث.

وأما قوله قول بعضهم إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري من هو، فهذا من الصبر الجميل، لأن من فقده فقد الصبر الجميل. فإن ظهور أثر المصيبة على العبد ما لا يمكن دفعه البتة.. وبالله التوفيق.

---

(١) ضعيف: وقد تقدم.

وزاد بعضهم في الصبر قسمًا آخر، وسماه الصبر على الصبر، وقال: وهو أن يستغرق في الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر، وكما قيل:

صابرا الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبرا

وليس هذا خارجا عن أقسام الصبر، وإنما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه... والله أعلم [1].

في بيان تنازع الناس في أيهما أفضل الصبر أم الشكر:

حكى أبو الفرج ابن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصبر أفضل.

والثاني: أن الشكر أفضل.

والثالث: أنهما سواء، كما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «**لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت**».

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة، وما لها وعليها في احتجاجها، بعون الله وتوفيقه.

قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله، ومدحه، وأمر به، وعلق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعًا. وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه، وفي فضله، ما يدل على أنه أفضل من الشكر.

ويكفي في فضله قوله - صلى الله عليه وسلم - : «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**» [2]، فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه. وهذا كقوله: «**مدمن الخمر كعابد وثن**» [3]، ونظائر ذلك.

---

(١) عدة الصابرين (ص ٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٨٦) في صفة القيامة، باب: رقم (١٥)، وابن ماجه (١٧٦٤) في الصيام، باب: فيمن قال الطاعم الشكر، كالصائم الصابر، وأحمد في «مسنده» (٢/٢٨٣، ٢٨٩)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٤٢): صحيح.

(٣) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥) في الشربة، باب: مدمن الخمر، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-،

قالوا: وإذا وازنا بين النصوص الواردة في الصبر الواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها. ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما في سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد.

وقالوا أيضًا: فالصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألة من مسائل الدين، ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وقالوا: أيضًا، فالله سبحانه وتعالى علق على الشكر الزيادة فقال: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم:٧]، وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب.

وأيضًا فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين، فقال: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:٩٦].

قالوا:- وقد صح عن النبي -ﷺ- أنه قال: يقول الله تعالى: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به**»(١). وفي لفظ: كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما في الحديث نفسه: «**يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي**» .. ولهذا قال النبي -ﷺ- لمن سأله عن أفضل الأعمال: «**عليك بالصوم، فإنه لا عدل له**»(٢).

ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم، فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع، فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ [البقرة: ٤٥]، أنه الصوم. وسمى رمضان شهر الصبر.

وقال الألباني: في «صحيح سنن ابن ماجه»: حسن.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٠٤) في الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم، ومسلم (١١٥١) في الصيام، باب: فضل الصيام، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (١٦٥/٤) في الصيام، باب: ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصائم، من حديث أبي أمامة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن النسائي»: صحيح.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر. وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب. ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين.

وقد أشار إلى ذلك النبي -ﷺ- في الحديث الصحيح، وهو قوله: «**إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يجهل، ولا يصخب. فإن أحدٌ سابه أو شاتمه، فليقل: إني صائم**»(١)، فأرشد -ﷺ- إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»(٢).

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [المؤمنون:١١١]، فجعل فوزهم جزاء صبرهم.

وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٤٩، والأنفال:٦٦]، لاشيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله. وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور:٤٨]، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة:١٥٧]، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل، وقد تقدم ذكر ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٩٤) في الصوم، باب: فضل الصوم، ومسلم (١١٥١) في الصيام، باب: حفظ اللسان للصائم، وفي باب: فضل الصيام، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٠٣) في الصوم، باب: من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

قالوا: وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن أفضل من الاستكثار منها، والزهد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر، قالوا: وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه، وأخذ الآخر وأنفقه في طاعة الله تعالى، أيهما أفضل؟ فقال: الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبي -ﷺ- عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها. وقال: «**بل أجوع يومًا وأشبع يوما**»[1]، ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

قالوا: وقد علم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله.

وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته، وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء.

فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة، وأجل المقاصد معرفة الله ومعرفة الله ومحبته والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره.

وتأمل تولية النبي -ﷺ- لعمرو بن العاص و خالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله، وترك تولية أبي ذر، بل قال له: «**إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تؤمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**»[2]، وأمره وغيره بالصيام، وقال: «**عليك بالصوم، فإنه لا عدل له**»[3]، وأمر آخر بألا يغضب، وأمر ثالثًا بألا يزال لسانه رطبًا من ذكر الله. ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابل له، قد هيئ له، فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه، كما قيل:

ما زال يسبق حتى قال حاسده ... هذا طريق إلى العلياء مختصر

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٣٤٧) في الزهد، باب: ما جاء في الكفاف والصبر، من حديث أبي أمامة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «ضعيف الجامع»: ضعيف جدًا.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٢٦) في الإمارة، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلاً، إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه. فالشح المطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها. وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس، لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده.

ولو قيل أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: أن هذا في موضعه أفضل، وهذا في موضعه أفضل.

وإذا عرفت هذه القاعدة، فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه، فتهيَّأ لمعرفة الله ومحبته. فهو دواء للداء الذي في القلب يمنعه من المقصود.

وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً، فقالوا: فإن قيل: فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه، بأن قالوا الطبيب: إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به.

ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبًا، فوقع الحث على العمل المقصود، وهو شفاء القلب. فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عرف هذا أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة، وحال الشاكر المتداوي بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم، وفضلتم مقامًا غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا قيمتموه مرتبته، وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من خلقه بذكره، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما، ووسيلة إليهما، وعونًا عليهما، قال تعالى: ﴿**اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة:١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض لـه فـي عـذاب خلقـه إن شـكروا وآمنوا به، فقال: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ**﴾ [النساء:١٤٧]، أي أن وفيتم ما خلقتم له، وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم؟!

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام:٥٣].

وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان:٤].

وقال نبيه سليمان : ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل:٤٠].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ [إبراهيم:٧].

وقال تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر:٧].

وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، قال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٤]، والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم. وعلق سبحانه بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿**فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ**﴾ [التوبة:٢٨]، وقوله في الإجابة: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ [الأنعام:٤١]، وقوله في الرزق: ﴿**يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿**يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [آل عمران:١٢٩]، والتوبة: ﴿**وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ**﴾ [التوبة:١٥]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذكر، كقوله: ﴿**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٥]، ﴿**وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٤].

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، أنه من أجل المقامات وأغلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وذكر الإمام أحمد، عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القلين. فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، وقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، فقال عمر : صدقت[1].

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، وفي تخصيص نوح هنا بالذكر، وخطاب العباد بأنهم ذريته، وإشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر، فإنه كان عبدًا شكورًا.

وقد أخبر سبحانه، إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وأول وصية وصى بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]. وأخبر أن رضاه في شكره، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]. وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ

---

(١) لم أجده.

حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر عنه سبحانه بشأنه أمة، أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانت لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله، المعرض عمن سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها: **﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [النحل:٧٨]، فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: **﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [آل عمران:١٢٣].

ويجوز أن يكون قوله: **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** تعليلاً لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا. وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر. وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾** [البقرة:١٥٢].

قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي -ﷺ- : «**إنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وثبت في المسند والترمذي: أن النبي -ﷺ- قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٣٠) في الجمعة، باب: قيام النبي -ﷺ- حتى ترم قدماه، ومسلم (٢٨١٩) في صفات المنافقين، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد، من حديث المغيرة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥٢٢) في الصلاة، باب: في الاستغفار، والنسائي(٣/٥٣) في =

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن اسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة، قال: كان من دعاء النبي -ﷺ- : «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١) .

قال: وحدثنا محمود بن غيلان، حدثنا المؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا حميد الطويل، عن طلق بن حبيب، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن رسول الله -ﷺ- قال: «**أربع من أعيطهن، فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه خونًا في نفسها ولا في ماله**»(٢) .

وذكر، أيضًا، من حديث القاسم بن محمد، عن عائشة، عن النبي -ﷺ- قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من عند الله، إلا كتب الله له شكرها. وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار، فيلبسه، فيحمد الله، فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له**»(٣) .

وقد ثبت في صحيح مسلم، عنه -ﷺ- أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها. ويشرب الشربة فيحمده عليها**»(٤) فكان هذا الجزاء العظيم، الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [آل عمران:١٥]، في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي، عن أبيه، قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**لا يرزق الله عبدًا الشكر فيحرمه الزيادة**»، لأن الله تعالى يقول: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم:٧].

السهو، باب: نوع آخر من الدعاء، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح، وهو ليس عند الترمذي ، كما قال المصنف -رحمه الله-.

(١) ضعيف: مرسل، فهشام هذا تابعي.

(٢) ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، كما في «ضعيف الجامع» (٧٥٦).

(٣) موضوع: أخرجه الحاكم (٢٨٢/٤) وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥١١٠): موضوع.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٤) في الذكر والدعاء، باب: استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال الحسن البصري : إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النعم الموجودة، الجالب، لأنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: أنه قال لرجل من همذان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال عمر بن عبد العزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله.

وكان يقول: الشكر قيد النعم.

وقال مطرف بن عبد الله : لئن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر.

وقال الحسن: فأكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر. وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه، فقال: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى:١١]، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعدي : سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود -عليه الصلاة السلام- قال: الحمد لله حمدًا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه يا داود أتعبت الملائكة .

وقال شعبة : حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاري، قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال إن رسول الله - ﷺ - قال: «**إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(١) .

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عن النبي - ﷺ - قال: «**كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

---

(١) صحيح: وقد تقدم، وانظر ما بعده.

(٢) حسن: أخرج طرفه الأول النسائي (٧٩/٥) في الزكاة، باب: الاحتيال في الصدقة، وابن ماجه (٣٦٠٥) في اللباس، باب: البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، وبتمامه عند أحمد في «مسنده» (١٨١/٢، ١٨٢)، والحاكم في «مستدركه» (١٥٠/٤)، وقال الألباني في «صحيح =

وذكر شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: «**أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا قشف الهيئة، فقال: هل لك من مال؟ قال: قلت نعم. قال: من أي مال؟ قلت: من كل المال، قد آتاني الله من الإبل والخيل والغنم، قال: فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك**»[١]. وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه**».

وروي عبد الله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله رفعه: «**من أعطي خيرًا فرؤي عليه سمي حبيب الله محدثًا بنعمة الله، ومن أعطي خيرًا ولم عليه سمى بغيض الله ماديًا لنعمة الله**».

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[إبراهيم:٧]، وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها.

وقد قال تعالى: «**يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي، وأنت تتقلب في معصيتي، فاحذرني لأصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت**».

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله.

وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها.

وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادرًا على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادرًا على أن يبعث نعمته عليهم عذابًا.

وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه، قال الحسن: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ [العاديات:٦]، يعد المصائب وينسى النعم، وقد أخبر النبي - ﷺ - أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب.

قال: «**لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»[٢]. فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله.

سنن النسائي»: حسن.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩) في الإيمان، باب: كفران العشير، وكفر بعد كفر، ومسلم =

يا أيها الظالم في فعله الظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبي الدنيا، من حديث أبي الرحمن السلمي، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر. ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة. والفرقة عذاب**».

وقال مطرف بن عبد الله نظرت في العافية والشكر، فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة. ولئن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر.

ورأى بكر بن عبد الله المزني حمالاً عليه وهو يقول: الحمد لله أستغفر الله، قال فانتظرته حتى وضع ما على ظهره، وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيرًا كثيرًا، أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب، فأحمد الله على نعمه السابغة، وأستغفره لذنوبي. فقلت: الحمال أفقه من بكر.

وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، قال: «**خرج رسول الله -ﷺ- على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا. فقال: قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن ردًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**» ، قالوا: «**لا شيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**»[(١)]

وقال مشعر : لما قيل لآل داود: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا**﴾ [سبأ:١٣]، لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍ.

وقال عون بن عبد الله : قال بعض الفقهاء: إني أتيت في أمري، لم أر خيرًا لا شر معه إلا المعافاة والشكر، فرب شاكر في بلائه، ورب معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعًا.

---

(٨٨٤) في أول كتاب العيدين، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٢٩١) في التفسير، باب: ومن سورة الرحمن، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: حسن.

وقال أبو معاوية: لبس عمر بن الخطاب قميصًا، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي. ثم مد يديه، فنظر شيئًا يزيد على يديه، فقطعه، فأنشأ يحدث، قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**من لبس ثوبًا (أحسبه جديدًا) فقال حين يبلغ ترقوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكينًا - لم يزل في جوار الله، وفي ذمة الله، وفي كنف الله، حيًا وميتًا، وما بقي من ذلك الثوب سلك**»(١).

وقال عون بن عبد الله : لبس رجل قميصًا جديدًا، فحمد الله، فغفر له. فقال رجل: ارجع حتى أشتري قميصًا فألبسه وأحمد الله.

وقال شريح ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله فيها ثلاث نعم، ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرًا وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثني بها. وقال روح بن القاسم تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره فقال الحسن : هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله -عز وجل-: «**ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلي منك بعمل قبيح**».

قال ابن أبي الدنيا حدثني أبو علي، قال: كنت أسمع جارًا لي يقول في الليل: يا إلهي خيرك علي نازل وشري إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك مني بعمل قبيح، وأنت مع غناك عني تتحبب إلي بالنعم، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقت إليك بالمعاصي، وأنت في ذلك تخبرني وتسترني وترزقني.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ قال أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون.

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤/٢١٤).

وقال عبد الله بن ثعلبة : إلهي من كرمك أنك تطاع ولا تعصى، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى، وأي زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد.

وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوبًا جديدًا قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال أنس بن مالك : ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعبر رزقه، فجعله في أيدي بني آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه.

فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر، وإن أبه وجد الغني الحميد عبادًا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له.

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، ولا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي.

وروى ابن أبي الدنيا : عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام : أن موسى -عليه السلام- قال: «**يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكري**».

وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: «**دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي** -صلى الله عليه وسلم-، **فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه، قال: الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب وكسى من العري، وهدى من الضلالة، وبص من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله رب العالمين**»[1].

وفي مسند الحسن بن الصلاح، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول: ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت**».

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥/٤٠٨٥٠) ونسبه للنسائي وابن ماجه وابن السني والحاكم وابن مردويه، والبيهقي، قلت: الذي عند ابن ماجه (٣٢٨٣) مختصرًا عن هذا، وعن أبي سعيد، وليس أبي هريرة.

ويذكر عن عائشة -رضي الله عنها-: أن النبي -ﷺ- دخل عليها، فرأى كسرة ملقاة فمسحها، وقال: «**يا عائشة أحسني جوار نعم الله، فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم**». ذكره ابن أبي الدنيا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا صالح، عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد، قال: قرأت في مسألة داود أنه قال: «**يا رب كيف لي أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك؟ قال فأتاه الوحي: يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يا رب. قال: فإني أرضي بذلك منك شكرًا**».

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز، قال: كان من دعاء داود: «**سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثني الأعمش، عن المنهال، عن عبد الله ابن الحارث، قال: أوحي الله إلى داود: «**أحبني، وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي. قال: يا رب هذا حبك وحب عبادتك. فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن، فجل جلال ربنا، وتبارك اسمه، وتعالى جده، وتقدست أسماؤه، وجل ثناؤه، ولا إله غيره**»(١).

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بن عمران، قال: سمعت وهبًا يقول: وجدت في كتاب آل داود: «**بعزتي إن من اعتصم بي، فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجًا. ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكله إلى نفسه. كفى بي لعبدي مالاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبته قبل أن يدعوني، وأني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه**».

وقال أحمد: حدثنا يسار، حدثنا حفص، حدثنا ثابت، قال: كان داود -عليه السلام- قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها. قال: فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ:١٣].

---

(١) أخرجه البيهقي، وابن عساكر، عن ابن عباس، كما في «كنز العمال» (١٥/٤٣٤٦٧).

قال أحمد وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة.

قال داود: «**يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرًا لك مني؟**

فأوحى الله إليه: نعم، الضفدع».

وأنزل الله عليه: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾.

قال: «**يا رب، كيف أطيق شكرك، وأنت الذي تنعم علي، ثم ترزقني على النعمة الشكر، ثم تزيدني نعمى بعد نعمة، فالنعم منك، والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟**

قال: الآن عرفتني يا داود».

قال أحمد : حدثنا عبد الربيع بن صبيح، عن الحسن، قال نبي الله داود : «**إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة**».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني، عن أبي الخلد، قال: قال موسى: يا رب كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله؟ قال: فأتاه الوحي: يا موسى الآن شكرتني.

قال بكر بن عبد الله ما قال عبد قط الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله الحمد لله فجزاه تلك النعمة أن يقول الحمد لله فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله.

وقال الحسن : سمع نبي الله رجلاً يقول: الحمد لله بالإسلام، فقال: «**إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة**» .

وقال خالد بن معدان : سمعت عبد الملك بن مروان يقول ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام.

وقال سليمان التيمي إن الله سبحانه أنعم على عباده على قدرهم، وكلفهم الشكر على قدرتهم.

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، اللهم ربنا لك الحمد، بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كبت عدونا وبسطت رزقنا،وأظهرت أتمنا، وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، لك

الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت، أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وقال الحسن: قال موسى: «**يا رب، كيف يستطيع آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه، خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى، علم أن ذلك مني فحمدت عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه**»[1].

وقال سعد بن مسعود الثقفي: إنما سمي نوح عبدًا شكورًا لأنه لم يلبس جديدًا ولم يأكل طعامًا إلا حمد الله

وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

وقال مخلد بن الحسين: كان يقال: الشكر ترك المعاصي.

وقال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية.

وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله.

وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث، عن أبي بردة، قال: قدمت المدينة، فلقيت عبدالله ابن سلام، فقال لي: ألا تدخل بيتًا دخله النبي - ﷺ - ونطعمك سويقًا وتمرًا؟ ثم قال: «**إن الله إذا جمع الناس غدا ذكرهم بما أنعم عليهم.**

فيقول العبد: ما آية ذلك؟

فيقول: آية ذلك أنك كنت في كربة كذا قد دعوتني فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتني فصحبتك. قال: يذكّره حتى يذّكر.

فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة ابنة فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم.. يقف عبده بين يديه، فيعدد عليه نعمه، فبكى، ثم بكى ثم قال: إني لأرجو الله ألا يقعد عبدًا بين يديه فيعذبه».

(١) مرسل: فالحسن، هو البصري، تابعي مشهور.

وروى ليث بن أبي سليم، عن عثمان، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك، قال رسول الله -ﷺ- : «**يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمة: خذي حقك من حسناته، فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها**».

وقال بكر بن عبد الله المزني : ينزل بالعبد الأمر، فيدعو الله فيصرف عنه، فيأتيه الشيطان، فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما يذهب تذهب إليه. قال أو لا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله صرفه عني.

وذكر ابن ابي الدنيا، عن صدقة بن يسار، قال: بينما داود -عليه السلام- في محرابه، إذ مرت به ذرة، فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها، وقال: ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود، أتعجبك نفسك، فوالذي نفسي بيده لأنا على ما آتاني الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله .

وقال أيوب : إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونًا على ما جاء به النبي -ﷺ- .

وقال سفيان الثوري : كان يقال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

وقال زازان : مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته ألا يتوصل بها إلى معصية.

قال ابن أبي الدنيا : أنشدني محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة   على له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله   وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها   وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة   تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وقد روى الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**قال الله عز وجل: إن المؤمن عندي بمنزلة كل خير، يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه**».

ومر محمد بن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك.

وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية : إني لأرجو ألا يهلك عبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه.

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة: أما بعد فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها. فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أوركبت من ذنب، أو قصرت من حق.

ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء. فذلك الذي أبكاني.

وقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- : «**إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه**»(١). قال عبد الله بن المبارك: أخبرني يحيى بن عبد الله، قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة فذكره.

وقال ابن المبارك : حدثنا يزيد بن إبراهيم، عن الحسن، قال: قال أبو الدرداء : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه.

قال ابن المبارك : أخبرنا مالك بن أنس، عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس -رضي الله عنه-، قال: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سلم على رجل، فرد -عليه السلام-، فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال: هذا الذي أردت منك.

قال ابن المبارك وأخبرنا مسعود، عن علقمة بن مرقد، عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، قال: لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان:٢٠]، قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة : ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

---

(١) لم أجده.

وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد: أصبحتم زهرًا وأصبح الناس غبرًا، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون، فبكى وأبكاهم.

وقال عبد الله بن قرط الأزدي -وكان من الصحابة- على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يا لها من نعمة ما أشبعها، ومن كرامة ما أظهرها، ما زال عن قوم شيىء أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعمة بشكر المُنْعَم عليه للمنعم.

وقال سلمان الفارسي -رضي الله عنه-: إن رجلاً بسط له من الدنيا، فانتزع ما في يديه، فجعل يحمد الله ويثني عليه، حتى لم يكن له فراش إلا بارية. قال: فجعل يحمد الله ويثني عليه، وبسط لآخر من الدنيا، فقال لصاحب البارية: أرأيتك أنت على ما نحمد الله؟ قال: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد، يشكو ضيق حاله، فقال له يونس : أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال فبيدك مائة ألف؟ قال: لا.

قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا؟ قال فذكره نعم الله عليه، فقال يونس : أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة.

وكان أبو الدرداء يقول: الصحة الملك.

وقال جعفر بن محمد -رضي الله عنه-: فقد أبي بغلة له، فقال: إن ردها الله لأحمدنه وضم إليه ثيابه ورفع رأسه إلى السماء ثم قال: الحمد الله لم يزد عليها، فقيل له في ذلك، فقال: هل تركت وأبقيت شيئًا جعلت الحمد كله لله.

وروى ابن أبي الدنيا، من حديث سعد بن إسحاق بن معد بن عجرة، عن أبيه، عن جده، قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثًا من الأنصار، وقال: «**إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على في ذلك شكرا**»، قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال بعض أصحابه سمعناك تقول: «**إن سلمهم الله وغنمهم فإن الله على في ذلك شكرًا، قال قد فعلت، اللهم لك الحمد شكرًا ولك المن فضلاً**».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبي حازم : يا أبا حازم، ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير، وما صنعت إليهم خيرًا قط؟

فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره، وقرأ أبو عبدالرحمن : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم:٩٦].

وقال علي بن الجعد : حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، حدثني من أصدقه: أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- كان يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها كريم.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ، قال ابن أبي الدنيا : وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله، ثم قال: وقال بعض أهل العلم: إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره، فكان الحمد له أفضل.

قلت: لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة، فإن قوله الحمد الله نعمة من نعم الله، والنعمة التي حمد الله عليها أيضًا نعمة من نعم الله، وبعض النعم أجل من بعض، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها.. والله أعلم.

وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله، وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله، وفعل العبد هو مفعول الله، وريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما روي عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا، فإن أكن فيما رضي الله لنبيه وأحب له أحب إلي من أن أكون فيما كره له وسخطه.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض العلماء أنه قال: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما وُري عنه من شهوات الدنيا، كما يحمد على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه الله،

والحساب يأتي عليه، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به، فيشغل قلبه ويتعب جوارحه، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدث عن ابن أبي الحواري قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذكران النعم، فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا في كذا وكذا، أنعم الله علينا في كذا فعل بنا كذا.

وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان في قوله: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٢]، قال يسبغ عليهم النعم، ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة. وسئل ثابت البناني عن الاستدراج، فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين.

وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها، ثم شكر الله بما أعطاه، أعطاه أشرف منها. وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجًا.

وقال أبو حازم: نعمة الله فيما روي عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا، وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية. وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث، عن هقل، عن الأوزاعي، أنه وعظهم، فقال في موعظته: أيها الناس تقرون بهذه النعم التي أصبحتم فيها، على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمد أجسامًا وأعظم آثارًا، فقطعوا الجبال، وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مددهم، وعفت آثارهم، وأخوت منازلهم، وأنست ذكرهم، فما تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم ركزًا. كانوا يلهون آمنين، لبيات قوم غافلين، أو لصباح قوم نادمين. ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتها بياتًا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في دارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثارهم نقمة، وزوال نعمة، ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى. وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، وزمان قد

ولى عفوه وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حمأة شر، وصبابة كدر، وأهاويل عبر، وعقوبات غِيَر، وإرسال فتن، وتتابع زلازل، ورذلة خلف. بهم ظهر الفساد في البر والبحر. ولا تكونوا أشباهًا لمن خدعه الأمل، وغره طول الأجل، وتبلغ بطول الأماني، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه .

وكان يقال: الشكر ترك المعصية.

وقال ابن المبارك: قال سفيان: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

وكان مروان بن الحكم إذ ذكر الإسلام قال: بنعمة ربي وصلت إليه لا بما قدمت يدي ولا بإرادتي إن كنت خاطئًا.

وكم من مدخل لو مت فيه ... لكنت فيه نكالاً في العشيره
وقيت السوء والمكروه فيه ... وظفرت بنعمة منه كبيره
وكم من نعمة الله تمسى ... وتصبح في العيان وفي السريره

ودعي عثمان بن عفان -رضي الله عنه- إلى قوم على ريبة، فانطلق ليأخذهم، فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة شكرًا لله ألا يكون جرى على يديه خزي ملم.

قال يزيد بن هارون: أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحًا -صلى الله عليه وسلم- كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد الله الذي أذاقني لذته، وأبقى منفعته في جسدي، وأذهب عني أذاه، فأمسى عبدًا شكورًا.

وقال ابن أبي الدنيا: «**حدثني العباس بن جعفر، عن الحارث بن شبل، قال: حدثتنا أم النعام: أن عائشة حدثتها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- : أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله**» .

وقال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيت بهما شرًا سترته. قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرًا وعيته، وإن سمعت بهما شرًا دفعته. قال فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًا لله هو فيهما. قال فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه علمًا. قال فما شكر الفرج؟ قال: قال الله: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ**

العَادُونَ ﴾ [المؤمنون:٥-٧]، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن علمت ميتًا تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر الله.

وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وذكر عبد الله بن المبارك: أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم، إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه -ﷺ-، وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان، وقتل فلان وفلان. التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك، كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة.

فقال له جعفر: ما بالك جالسًا على التراب، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى -ﷺ- أن حقًا على عباد الله أن يحدثوا الله تواضعًا عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع .

وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى الله عبدًا ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألا يكون أشد منه .

وقال عبد الملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال سفيان الثوري: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها .

وكان رسول الله -ﷺ- إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجدًا شكرًا له عز وجل.ذكره أحمد.

وقال عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه-: «**خرج علينا النبي -ﷺ-، فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدًا، فأطال السجود، فقلت يا رسول الله، سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكرًا**»[1] . ذكره أحمد.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩١/١)

وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: خرجنا مع النبي -ﷺ- من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريبًا من عزورا[١]، نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة، ثم خر ساجدًا فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعة، ثم خر ساجدًا فعله ثلاثًا وقال: «**إني سألت ربي وشفعت لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدًا شكرًا لربي، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدًا لربي**»[٢]. رواه أبو داود.

وذكر محمد بن إسحاق في كتاب: الفتوح قال: لما جاء المبشر يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه رسول الله -ﷺ- ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له، فخر رسول الله -ﷺ- ساجدًا.

وذكر سعيد بن منصور: أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- سجد حين جاءه قتل مسيلمة

وذكر أحمد: أن عليًا -رضي الله عنه- سجد حين وجد ذات الثدية في الخوارج.

وسجد كعب بن مالك في عهد النبي -ﷺ- لما بشر بتوبة الله عليه والقصة في الصحيحين.

فإن قيل: فنعم الله دائمًا مستمرة على العبد، فما الذي اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة، وقد تكون المستدامة أعظم.

قيل الجواب من وجوه:

أحدها: أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة، والإنسان موكل بالأدنى.

الثاني: أن هذه النعمة المتجددة تستدعي عبودية مجددة، وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكرًا له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع في النفوس، والقلوب بها أعلق، ولهذا يعنى بها ويعزى بفقدها.

الرابعة: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيرًا ما يجر ذلك إلى الأَشَر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع؟ فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها، فكان جديرًا بدوام تلك النعمة. وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يحبه الله

---

(١) عزور: ثنية بالجحفة عليها الطريق من المدينة إلى مكة.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٧٧٥) في الجهاد، باب: في سجود الشكر، وقال الألباني في «ضعيف سنن أبي داود»: ضعيف.

والأشر والبطر، كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم، كانت سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، وانقلبت نقمة، وعادت استدراجًا. وقد تقدم أمر النجاشي، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعًا.

وقال ابن المغيرة: بشر الحسن بموت الحجاج، وهو مختف، فخر لله ساجدًا.

ومن دقيق نعم الله على العبد، التي لا يكاد يفطن لها، أنه يغلق عليه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القتت، ليعرفه نعمته عليه.

وقال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له ولا لهم من يخدمهم.

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت ما أحصى ذلك كثرة. قال فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت لا والله، ولكنه أحسن إلي وأعانني.

قال فهل سألته شيئًا فلم يعطكه ؟ قلت: هل منعني شيئًا سألته؟ ما سألته شيئا قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني. قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال، ما كان جزاؤه عندك. قلت: ما كنت له أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن قديمًا وحديثًا إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، أنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكرًا.

وقال سفيان الثوري: ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة من أنعم عليه.

وقال ابن أبي الحواري: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله ألا يسلبنا إياه قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله.

وقال ابن أبي الحواري: قالت لي إمرأة: أنا في بيتي قد شغل قلبي، قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله علي في طرفة عين، أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة علي في طرفة عين. قلت: تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل، فيقضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم. قال: وفي بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى أنه قال: سروا عبدي المؤمن، فكان لا يأتيه شيء إلا قال الحمد لله ما شاء الله. قال:روعوا عبدي المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله، الحمد لله. فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدي يحمدني حين روعته كما يحمدني حين سررته، أدخلوا عبدي دار عزي كما يحمدني على كل حالاته.

وقال وهب: عبد الله عابد خمسين عامًا، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه، فلم ينم ولم يصل، ثم سكن فنام، ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

وذكر ابن أبي الدنيا: أن داود قال: يا رب، أخبرني ما أدنى نعمك علي، فأوحى الله إليه: يا داود، تنفس. قال: هذا أدنى نعمي عليك.

وبهذا يتبين معنى الحديث، الذي رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم.

والحديث الذي في الصحيح: «**لن ينجى أحدًا منكم عمله . قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه**»[1]

أما قول بعض الفقهاء: إن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد، كان بر يمينه أن يقول: الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافي مزيده، فهذا ليس بحديث عن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) في المرضى، باب: تمني المريض الموت، ومسلم (٢٨١٦) في صفة القيامة، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، إلى أنه ليس فيه طرفه الأخير.

رسول الله -ﷺ-، ولا عن أحد من الصحابة، وإنما هو إسرائيلي عن آدم. وصح منه: «**حمد لله غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا**»(١). ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله، فضلاً عن موافاته جميع نعمه، ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئًا للمزيد، ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أن الذي يستحقه الله سبحانه من الحمد حمدًا يكون موافيًا لنعمه ومكافئًا لمزيده، وإن لم يقدر العبد أن يأتي به، كما إذا قال: الحمد لله ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر، وعدد أنفاس الخلائق، وعدد ما خلق الله وما هو خالق، فهذا إخبار عما يستحق من الحمد، لا عما يقع من العبد من الحمد.

وقال أبو المليح: قال موسى: يا رب، ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني على كل حال.

وقال بكر بن عبد الله قلت لأخ لي: أوصني، فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد ألا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، فأوسعني علمًا ما شئت.

وقال عبد العزيز بن أبي داود رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ما شق علي منها، فقال لي: أتدري ماذا لله علي هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي، ولا طرف لساني، ولا طرف ذاكرتي، فهانت علي قرحته.

وروى الجريري، عن أبي الورد، عن اللجلاج، عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه-: «**أن رسول الله -ﷺ- أتى على رجل وهو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال: ابن آدم هل تدري ما تمام النعمة، قال: يا رسول الله دعوت دعوة أرجو بها الخير، فقال: إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة**»(٢).

وقال سهم بن سلمة: حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره، لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام.

---

(١) تقدم.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) في الدعوات، باب: رقم (٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٥/٢٣١)، وعبد بن حميد في «منتخبه» (١٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٥٥)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٤٨١): ضعيف.

ويدخل على فضل الشكر على الصبر، أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية، وما يسأل شيئًا أحب عليه من العافية، كما في المسند عن أبي صالح، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قام أبو بكر -رضي الله عنه- على المنبر، ثم قال: سلوا الله العافية، فإنه لم يعط عبدًا بعد اليقين خيرًا من العافية[1].

وفي حديث آخر: «**إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئًا أفضل من العفو والعافية، فسلوها الله عز وجل**».

وقال لعمه العباس: «**يا عم أكثر من الدعاء بالعافية**». وفي الترمذي: «**قلت: يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله؟ قال: سل الله العافية فمكثت أيامًا ثم جئت فقلت: علمني شيئًا أسأله الله؟ فقال لي: يا عباس، يا عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، سل الله العافية في الدنيا والآخرة**»[2].

وقال في دعائه يوم الطائف: «**إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي**»[3]، فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**».

وفي حديث آخر: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة**»[4]. وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها.

وكان عبد الأعلى التيمي يقول: أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذي إن نعد نعمة لا نحصيها، وإن ندأب له عملاً لا نجزيها، وإن نعمر فيها لا نبليها.

---

(١) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٥٨) في الدعوات، باب: رقم (١١٨)، وأحمد في «مسنده» (١/٧)، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٢٠٩).

(٣) ضعيف: وقد تقدم.

(٤) لم أقف عليه بهذه الزيادة.

ومر رسول الله -ﷺ- برجل يسأل الله الصبر، فقال: «**لقد سألت البلاء فاسأل العافية**» وفي صحيح مسلم: أنه -ﷺ- عاد رجلاً قد هفت - أي هزل - فصار مثل الفرخ، فقال -ﷺ-: «**هل كنت تدعو الله بشيءأو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله -ﷺ-: «**سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»(١)، فدعا الله له فشفاه.

وفي الترمذي، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه: «**اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك**»(٢)

وقال شيبان : كان الحسن إذا جلس مجلسًا يقول: لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيرًا كما تنعم كثيرًا، أعطيت خيرًا كثيرًا، وصرفت شرًا كثيرًا، فلوجهك الجليل الباقي الدايم الحمد.

وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة، أو عافية، أو كرامة في دين، أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي، فإنها منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت.

وقال مجاهد : إذا كان ابن عمر في سفر، فطلع الفجر رفع صوته ونادى: سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا - ثلاثًا - اللهم صاحبنا فأفضل علينا، عائذ بالله من النار، ولا حول ولا قوة إلا بالله - ثلاثًا -.

وذكر الإمام أحمد أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران -عليه السلام-: « **موسى، كن يقظان مرتادًا لنفسك أخدانًا، وكل خدن لا يواتيك على مسرتي فلا تصحبه، فإنه**

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٨٨) في الذكر والدعاء، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٧٦) في الدعوات، باب: رقم (١٤)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٦٦): ضعيف.

عدو لك، وهو يقسي قلبك، وأكثر من ذكري حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد».

وقال الحسن: خلق الله آدم حين خلقه، فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم المبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أريد أن أشكر.

وفي السنن عنه - ﷺ - : «**من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر - إلا أدى شكر ذلك اليوم. ومن قال ذلك حين يمسي، فقد أدى شكر ليلته**».

ويذكر عن النبي - ﷺ - : «**من ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظلم فغفر وظلم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**»(١).

ويذكر عنه - ﷺ - : إنه أوصى رجلاً بثلاث، فقال: «**أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، عليك بالدعاء فإنك لا تدري متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة**».

ويذكر عنه - ﷺ - : أنه كان إذا أكل قال: «**الحمد لله الذي أطعمني وسقاني وهداني، وكل بلاء حسن أبلاني، الحمد لله الرزاق ذي القوة المتين، اللهم لا تنزع منا صالحًا أعطيتنا ولا صالحًا رزقتنا، واجعلنا لك من الشاكرين**» ويذكر عنه - ﷺ -: أنه إذا أكل قال: «**الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجًا**»(٢).

وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمرًا حتى يقول هذه الكلمات: الحمد لله الذي هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا، الله أكبر، اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير، نسأل تمامها وشكرها، لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك، إله الصالحين ورب العالمين.. الحمد لله، لا إله إلا الله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، عن سخبرة، كما في «ضعيف الجامع» (٥٣٢٣).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٨٥١) في الأطعمة، باب: ما يقول الرجل إذا طعم، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٨١): صحيح.

وقال وهب بن منبه: رءوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمه إلا بها، والثانية العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به.

وقدم وهب بمبتلٍ أعمى مجذم، مقعد عريان، به وضح، وهو يقول: الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟

فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة، فانظر إلى كثرة أهلها، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري.

ويذكر عن النبي -ﷺ- أنه قال: «**إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها**».

وذكر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: أن بختنصر أتى بدانيال، فأمر به فحبس في جب وأضرى[1] أسدين ثم خلى بينهما وبينه، ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائمًا يصلي والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له.

فقال له: ما قلت حين دفع عنك؟

قال: قلت: «**الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا، والحمد لله الذي يجزي بالصبر فجأة**».

ويذكر عنه -ﷺ- أنه كان إذا نظر في المرآة قال: «**الحمد لله الذي أحسن خلقي وخلقي، وزان ما شان من غيري**»[2].

وقال ابن سيرين: كان ابن عمر يكثر النظر في المرآة، وتكون معه في الأسفار فقلت له: ولم؟ قال: أنظر فما كان في وهي زين فهو في وجه غيري شين أحمد الله عليه.

---

(١) أي: جوّع.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو يعلى في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، كما في «ضعيف الجامع» (٤٤٥٨).

وسئل أبو بكر بن أبي مريم : ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة. وقال بكر بن عبد الله. با ابن آدم، أن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، قال: أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم المعاصي.

وقال ابن شوذب قال عبد الله – يعني ابن مسعود –رضي الله عنه–: إن لله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

وقال أبو سليمان الداراني : جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالاً: الكرم، والسخاء، والحلم، والرأفة، والرحمة، والشكر، والبر، والصبر.

وقال أبو هريرة –رضي الله عنه–: من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً فقد أدى شكر تلك النعمة، وقال عبد الله بن وهب سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذع الحمد وأصله وفرعه، قال: ينظر في نعم الله: في بدنه، وسمعه، وبصره، ويديه، ورجليه، وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا فيه نعمة من الله، حق على العبد أن يعمل في النعمة التي في بدنه لله في طاعته، ونعمة أخرى في الرزق، وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من رزق بطاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذع الشكر وأصله وفرعه.

وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا، فشكرها لله وتواضع بها الله، إلا أعطاه لله نفعها في الدنيا، ورفع له بها في الأخرى.

وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها، إلا عدمه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس، فقد قصر عليه وحضر عذابه.

وقال الحسن يومًا لبكر المزني : هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي، ثم قال: والله ما أدري أي النعمتين أفضل علي وعليكم: أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا؟ قال الحسن إنها لمن نعمة الطعام.

وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم:٣٥]، سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانًا علمًا منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

وقال عبد الله بن المبارك أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمعت رسول الله يقول: «**خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرًا شاكرًا، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابرًا شاكرًا: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه - كتبه الله صابرًا شاكرًا. ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه - لم يكتبه الله صابرًا شاكرًا**»، وبهذا الإسناد عن عبدالله ابن عمرو موقوفًا عليه: «**أربع خصال من كن فيه بني الله له بيتًا في الجنة: من كان عصمة أمره لا إله إلا الله، وإذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا أعطى شيئًا قال الحمد لله، وإذا أذنب قال أستغفر الله**» .

وقال ابن المبارك : عن شبل، عن أبي نجيع، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾، قال: لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه - فأثنى الله عليه أنه كان عبدًا شكورًا.

وقال محمد بن كعب كان نوح إذا أكل قال الحمد لله، وإذا شرب قال الحمد لله، وإذا لبس قال الحمد لله، وإذا ركب قال الحمد لله - فسماه الله عبدًا شكورًا.

وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي ألا يعصى لشكر نعمته.

ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما:

أحدهما: أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه. فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه، وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله

ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك. وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم. وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله. وأكثر الديانين لا يعبئون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس. وأما الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها. وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه. وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء.

وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب إن فيهم فلانًا العابد الزاهد، قال: به فابدأ، وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط.

وأما شهود النعمة، فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً، لو عمل أعمال الثقلين، نعم الله سبحانه أكثر من أعماله، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج، حدثنا جرير بن حازم، عن وهب، قال: بلغني أن نبي الله موسى -عليه السلام- مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه فإني قد رحمته، فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما أستجيب له حتى ينظر في حقي عليه.

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها، ولا يزال مزريًا على نفسه ذامًا لها، وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما.. والله المستعان (١).

في الحكم بين الفريقين، والفصل بين الطائفتين:

فيقول: كل أمرين طلبت الموازنة بينهما، ومعرفة الراجح منهما على المرجوح فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل منهما، وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه، ونذكر حقيقة الشكر وماهيته.

---

(١) عدة الصابرين (ص ١٤٤).

قال في الصحاح: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف. يقال شكرته وشكرت له، واللام أفصح. وقوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، ويحتمل أن يكون مصدرًا كالعقود، وأن يكون جمعًا كالبرود والكفور. والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع امتلأ لبنًا. تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكرًا فهي شكرة وشكرت الشجرة تشكر شكرًا إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق، وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء، ويقال أيضًا دابة شكور إذا ظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان، لا يكون شكورًا إلا بمجموعها:

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني الثناء عليه بها، والثالث الاستعانة بها على مرضاته.

وأما قول الناس في الشكر، فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه، فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه.

وقيل: شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة.

وقيل: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليًا. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر، ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه. وذلك التوفيق من أجل النعم عليك، وتشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر، ألا ترى نفسك للنعمة أهلاً. وقيل الشكر استفراغ الطاقة في الطاعة.

وقيل: الشاكر الذي يشكر على الموجود، والشكور الذي على المفقود. وقيل: الشاكر الذي يشكر على الرفد، والشكور الذي يشكر على الرد.

وقيل: الشاكر الذي يشكر على النفع، والشكور الذي يشكر على المنع. وقيل الشاكر الذي يشكر على العطاء، والشكور الذي بشكر على البلاء.

وقال الجنيد : كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبينهما جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألا تعصى الله بنعمه. فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك. فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري.

وقال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم. وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من النعم.

وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وحبس السلطان رجلاً، فأرسل إليه صاحبه أشكر الله، فضرب، فأرسل إليه أشكر الله، فجيء بمحبوس مجوسي مبطون، فقيد، وجعل حلقة من قيده في رجله، وحلقه في الرجل المذكور. فكان المجوسي يقوم بالليل مرات، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ. فكتب إليه صاحبه أشكر الله، فقال له: إلى متى تقول أشكر الله وأي بلاء فوق هذا؟ فقال: لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع؟ فاشكر الله.

ودخل رجل على سهل بن عبد الله، فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعي. فقال: اشكر الله، فلو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد عليك التوحيد، ماذا كنت تصنع؟!

وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه.

وقيل: إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر.

وقيل: أربعة لا ثمرة لهم: مشاورة الأصم، ووضع النعمة عند من لا يشكرها، والبذر في السباخ، والسراج في الشمس.

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة　　　يدي ولساني والضمير المحجبا

والشكر أخص بالأفعال، والحمد أخص بالأقوال، وسبب الحمد أعم من سبب الشكر.

ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد، فما يحمد الرب تعالى عليه أعم مما يشكر عليه، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويشكر على نعمه، وما يحمد به أخص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان.

إذا عرف هذا، فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر، ولا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته، والصبر أصل ذلك، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأمورًا به، فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر، وإنهما لمسمى واحد وهذا محال عقلاً ولغة وعرفًا، وقد فرق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرًا، وإذا تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه صبرًا. أما الأول فظاهر، وأما الثاني إذا تجرد عن الشكر كان كفورًا، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

فإن قيل: بل ههنا قسم آخر، وهو ألا يكون كفورًا ولا شكورًا، بل صابرًا على مضض وكراهة شديدة، فلم يأت بحقيقة الشكر، ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامنا في الصبر المأمور به الذي هو طاعة، ولا في الصبر الذي هو تجلد كصبر البهائم. وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر. كما اندرج صبر الشكور في شكره، فكان الحكم للشكر، فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى، كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب لا أنهما يزولان. فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر، سواء كان محبوبًا أو مكروهًا، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر، وهو

أخص به لما فيه من الكراهة، ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة. فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عده نعمة يشكر الله. ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى.

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب، وعد ذلك كله ابتلاء، فقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥،١٦]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٨]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧]، فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض، للابتلاء والاختبار. وهذا الابتلاء، إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة، وتأتي الأسباب أعظم الابتلاءين. والصبر على طاعة الله أشق الصابرين، كما قال الصحابة -رضي الله عنهم-: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق، وقد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها.

فالرب تعالى، يبتلي بنعمه، وينعم بابتلائه. غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره، لا يستغني عنهما طرفة عين.

والسؤال عن أيهما أفضل، كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل، فالمأمور به لا يؤدى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر. وأما المقدور الذي يقدر على العبد من المصائب، فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره، كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته، فلا ينفك العبد عنهما غنيًّا كان أو فقيرًا، معافى أو مبتلى.

وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل؟ وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر، أيهما أفضل. وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فُرض استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بين الفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣].

وقد قال: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا فضل لعجمي على عربي إلا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب**»[(١)] .

والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر. وكل من الغني والفقير لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل[(٢)].

(١) رجاله رجال الصحيح، أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١١/٥) عن أبي نضرة، من سمع خطبة رسول الله - ﷺ -، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٩/٣)، رجاله رجال الصحيح.

(٢)عدة الصابرين (ص ١٨٨).

الصمد

الصمد السيد الذي كمل في سؤدده، ولهذا كانت العرب تسمي أشرافها بهذا الاسم، لكثرة الصفات المحمودة في المسمى به، قال شاعرهم:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، ولهذا قال جمهور السلف منهم عبد الله بن عباس: الصمد السيد الذي كمل سؤدده، فهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحكيم الذي كمل حكمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده، ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظ من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال، ولا جوف له، فإنما لم يكن أحد كفوا له لما كان صمدا كاملا في صمديته، فلو لم تكن صفات كمال، ونعوت جلال، ولم يكن له علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا إرادة، ولا كلام، ولا وجه،ولا يد، ولا سمع، ولا بصر، ولا فعل يقوم به،ولا يفعل شيئا البتة، ولا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق عرشه، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فعال لما يريد، ولا يرى، ولا يمكن أن يرى، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه، لكان العدم المحض كفوا فإن هذه الصفات منطبقة على المعدوم، فلو كان ما يقول المعطلون هو الحق لم يكن صمدا، وكان العدم كفواً له، وكذلك قوله: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً**﴾ [مريم:٦٥].

فأخبر أنه لا سمي له، عقيب قول العارفين به:

﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً**﴾ [مريم:٦٤،٦٥].

فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم، وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه، وملكه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئا أبدا، وهو القائم بتدبير أمر السموات والأرض وما بينهما، كما هو

الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له، لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فإنه سبحانه ذكر ذلك، بعد ذكر نعوت كماله، وأوصافه فقال: ﴿حم ۞ عسق ۞ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۞ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:١-٦].

إلى قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية، وإحياء الموتى، والقدرة التامة الشاملة، والحكم بين عباده، وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه، وأسمائه، وأفعاله، وثبوتها له على وجه الكمال، الذي لا يماثله فيه شيء، فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء، هو الذي يصفه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وأما المعطل: النافي لصفاته وحقائق أسمائه، فإن وصفه له بأنه ليس كمثله شيء مجاز، لا حقيقة، كما يقول في سائر أوصافه، وأسمائه ولهذا قال من قال من السلف: إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل، فسموا تعطيلهم تنزيها، وسموا ما وصف به نفسه تشبيها وجعلوا ما يدل على ثبوت صفات الكمال، وكثرتها دليلا على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له نورا، واغتر به من شاء الله، وهدى الله من اعتصم بالوحي، والعقل، والفطرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[١].

❁❁❁

---

(١) الصواعق المرسلة (ص ١٠٢٣).

الظاهر

وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي إحاطتان زمانية ومكانية فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه.

وما من أول إلا الله قبله وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قِدَمُهُ، والآخر دوامه وبقاؤه والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه.

فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماء ولا أرض أرضا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنا بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية. فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره، ولم يزل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا [١].

والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربا يقصده وصمدا يصمد إليه في حوائجه وملجأ يلجأ إليه فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفر كل وقت إليه [٢].

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٤٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٤٢).

الضار النافع

جاء ذكرهما في حديث أبي هريرة وأجمعت عليهما الأمة وليس لهما في كتاب الله تعالى ذكر اسم ولا فعل غير قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام:١٧]، وهما اسمان حاصران لزمامي المملكة دالان على انفراد الخالق سبحانه بالأفعال وتنفيذ مراداته في خلقه فلا ضرر ولا نفع إلا من عنده. وهذا بيِّن لا إشكال فيه، ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراًّ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف:١٧٥]، فكل شيء في قبضته، ومنفذ بحكم تدبيره عن قضائه ومشيئته لكن ذوي النظر القاصر نسبوا إلى الأسباب ما ينبغي أن ينسب إلى رب الأرباب؛ وهؤلاء يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٥]، ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦]، خلق كل شيء فقدره تقديرًا هو الذي استودع العقاقير منافع الأدوية ومضارها واستودع الإماتة في الموت، واستودع الألم في الضرب، وجميع المؤلمات واستودع الشبع والري في ذوات المطعومات والمشروبات، واستودع التنفيذ كله في التدبر وافتتح لجميع ذلك بيده وبيده ملكوت كل شيء فلا يصدر صادر من ذلك كله إلا عن إرادته وحكمه وخلقه له واختراعه إياه -تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا-.

قال الحليمي: ولا يجوز أن يدعى بالضار وحده حتى يجمع بين الاسمين، وقال الخطابي: وفي اجتماع هذين الاسمين وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من شاء وضر من شاء؛ وذلك أن من لم يكن على النفع والضر قادرًا لم يكن موجودًا ولا مخلوقًا.

روى ابن عباس قال: كنت ردف رسول الله -ﷺ- فقال لي رسول الله -ﷺ-: **«يا غلام أو يا بني ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: احفظ الله يحفظك احفظه تجده أمامك؛ تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر في النعم، واعلم أن اليقين في الصبر على ما تكره وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع**

الكرب وأن مع العسر يسرًا»(١)، قال أبو محمد عبد الحق: خرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب الفصل الموصل وهو حديث صحيح وقد خرجه الترمذي وهذا أتم.

فيجب على كل مسلم أن يعلم أن لا نافع ولا ضار إلا الله وحده وكلاهما فعله وهما من أسماء الأفعال كما ذكرنا بلا خلاف فلا فاعل في الوجود إلا الله تعالى فكل نفع يدر على العبد في الدنيا فهو من الله تعالى وكل عبد صدر منه منفعة فهو مسخر من الله تعالى بها وكذلك القول في الضر فالدنيا مقسمة بين ضر ونفع، والأخرى كذلك. فالجنة نفع صاف والنار ضر خالص. وما في الدنيا من ضر فقد يعود إلى محل نفع في الأخرى فيكون ضرًا مجازيًا، وقد يعود إلى محل الضر في الأخرى فيكون ضرًا حقيقيًا. وكذلك إذا استقريت جميع منافع الدنيا وجدت فيها منافع مجازية وحقيقية والمنفعة الحقيقية هي التي تنفعك في الأخرى وترفعك إلى الذروة العليا، فحقك أن تحدق إليها عين قلبك في الدنيا حتى يتيحها لك الله تعالى. ومهما أتاح لك منفعة فانفع غيرك ولا تكنز عنه خيرك فبذلك تكون لنفسك نافعًا ويكون نفعك لك عند الله شافعًا(٢).

---

(١) تقدم.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣٥٢).

العالِم

قال الله -عز وجل-: ﴿عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[١]

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: «يا رسول الله مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت»

قال -صلى الله عليه وسلم-: «**قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه**». قال -صلى الله عليه وسلم-: «**قل إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**»[٢].

قال الحليمي -رحمه الله- في معنى العالِم: إنه مدرك الأشياء على ما هي به، وإنما وجب أن يوصف بالقديم[٣] عز اسمه بالعالم لأنه قد ثبت أن ما عداه من الموجودات فعل له، وأنه لا يمكن أن يكون فعل باختيار وإرادة، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم كما لا يظهر إلا من حي[٤].

❁❁❁

---

(١) الأنعام: ٧٣، والتوبة: ٩٤، وغير موضع.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) في الأدب، باب: ما يقول، إذا أصبح، والترمذي (٣٣٩٢) في الدعوات، باب: منه، والدارمي (٢/٣٧٨)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٠٢): صحيح.

(٣) الأولى أن نسميه بالأول كما ورد في ذلك التنزيل.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٠).

العدل

وهو العدل الذي يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه فخبره كله صدق وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة. والذي نهى عنه كله مفسدة وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته(١).

الفرق بين الحكم و القضاء:

وفرق بين الحكم والقضاء وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه. شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته. وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال عدل فيَّ قضاؤك أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه، وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه، فإن كان حكماً دينياً فهو ماض في العبد وإن كان كونياً فإن نفذه سبحانه مضى فيه وإن لم ينفذه اندفع عنه، فهو سبحانه يقضي ما يقضي به، وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه. وهو سبحانه يقضي ويمضي فله القضاء والإمضاء.

وقوله: عدل في قضاؤك يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه من صحة وسقم. وغنى وفقر. ولذة وألم. وحياة وموت. وعقوبة وتجاوز وغير ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨]، فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

---

(١) الفوائد (ص ٣٢).

(فإن قيل): فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائها؟ فإن العدل في العقوبة عليها غير ظاهر، قيل هذا سؤال له شأن ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته، قالوا لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير والله له كل شيء، فلا يكون تصرفه في خلقه إلا عدلاً.

وقالت طائفة بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم إما في الدنيا وإما في الآخرة، وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل. ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر، كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيبًا بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية والغي على من شاء فذلك محض العدل فيه لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به: كيف ومن أسمائه الحسنى: ﴿**الْعَدْل**﴾ الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأزاح العلل، ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالإسماع والإبصار والعقول، وهذا عدله. ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله. وهذا نوعان:

(**أحدهما**): ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه وتناسي ذكره وشكره فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

(**والثاني**): ألا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله. قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام:٥٣]، وقال: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال:٢٣]،

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب، وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر.

والمقصود أن قوله -ﷺ-: «**ماض فيَّ حكمك عدل في قضاؤك**»(١) رد على الطائفتين: القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله في عبده ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهي. وعلى الجبرية الذين يقولون كل مقدور عدل فلا يبقى لقوله عدل فيَّ قضاؤك فائدة، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال ماض ونافذ في قضاؤك، وهذا هو الأول بعينه.

وقوله: «**أسألك بكل اسم**»(٢) إلى آخره توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم، وهذه أحب الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري**»(٣) الربيع المطر الذي يحيي الأرض. شبه القرآن به لحياه القلوب به وكذلك شبهه الله بالمطر وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ**﴾ [الرعد:١٧]، وفي قوله: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾ [البقرة:١٧]، ثم قال: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ [النور:٣٥]، وفي قوله: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ**﴾ [النور:٣٥]، الآيات ثم قال: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ**﴾ [النور:٤٣]، الآيات، فتضمن الدعاء أن يحيي قلبه بربيع القرآن وأن ينور به صدره فتجتمع له الحياة والنور، قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام:١٢٢].

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وهو السابق.

(٣) صحيح: وهو السابق.

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب لأنه قد حصل لما هو أوسع منه، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها، ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فإنها أحرى ألا تعود. وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك. والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم. والله أعلم [١].

(١) الفوائد (ص ٣٤).

العـزيـز

وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قَلَّبَ قلبه وصرف إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه. وجعله مريداً شَائِياً لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذ لا يقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف في بدنك وظاهرك. وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره. لا عصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضاً في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه. وكذلك بالعكس. فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هي معصية. فإذا شهد جريان الحكم، وجعله فاعلا لما هو غير مختار له، مريد بإرادته ومشيئته واختياره. فكأنه مختار غير مختار، مريد غير مريد، شاء غير شاء. فهذا يشهد عزة الله وعظمته، وكمال قدرته[1].

(١) مدارج السالكين (١/٢٠٥).

العظـيم

قال الله -جل ثناؤه-: ﴿**وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ**﴾[١].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «**كان النبي -ﷺ- يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرضين، ورب العرش الكريم**»[٢].

قال الحليمي -رحمه الله- في معنى العظيم: إنه الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق، ولأن عظيم القوم إنما يكون مالك أمورهم الذي لا يقدرون على مقاومته ومخالفة أمره، إلا أنه وإن كان كذلك ما هيته فقد يلحقه العجز بآفات تدخل عليه فيما بيده فيوهنه ويضعفه حتى يُستَطاع مقاومته، بل قهره وإبطاله، والله تعالى -جل ثناؤه- قادر لا يعجزه شيء، ولا يمكن أن يُعصَى كرهًا أو يُخالَف أمره قهرًا، فهو العظيم إذًا حقًا وصدقًا، وكان هذا الاسم لمن دونه مجازًا.

وقال أبو سليمان الخطابي -رحمه الله-: العظيم ذو العظمة والجلال، ومعناه ينصرف إلى عظم الشأن وجلالة القدر، دون العظيم الذي هو من نعوت الأجسام[٣].

❁❁❁

---

(١) البقرة: ٢٥٥، والشورى: ٤٠.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٤٥، ٦٣٤٦) في الدعوات، باب: الدعاء عند الكرب، ومسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء، باب: دعاء الكرب.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٣٣).

العفو

قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:٦٠]، وعن عائشة -رضي الله عنها-- قالت: «قلت يا رسول الله إن أنا وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: قولي: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني. أو اعف عنا»[(١)].

قال الحليمي في معنى العفو: إنه الواضع عن عباده تبعات خطاياهم وآثامهم، فلا يستوفيها منهم، وذلك إذا تابوا واستغفروا، أو تركوا لجهة أعظم مما فعلوا، ليكفر عنهم ما فعلوا بما تركوا، أو بشفاعة من يشفع لهم، أو يجعل ذلك كرامة لذي حرمة لهم به، وجزاء.

قال أبو سليمان: العفو وزنه فعول من العفو وهو بناء المبالغة، والعفو الصفح عن الذنب وقيل: إن العفو مأخوذ من عفت الريح الأثر إذا درسته، فكأن العافي عن الذنب يمحو بصفحه عنه[(٢)].

ويجوز إجراؤه على المخلوق وفي التنزيل: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، قال الخليل: كل من استحق عقوبة فتركته ولم تعاقبه عليها فقد عفوت عنه عفوًا.

وقال الأقليشي: هذا الوصف من أوصاف الفعل مضاف إلى من يعفو الله عنه في الدنيا من المذنبين التائبين وإلى من يعفو عنه في الآخرة من الموحدين المصرين[(٣)].

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه العفو على الإطلاق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، ثم يجب عليه أن يستعمل العفو ويتخلق به حتى يدخل في مدح الله للعافين وثنائه عليهم من ذلك قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، وقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وقال لنبيه -ﷺ-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥١٣) في الدعوات، باب: رقم (٨٩)، وابن ماجه (٣٨٥٠) في الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية، وأحمد في «مسنده» (٦/١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٨)، وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: صحيح.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٥).

(٣) الأسنى شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/١٤٨).

الجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، ولقد أحسن القائل:

مكارم الأخلاق في ثلاثة من كملت فيه فذاك الفتى
إعطاء من يحرمه، ووصل من يقطعه، والعفو عمن اعتدى

وروى أنس عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء**»(١)، خرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ثم عليه أن يتضرع إليه في طلب العفو، فإنه روي: «أن رجلاً سأل النبي - ﷺ - ما أفضل الدعاء؟ قال: **أن تسأل الله العفو في الدنيا والآخرة**»(٢).

وورد في الحديث: «**اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة**»(٣)، فمن أعطي العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أعطي المرتبة العالية. والمعافاة أن يعافي العبد من شر الخلق ويعافيهم من شره، فمن عرف أن الله سبحانه عفو طلب عفوه ومن طلب عفوه تجاوز عن خلقه. قال الله -سبحانه-: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور:٢٢]، وقال بعضهم: لما كتبت الملائكة على العبد المعاصي، قال الله -سبحانه-: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ [الرعد:٣٩]، لئلا يقطع الملائكة بعصيانك، ولتجويزهم أن يكون قد عفا عنك(٤).

❁❁❁

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٧٧٧) في الأدب، باب: من كظم غيظًا، والترمذي (٢٠٢١) في البر والصلة، باب: في كظم الغيظ، و(٢٤٩٣) في صفة القيامة، باب: رقم (١٥)، وابن ماجه (٤١٨٦) في الزهد، باب: الحلم، وأحمد في «مسنده» (٤٣٨/٣، ٤٤٠)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٢٢): حسن.

(٢) ضعيف: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٧)، والترمذي (٣٥١٢) في الدعوات، باب: منه، وابن ماجه (٢٨٧١) في الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية، من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده سلمة بن وردان ضعيف الحديث، ولذا قال الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»: ضعيف.

(٣) لم أقف عليه هكذا.

(٤) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١٤٩/١).

العلي الأعلى

فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستواءه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجيا له مطرقا واقفا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأن كلامه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه، فيستحي أن يصعد إليه من كلامه ما يخزيه ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف - من الإماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس- غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا أثر معرفة العبد أن الله عليم يتصرف فيها سواه، فمراسمه نافذة فيها كما يشاء: ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [السجدة:٥]، فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به[١].

الرد على من نفى صفة العلو:

إن تعطيل ذاته المقدسة عن وصفها بذلك وجعل ذلك مجرد أمر معنوي يقتضي سلب ذلك عنه بالكلية ولا سيما عند الجهمية النفاة لصفاته وأفعاله فإنه عندهم لا تقوم به صفة ثبوتية يستحق بها أن يكون أعظم من غيره، وأكبر منه وفوقه وأعلى منه فإنهم لا يجعلون ذلك عائداً إلى ذاته لأنه يلزم منه عندهم التجسيم، فليست ذاته عندهم موصوفة بكبر ولا عظمة ولا علو ولا فوقية، وليس له عندهم صفة ثبوتية تكون عظمته وفوقيته وعلوه لأجلها، فإن إثبات الصفات عندهم يستلزم التركيب، ولا له فعل يقوم به يكون به أعظم وأكبر من غيره، فإن ذلك يستلزم عندهم حلول الحوادث وقيامها به، فلا حقيقة عندهم لكونه أكبر وأعظم وأجل من غيره إلا ما يرجع إلى مجرد السلب والنفي والعدم، مثل كونه لا داخل العالم ولا خارجه ولا تحله الحوادث ولا يفعل لحكمة ولا مصلحة، ولا له وجه ولا يدان، ولا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا هو مستو على عرشه، ولا يأتي يوم القيامة لفصل القضاء، ولا يراه المؤمنون في الجنة، ولا يكلمهم ولا كلم موسى

---

(١) طريق الهجرتين (ص٧٨).

في الدنيا ولا أحداً من الخلق، ولا يشار إليه بالأصابع، ولا يرفع إليه الكلم الطيب، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا عرج رسول الله -ﷺ- -إليه ولا دنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ونحو ذلك من النفي والسلب الذي يفرون عنه بنفي التشبيه والتجسيم والتركيب فيوهمون السامع أن إثبات ذلك تشبيه وتجسيم ثم ينفونه عنه وحقيقة ذلك نفي ذاته وصفاته وأفعاله فهذا حقيقة كونه أكبر من كل شيء، وأعظم منه وفوقه وعالياً عليه عندهم، وحقيقة ذلك نفي هذا عنه وجعل كل شيء أكبر منه لأن ما لا ذات له ولا صفة، ولا فعل، فكل ذات لها صفة أكبر منه فالقوم كبروه وعظموه ونزهوه في الحقيقة عن وجوده فضلاً عن صفات كماله وأفعاله[1].

❁❁❁

(١) الصواعق المرسلة (١/١٣٧٩).

العليم

قال الله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٧١].

قال الحليمي في معناه: إنه المدرك لما يدركه المخلوقون بعقولهم وحواسهم، وما لا يستطيعون إدراكه، من غير أن يكون موصوفًا بعقل أو حس، وذلك راجع إلى أنه لا يعزب ولا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه إدراك شيء، كما يعجز عن ذلك من لا عقل له أو لا حس له من المخلوقين، ومعنى ذلك، أنه لا يشبههم ولا يشبهونه.

قال أبو سليمان: العليم هو العالم بالسرائر والخفيات، التي لا يدركها علم الخلق. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم(١)

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٥).

العـلام

قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٨]، وهو في دعاء الاستخارة: «**وأنت علام الغيوب**»(١).

قال الحليمي: ومعناه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها، فهو يعلم الموجود، ويعلم ما هو كائن، وأنه إذا كان كيف يكون، ويعلم ماليس بكائن، وأنه لو كان كيف يكون.

وعن ابن عباس -رضي الله عنها- في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، قال: يعلم السر ما أسر ابن آدم في نفسه، وأخفى ما خفي على ابن آدم وهو فاعله قبل أن يعمله(٢).

فإن الله تعالى يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة(٣).

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٦٦) في الجمعة، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى، من حديث جابر -رضي الله عنه-.

(٢) في المطبوع (يعلمه)، والصواب ما أثبتناه حسبما يقتضيه السياق.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٥).

الغافر

ورد به التنزيل فقال: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ﴾ [غافر:٣]، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وأصل الغفر الستر، ومن ذلك المِغْفَر للذي يجعل على الرأس من الدروع، وغفر الثوب زئبره[١] الذي يستر سداه، ويقال: جاء القوم جماءً غفيرًا أي بجماعتهم، ويقال لخرقة يغطى بها الرأس غفارة، وقيل: هو مأخوذ من الغفر نبت تداوى به الجراح إذا ذر عليها دَمَلَها وأبرأها[٢].

قال الحليمي: وهو الذي يستر على المذنب ولا يؤاخذه به فيشهره ويفضحه[٣].

وكل ذلك صفات الأفعال، وقد يكون معنى الغفر الإصلاح ولذلك قيل غفرت الذنب: أصلحته بما يكون له فمعنى قول القائل اللهم اغفر لي، اللهم أصلح لي، وبالجملة فهذا الاسم قريب القرابة من اسمه العفو، فالعفو مشعر بمحو الظلمة والغفر مشعر بوضع النور موضعها وبه يستر عورة العبد، ولذلك قرن بينها فقال: ﴿إِنَّ اللَّه لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[٤] [الحج:٦٠].

(١) زئبر الثوب: هو وبره وشعره وشوكه.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/١٥٢).

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٥٥).

(٤) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/١٥٣).

الغالب

قال الله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١].

قال الحليمي: وهو البالغ مراده من خلقه، أحبوا أو كرهوا، وهذا أيضًا إشارة إلى كمال القدرة والحكمة، وإنه لا يقهر ولا يخدع[١].

❁❁❁

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٤١).

الغفار

قال الله–عز وجل–: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر:٥].

قال الحليمي: وهو المبالغ في الستر فلا يشهر الذنب لا في الدنيا ولا في الآخرة(١).

وتقول: غفر الله لك، واليوم يغفر الله لكم غفرًا فهو الغفور والغفور والغافر وهو يدل على الستر والإمهال وترك العجلة والاستعجال إذ قلنا: إن المغفرة من الغفر وهو الستر، والستر يكون في الحال وفي المال، وينقسم إلى ستر يقترن بالعفو وإسقاط الحق، وإلى تغطية القبيح عن اطلاع الغير عليه، ويتضمن الصبر والحلم والأناة وكرم الذات والصفات إلى غير ذلك ويتضمن نفي النقائص التي تضاد هذه الصفات(٢).

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو الغفار على الإطلاق وبكل وجه من الاستحقاق، وأنه لا يغفر ذنوب عباده غيره، ومغفرته لمن تاب عليه بعد زلته منصوص في كتابه، وهذا ليس فيه اختلاف، لأنها نصوص تناولت العموم لا الخصوص فكل من أقلع عن زلته. وصدق الله في توبته عفا الله عنه، وغفر له، وعاد كمن لا ذنب له. قال الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه:٨٢]، وهذا كثير متكرر في آي الكتاب وقد قامت عليها أدلة النقل.

وهذا الاسم مما انفرد به أهل السنة وحجب عنه المبتدعة من القدرية ودونهم وزعموا أنه لا يغفر إلا لمن تاب. وأما من مات على المعصية فهو مخلد في النار. والمعتزلي يضيف إليها حاكم العقل، ويجعل العفو والمغفرة مما يجب للعبد التائب على الرب.

ومذهب أهل الحق أنه لا يجب على الله شيء للخلق، بل يجب عليهم أن يسألوه المغفرة، فإنه واسع المغفرة ولا يقنطوا، وقد مدح الله المستغفرين وأثنى عليهم فقال:

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٦).

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/١٥٥).

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، وقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (١) [آل عمران:١٣٥].

ويجب عليه أن يستتر عن الناس بذنبه ويعترف به لربه، ففي البخاري ومسلم عن عائشة عن النبي -ﷺ-: «**إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**»(٢)، وفي البخاري: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**»(٣). ويستر غيره ولا يفضحه، ففي مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ-، «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**»(٤)، وفيهما أن رسول الله -ﷺ- قال: «**لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**»(٥)، وكما يجب أن يغفر له فكذلك يغفر لغيره كما قال: ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(٦) [النور:٢٢].

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/١٥٨).

(٢) صحيح: وهو جزء من حديث الإفك الطويل الذي أخرجه البخاري (٢٦٦١) في الشهادات، باب: تعديل النساء بعضهم بعضًا، ومسلم (٢٧٧٠) في التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٦٩) في الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، ومسلم (٢٩٩٠) في الزهد والرقائق، باب: النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٠) في البر والصلة، باب: بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الأخرى من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٦) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/١٦٢).

الغفور

نطق به التنزيل فقال: ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩].

وروى البخاري ومسلم عن أبي بكر الصديق قال: قلت: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[(١)].

قال الزجاجي: وغفور من أبنية المبالغة، لأنه يفعل ذلك بعباده مرة بعد أخرى إلى ما لا يحصى، وليست من أوصاف المبالغة في الذات، وإنما هي من أوصاف المبالغة في الفعل، لأنه لا يقع الستر إلا بمستور يستر ويغطى.

وقال الحليمي: الغفور هو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده ويزيد غفره على مؤاخذته[(٢)].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إن عبدًا أصاب ذنبًا، وربما قال: أذنب ذنبًا، فقال: ربِّ أذنبت، وربما قال: أصبت، فاغفر لي، فقال ربه: أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا أو أذنب ذنبًا، فقال: ربِّ أذنبت أو أصبت آخر فاغفره. فقال: أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا ربما قال: أصاب ذنبًا، قال: رب أصبت، أو قال: أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرت لعبدي ثلاثًا، فليعمل ما شاء**»[(٣)].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٣٤) في الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، ومسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/١٦٤).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٠٧) في التوحيد، باب: قوله الله تعالى: ﴿**يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾، ومسلم (٢٧٥٨) في التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب.

والعبد له أيضًا أسماء ثلاثة مشتقة من المعصية: أحدها: الظالم، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [فاطر:٣٢]، وثانيها: الظلوم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢]، والثالث: الظلام، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣]، ومن أسرف في المعصية كان ظلامًا، وكأنه قال عبدي لك ثلاثة أسماء في الظلم بالمعصية، ولي ثلاثة أسماء في الرحمة بالمغفرة، فإن كنت ظالما فأنا غافر، وإن كنت ظلومًا فأنا غفور، وإن كنت ظلامًا، فأنا غفار ثم إن صفاتك متناهية كما يليق بك، وصفاتي غير متناهية كما يليق بي، وغير المتناهي يغلب المتناهي، فيا مسكين لا تكن من القانطين: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

واعلم أن الآيات الواردة في المغفرة كثيرة، منها ما ورد بلفظ الماضي. قال الله تعالى في قصة داود -عليه السلام-: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص:٢٤،٢٥]، وهذا يدل على أن كل من استغفر وأناب إلى الله وصلت له المغفرة.

ومنها ما ورد بلفظ المستقبل، قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨،١١٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر:٥٣]، وقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وقال لنبينا -ﷺ-: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

ومنها ما ورد بلفظ الأمر تعليمًا للعباد، قال في آخر سورة البقرة: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومنها ما ورد بلفظ المصدر، قال: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾[1] [الرعد:٦].

❀❀❀

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى للرازي (ص ٢٢٠).

الغـنـي

إنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته. ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم. ومقيم أعذارهم. ومصلح فسادهم. والدافع عنهم، والمحامي عنهم والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً هذا شأنه. فكيف لا تحبه وتنافس في القرب منه وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه وكيف لا تلهج بذكره ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت، ولم تنتفع بحياتها[١].

الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه:

قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيا حميدا ذاتي له، فغناه حمده ثابت له لذاته لا أمر أوجبه وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا أمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

الفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي[٢]

(١) الفوائد (ص ٣٨).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٢٢).

الرد على الفلاسفة والمتكلمين في علة احتياج العالم:

فالخلق فقير محتاج إلى ربه لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له، لهذا كان الصواب في مسألة على احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون، فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار، وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر. والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدا والرب إلا ربا.

أقسام فقر العباد:

إذا عرف هذا فالفقر فقران: فقر اضطراري: وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحا ولا ذما ولا ثوابا ولا عقابا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا.

والفقر الثاني: فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني:معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرا مشهودا محسوسا لكل أحدا، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية(١).

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٣).

حال الإنسان في الفقر والغنى:

والغنى، بل لم يزل عبدا فقيرا بذاته إلى بارئه وفاطره. فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرا وباطنا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحايل على مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيبا من الملك، وادعى لنفسه ملكا مع الله سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصا آخر غيره كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر بن جحاش القرشي أن رسول الله -ﷺ- بصق يوما في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنىَّ أوان الصدقة**» ومن هنا خذل من خذل ووفق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [العلق:٦،٥]، وقال: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل:٥-١٠][(١)].

أكمل الخلق عند الله:

فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه -ﷺ-: «**أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك**»[(٢)] وكان يدعو: «**يا مقلب**

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٤).

(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠) في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» إسناده حسن.

القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)] يعلم -ﷺ- أن قلبه بيد الرحمن عز وجـل لا يملـك من شيئا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشـاء كيـف وهـو يتلـو قولـه تعـالى: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٤]، فضرورتـه -ﷺ- إلـى ربـه وفاقته إليه فحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. وهذا أمر إنما بدا منه لمـن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهـم عنـده جاها وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية الفقر إلى ربه، وكان يقول لهـم: «**أيها الناس، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي إنمـا أنـا عبـد**»[(٢)] وكـان يقـول: «**لاتطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»[(٣)].

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماتـه. مقـام الإسـراء ومقـام الدعـوة ومقام التحدي فقال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾ وقال: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾ [الجن:١٩]، وقال: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾ [البقرة:٢٣]، وفي حديث الشفاعة: «**إن المسيح يقول لهم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله لـه ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[(٤)]، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكماله مغفرة الله له، فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿**أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [فاطر:١٥]، باسـم اللـه دون اسـم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته وهو فقـر المخلوقـات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النـافع والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليـه هـو الفقـر الخـاص لا العـام، وقـد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير.

---

(١) صحيح: أخرجـه ابـن ماجـه (١٩٩) فـي المقدمـة، بـاب: فيمـا أنكـرت الجهميـة، وأحمـد فـي «مسنده» (١٨٢/٤)، وابـن حبـان فـي «صحيحـه» (٩٤٣)، والحـاكـم فـي «مسـتدركه» (٧٠٦/١) و(٣٥٧/٤)، من حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: صحيح.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٣/٣، ٢٤٩)، والنسائي فـي «الكبرى» (١٠٠٧٧)، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء، باب: ﴿**واذكـر فـي الكتاب مريـم إذ انتبذت من أهلها**﴾، من حديث عمر -رضي الله عنه-.

(٤) قلت: هو ليس بهذا السياق، حيث إن الذي سوف يقولون له إن الله قد غفـر لـك مـا تقـدم مـن ذنبك وما تأخر، هم المؤمنون عندما يذهبون إليه. للاستشفاع به في يوم الموقف العظيم.

قال شيخ الإسلام الأنصاري: «والفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة، وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا، وإسكات اللسان عنها ذما أو مدحا، والسلامة منها طلبا أو تركا، وهذا هو الفقر الذي تكملوا في شرفه. الدرجة الثانية الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال، ويقطع شهود الأحوال، ويمحص من أدناس مطالعة المقامات. والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع في يد التقطع الوحداني والاحتباس في بيداء قيد التجريد وهذا فقر الصوفية» (١).

الغنى الحقيقي لا يكون إلا بالله:

ولما كان الفقر إلى الله سبحانه هو عين الغنى به- فأفقر الناس إلى الله أغناهم به، وأذلهم له وأعزهم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله- كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه متلازمين متناسبين، فنذكر فصلا نافعا في الغنى العالي. واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع، وكما أن كونه مخلوقا أمر ذاتي له فكونه فقيرا أمر ذاتي له كما تقدم بيانه، وغناه أمر نسبي إضافي عارض به، فإنه استغنى بأمر خارج عن ذاته فهو غني به فقير إليه، ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته، فهو الغني بذاته عما سواه، وهو الأحد الصمد الغني الحميد.

تقسيم الغنى إلى عال وسافل:

والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال. فالغنى السافل الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث وهذا أضعف الغنى، فإنه غنى بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأن الغنى بها كان حلما فانقضى، ولا همة أضعف من همة من رضي بهذا الغنى الذي هو ظل زائل. وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون، وإياه يطلبون، وحوله يحرمون، ولا أحب إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده. قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٥).

يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمنا، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر. وهذا الغنى محفوف بفقرين: فقر قلبه، وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما. فحقيق بمن نصح نفسه ألا يغتر به ولا يجعله خادما من خدمه لا مخدوما له، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق، أو يجعلها خادمة لغيرة [(١)].

المستحق اسم الغني:

ومتولي تدبيره، فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علة منازعته لأحكام الله سبحانه ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ، استحق أن يكون غنيا بتدبيره مولاه مفوضا إليه لا يفتقر قلبه إلى غيره ولا يسخط شيئا من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه فتكون مخاصمته لله وبالله،ومحاكمته إلى الله، كما كان النبي -ﷺ- يقول في استفتاح صلاة الليل: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت**»[(٢)] فتكون مخاصمة هذا العبد الله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة: ما انتقم رسول الله -ﷺ- لنفسه قط[(٣)].

(١) طريق الهجرتين (ص ٥٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٢٠) في الجمعة، باب: التهجد بالليل، ومسلم (٧٦٩) في صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٣) طريق الهجرتين (ص ٦٥).

الفاطر

قال الله -جل ثناؤه-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن أبا بكر -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال -صلى الله عليه وسلم-: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشِرْكِه. قله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»(٢).

قال الحليمي في معنى الفاطر: إنه فاتق المرتتق من السماء والأرض. قال الله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠]، فقد يكون المعنى كانت السماء دخانًا فسواها، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٢٩]، وكانت الأرض غير موجودة فدحاها، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات:٣١]، ومن قال هذا قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء ٣٠]، معناه: أو لم يعلموا. وقد يكون المعنى ما روي في بعض الآثار عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠]، قال فتقت السماء بالغيث، وفتقت الأرض بالنبات. قال الحليمي: والإقرار بالإبداع يأتي على هذا المعنى ويقتضيه.

وقال أبو سليمان الفاطر، هو الذي فطر الخلق، أي ابتدأ خلقهم كقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥١]، ومن هذا قولهم: فطر ناب البعير، وهو أول ما يطلع. وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لم أكن أعلم معنى فاطر السموات والأرض حتى اختصم أعربيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يريد استحدثت حفرها(٣).

---

(١) الأنعام: ١٤، وغير موضع، بل هناك سورة بهذا الاسم. وهي سورة فاطر

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٦، ٢٧) بتصرف.

فالق الإصباح وفالق الحب والنوى

ورد بهما التنزيل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام:٩٥]، ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «**كان رسول الله - ﷺ - يأمرنا إذا أخذنا مضاجعنا أن نقول اللهم رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى**»(١) الحديث، وقد تقدم ورواه عن فاطمة -رضي الله عنها-، ولم يأت في عداد الأسماء في حديث أبي هريرة وهو متفق عليه، وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو فيقول: «**اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا اقض عني الدين وأغنني من الفقر وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك**»(٢) وكان سفيان إذا طاف يقول: (يا فالق الإصباح أنت ربي وأنت مولاي وأنت حسبي)؟.

ويجوز إجراؤه على من دون الله.

والفلق الشق. فلقت الشيء فلقًا: شققته. والفلق -بالتحريك- الصبح بعينه، يقال: فلق الصبح فالقه. وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، فيقال: الصبح - ومعناه أعوذ بفالق الإصباح من شر ما يجيء به الليل والنهار، ويقال: الخلق كله وقيل: الصبح والصباح أول النهار وكذلك الإصباح فالمعنى فالق الصبح كل يوم، يريد الفجر والإصباح مصدر الصبح والمعنى شاق الصبح أي عن الظلام وكاشفه. وقال الضحاك: فالق الإصباح: فالق النهار فالله سبحانه فالق الحبِّ والنوى وفالق الإصباح أي شاقها بعد ظلمة الليل وهو عرض يبسطه الله تعالى على الهواء شيئًا بعد شيء فلا يزال يتزيد حتى تطلع الشمس فينتشر الضوء إلى أن يغيب الشفق فيعقبه الظلام. وأما فالق الحب والنوى فيشق النواة الميتة فيخرج منها ورقًا أخضر وكذلك الحبة، ويخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبة وهذا معنى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم:١٩]، عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقال ابن عباس معنى فالق: خالق. وقال

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣) في الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٢) ضعيف: أخرجه مالك (١/٢١٢) عن يحيى بن سعيد بلاغًا.

مجاهد: عني بالفلق الشق الذي في الحب وفي النوى وهذا كله مما لا يقدر عليه إلا الله وحده. والنَّوى جمع نواة. ويجري في كل ماله عجم كالمشمش والخوخ وغيرهما.

وتضمن هذا الاسم جميع الصفات من الحياة والقدرة والعلم والإرادة وغيرها من الصفات.

وليست الحبة والنواة موجبتين للنبات كما زعم بعض الطبائعيين بل نسبة الحبة والنواة إلى النبات كنسبة النطفة إلى النِّسمة. فكما أن الله سبحانه ينزل النسمة من أمره على النطفة فيكون بمجموعهما الإنسان إنسانًا والبهيمة بهيمة كذلك يُنزل الله سبحانه من أمره على النواة والحبة ما يخرج به النبات فيكون نباتًا ظاهرًا بعد أن كان في الغيب عدمًا. وقد يخرج الله النبات من التراب بل من الحجر الصلد دون حبة ولا نواة كما أخرج من شاء من بني آدم دون نطفة فأين ضل الطبيعي عن هذه الحكمة وجهل اتساع القدرة ونظر إلى الامتزاج والتولد في عالم العناصر ولم ينظر إلى السر المستكن في قدرة القادر. وإنما يؤمن بهذا أهل البصائر. ولذلك كان الحبر على بن أبي طالب كثيرًا ما يجعل قَسَمَه لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة. لما فيهما من الحكمة التي لا يعلمها إلا العلماء بأمر الله -عز وجل-.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا خالق على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له وأنه القادر على كل ما ذكرناه بكل اعتبار وفلق قلوب عباده المؤمنين للإيمان به وشرفها لمعرفته وفتحها تفضلاً منه لا إله إلا هو سبحانه[1].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣٤٥/١).

الفتاح

نطق به القرآن الكريم فقال: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦].

واسم الفاعل: الفاتح، وجاء الفتـاح للمبالغـة، والفتـح في اللغـة: هـل مـا استغلق مـن المحسوسات والمعقولات، والله سبحانه هو الفتاح، لذلك فيفتح مـا تغلق على العبـاد مـن أسبابهم، فيغني فقيرًا ويفرج عن مكروب، ويسهل مطلبًا، وكـل ذلـك يسمى فتحًـا؛ لأن الفقير المتعلق عليه باب رزقه، يفتح بالغنى، وكذلك المتحاكمان إلى الحاكم يتغلـق عليهما وجه الحاكم فيفتحه الحاكم عليهما، ولذلك سمي الحاكم فتاحًا؛ لأنه يحل مـا استغلق مـن الخصومة، تقول: افتح بيننا، أي: احكم، ومنه قول شعيب -عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]، أي: احكم، و﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعـراف:٨٩]، أي: الحاكمين(١).

وروي عن ابن عباس قال: ما كنت أدري ما قوله: ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

سمعت بنت ذي يزن تقول: تعالَ أفاتحك، أي: أحـاكمك، وقـال الفـراء: أهـل عمـان يسمون القاضي: الفاتح، والفتح والفُتاحة بالضم: الحكم، والله -جل ثنـاؤه- الفـاتح: أي الحاكم، ومنه قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩]، معناه أن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:٢٨]، والفتح: النصر أيضًا، ومن قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩]، لأن الفاسق أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أخز اليوم أقطعنا للرحم. وفي روايـة اللهم انصر أفضل الدينين عندك وأرضاه لديك، فاستفتح بذلك فحكـم الله بينهـم بـالحق، واستجاب دعوتهم وكانت عليه لا له(٢).

وهذا الاسم يختص بالقضاء بين العباد بالقسط والعـدل وقـد حكـم الله بـين عبـاده في الدنيا بما أنزل في كتابه وبيَّن في سنة رسوله -ﷺ-، وكل حاكم إما أن يحكم بحكـم الله تعالى أو بغيره، فإن حكم بحكم الله فأجره على الله، والحاكم في الحقيقـة هـو الله تعـالى، وإن حكم بغير حكم الله فليس بحاكم، إنما هو ظـالم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، فيجب علـى كـل مكلـف أن يعتقـد أن لا فـاتح ولا حاكم على الإطلاق إلا الله تعالى.

وإذ لا فاعل إلا الله، ولا حاكم إلا الله، فلا ينبغي لمسلم أن يعتقد أن الحكم لغـير الله تعالى، ولا أن يبتغي حكمًا غير حكم الله ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/٩).

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٢٠/١).

إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام:١١٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧]، ثم يجب عليه أن ينقاد إلى حكم الله وإلى من حكم به عليه قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور:٤٧-٥٢].

ثم يجب عليه أن يعلم أن الله سبحانه هو الفتاح لكل مستغلق، وأنه الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده ويفتح المنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ليبصروا الحق، ويشرح صدورهم بعد الضيق، ويفتح عليهم كل مشكل غلق، قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر:٢٢]، وهذا الفتح والشرح ليس له حد، وقد أخذ كل مؤمن منه بحظ، ففاز منه الأنبياء بالقسم الأعلى، ثم من بعدهم الأولياء، ثم العلماء، ثم عوام المؤمنين، و لم يخيب الله منه سوى الكافرين.

فيا من فتح الله أقفال قلبه، وأفاض عليه نورًا من عنده، حل أقفال القلوب الجاهلة بمفاتيح العلوم، وكن فتاحًا، كما فتح الله عليك ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص:١١٧]، وإن كنت لم تصل إلى هذا المقام، وفتح عليك من الرزق الظاهر رزق الأشباح، فكن ذا يد سمحة، وقلب فتاح، فإنما تنفق من خزائنه التي لا تغلق ولا يضيع لها مفتاح، وإن كنت قد عدمت هذا فاسع أن تكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر كما قال - ﷺ -: «**إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه**»[(١)(٢)].

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٢٣٧) في المقدمة، باب: من كان مفتاحًا للخير من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-، وله شاهد أخرجه ابن ماجه (٢٣٨) فيما تقدم من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٢٢٣): حسن.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٢٣/١).

القادر

قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الموْتَى﴾ [القيامة:٤٠]، وقال: ﴿بَلى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-: «**أن النبي -ﷺ- كان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الموْتَى﴾**[القيامة:٤٠]، **قال: بلى. وإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾** [التين:٨]، قال: **بلى**»[١].

قال الحليمي -رحمه الله-: وهذا على معنى أنه لا يعجزه شيء، بل يستتب له ما يريد على ما يريد، لأن أفعاله قد ظهرت، ولا يظهر الفعل اختيارًا إلا من قادر غير عاجز، كما لا يظهر إلا من حي عالم[٢].

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في الشعب، كما في «ضعيف الجامع» (٤٤٤٦).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٢١).

القاهر القهّار

بل القهر والوحدة متلازمان: فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار، ومن سواه مربوب مقهور، له ضد ومناف ومشارك: فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تصادمها وتكسر سورتها وتذهب بها، وخلق الماء وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره، وخلق النار وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها وخلق الحديد وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته وخلق الحجارة وسلط عليها الحديد يكسرها ويفتتها وخلق آدم وذريته وسلط عليهم إبليس وذريته، وخلق إبليس وذريته وسلط عليهم الملائكة يشردونهم كل مشرد ويطرودنهم كل مطرد وخلق الحر والبرد والشتاء والصيف وسلط كلا منهما على الآخر يذهبه ويقهره وخلق الليل والنهار وقهر كلا منهما بالآخر، وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر لكل منه مضاد ومغالب.

فاستبان للعقول والفطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد وأن تمام ملكه إيجاد العالم على هذا الوجه وربط بعضه على بعض وإحواج بعضه إلى بعض وقهر ببعضه ببعض وابتلاء بعضه ببعض وامتزج خيره بشره وجعل شره لخيره الفداء، ولهذا يدفع إلى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له: هذا فداؤك من النار.

وهكذا المؤمن في الدنيا يسلط عليه الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداء له من شرور أكثر منها في هذا العالم أيضا، فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير[1].

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٣٣).

وأنه سبحانه لا يعاقب أحدا بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه وأنه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور يطاع فيشكر ويعصى فيغفر، ولا أحد أحب إليه العذر منه، ولا أحد إليه الإحسان منه، فهو محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين جميل يحب الجمال، طيب يحب كل الطيب، نظيف يحب النظافة، عليم يحب العلماء من عباده، كريم يحب الكرماء، قوي المؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، بر يحب الأبرار، عدل يحب أهل العدل حيي ستير يحب أهل الحياء والستر، غفور عفو يحب من يعفو عن عباده ويغفر لهم، صادق يحب الصادقين، رفيق يحب الرفق، جواد يحب الجود وأهله، رحيم يحب الرحماء وتر يحب الوتر، ويحب أسماءه وصفاته ويحب المتعبدين له بها ويحب من يسأله ويدعوه بها ويحب من يعرفها ويعقلها ويثني عليه بها ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح عن النبي -ﷺ-: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل مبشرين ومنذرين**»(١) وفي حديث آخر صحيح: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم**»(٢).

ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت. ولما كان -سبحانه- يحب أسماءه وصفاته كان أحب الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، وأبغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها، فإنما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأن اتصافه بها ظلم، إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروج من اتصف بها من ربقة العبودية ومفارقته لمنصبه ومرتبته، وتعديه طوره وحده، وهذا خلاف ما تقدم من الصفات كالعلم والعدل

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٣٤) في التفسير، باب: قوله: ﴿**ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾، ومسلم (٢٧٦٠) في التوبة، باب: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

والرحمة والإحسان والصبر والشكر فإنها لا تنافي العبودية، بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته، إذ المتصف بها من العبيد لم يتعد طوره ولم يخرج بها من دائرة العبودية. والمقصود أنه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، له كل ثناء حسن ولا يصدر عنه إلا كل فعل جميل، ولا يسمى إلا بأحسن الأسماء ولا يثنى عليه إلا بأكمل الثناء وهو المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام على كل ما قدره وخلقه، وعلى ما أمر به شرعه [(١)].

(١) طريق الهجرتين (ص٢١١).

القريب

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال -جل وعلا-: ﴿**إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**﴾ [سبأ:٥٠].

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي -ﷺ- كلما أشرفنا على وادٍ هللنا وسبحنا وارتفعت أصواتنا فقال النبي -ﷺ-: «**يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنه معكم سميع قريب**»(١).

وفي رواية: «**إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

قال الحليمي: ومعناه أنه لا مسافة بين العبد وبينه، فلا يسمع دعاءه أو يخفى عليه حاله، كيفما تصرفت به كان ذلك يوجب أن يكون له نهاية، وحاشا له من النهاية.

وقال الخطابي: معناه أنه قريب بعلمه من خلقه قريب ممن يدعوه بالإجابة(٢).

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٩٢) في الجهاد والسير، باب: ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ومسلم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٤٠) بتصرف.

القوي

قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠، ٧٤].

قال أبو سليمان: القوي قد يكون بمعنى القادر، ومن قوي على شيء فقد قدر عليه، وقد يكون معناه التام القوة الذي لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال، والمخلوق وإن وصف بالقوة فإن قوته متناهية، وعن بعض الأمور قاصرة[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٣).

الكاشف

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:١٧، يونس:١٠٧].

قال الحليمي: ولا يدعى بهذا الاسم إلا مضافًا إلى شيء، فيقال: يا كاشف الضر أو كاشف الكرب، ومعناه: الفارج والمجلي يكشف الكرب ويجلي القلب، ويفرج الهم ويزيح الضر والغم(١).

❁❁❁

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٢) بتصرف.

الكافي

وقد ورد الكتاب بهذا، قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وعن أنس -رضي الله عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤدي**»(١).

لأنه إذا لم يكن له في الإلهية شريك، صح أن الكفايات كلها واقعة به وحده، فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، والرغبة إلا إليه، والرجاء إلا منه(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٥) في الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١٥) بتصرف.

الكبير المتكبر

وكذلك الكبير من أسمائه، والمتكبر.

قال قتادة وغيره: هو الذي تكبر عن السوء.

وقال أيضاً: الذي تكبر عن السيئات.

وقال مقاتل: المتعظم عن كل سوء.

وقال أبو إسحاق: الذي يكبر عن ظلم عباده[1].

---

(١) شفاء العليل (ص ٣١٩).

الكريـم

نطق به القرآن اسمًا معرفًا ومنكرًا، فقال وقوله الحق: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ**﴾ [الانفطار:٦]، ﴿**إِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[1] [النمل:٤٠].

قال الحليمي في معنى «**الكريم**»: إنه النفاع، من قولهم شاة كريمة، إذا كانت غزيرة اللبن تدر الحالب ولا تقلص بأخلافها، ولا تحبس لبنها، ولا شك في كثرة المنافع من الله -عز وجل- بها على عباده ابتداءً منه وتفضلاً، فهو باسمه الكريم أحق.

قال أبو سليمان الخطابي: من كرم الله -سبحانه وتعالى- أنه يبتدئ بالنعمة من غير استحقاق، ويتبرع بالإحسان من غير استثابة، ويغفر الذنب ويعفو عن المسيء، ويقول الداعي في دعائه: يا كريم العفو[2].

قال أبو سليمان: وقيل: إن من كرم عفوه أن العبد إذا تاب عن السيئة محاها عنه وكتب له مكانها حسنة.

قلت[3]: وفي كتاب الله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان:٧٠]، وقد ثبت عن النبي -ﷺ- في الإخبار عن عفو الله ما هو أبلغ من ذلك، وهو فيما أخبرنا أبو عبدالله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا الحسن بن علي بن عفان العامري ثنا عبدالله ابن نمير عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتي به، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه -يعني وارفعوا عنه كبارها- فيعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٩٩/١).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٣).

(٣) هو البيهقي.

وكذا؟ فيقول نعم. لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، قال: فيقال: فإن لك مكان كل سيئة حسنة. قال: فيقول: ربّ قد عملت أشياء ما أراهـا هنـا. قال: فلقد رأيت رسول اللـه -ﷺ- ضحـك حتـى بـدت نواجـذه»[١]. رواه مسـلم فـي الصحيح عن محمد بن عبد الله بن نمير عن أبيه[٢].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠) في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٤-٥٥).

الكفيل

قال الله -عز وجل-: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل: ٩١].

وروي في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الرجل الذي أسلف قال: «**كفى بالله كفيلا**»[١].

قال الحليمي: ومعناه المتقبل للكفايات، وليس ذلك بعقد وكفالة ككفالة الواحد من الناس، وإنما هو على معنى أنه لما خلق المحتاج وألزمه الحاجة وقدر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة العلة وإقامة الكفاية، لم يخله من إيصال ما علق بقاؤه به إليه، وإدراره في الأوقات والأحوال عليه، وقد فعل ذلك ربنا -جل ثناؤه-، إذ ليس في وسع مرتزق أن يرزق نفسه، وإنما الله جل ثناؤه يرزق الجماعة من الناس والدواب والأجنة في بطون أمهاتها والطير التي تغدو خماصًا وتروح بطانًا والهوام والحشرات والسباع في الفلوات[٢][٣].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٩١) في الكفالة، باب: الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها تعليقًا، ووصله أحمد في «مسنده» (٣٤٨/٢).

(٢) الفلوات: جمع فلاة، وهي الصحراء.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٧).

اللطيف

واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف، كما قال أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ [الكهف:١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقاً ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محناً ومصائب، وباطنها نعماً وفتحًا جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، وقد قال -ﷺ-: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا خيراً له، إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»(١).

فالقضاء كله خيرٌ لمن أعطى الشكر والصبر جالباً ما جلب. وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه تعالى وسلم من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم وسعادتهم.

فتأمل قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدر له سبباً أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سبباً أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه، فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الفارين منه وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩) في الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، من حديث صهيب -رضي الله عنه-.

وهذا كله مما بين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته. فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها وإخراجه بسببها من الجنة من حكمة بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها. وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب.

وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها. وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله ويحصر اللسان عن التعبير عنه، وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علماً بذلك كذلك قبل السموات والأرض وقدره وكتبه عنده، ثم يأمر ملائكته بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد فيطابق حاله وشأنه لما كتب في الكتاب، ولما كتبته الملائكة، لا يزيد شيئاً ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد كما كتب، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحج:٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم وما هم عاملون وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعلموها.

فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذاراً إليهم وإقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا، وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا، فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار.

وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بقضائه وقدره.

قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الكهف:٨].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧].

فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضاً فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وأخبر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده عليه، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجوداً عياناً بعد أن كان غيباً في علمه.

فابتلى أبوي الأنس والجن كلاً منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه، وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه، فلهذا قال للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

واستمر هذا الابتلاء في الذرية إلى يوم القيامة فابتلى الأنبياء بأممهم، وابتلى أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله: إني مبتليك ومبتل بك، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:٢٠].

وفي الحديث الصحيح: «أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم، أبرص وأقرع وأعمى[(١)]، فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم. فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيراً فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه شكراً لله، وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحد ما كان عليه من قبل ذلك من سوء الحال والفقر وقالا في الغنى: إنما أوتيته كابراً عن كابر.

وهذا حال أكثر الناس، لا يعترف بما كان عليه أولا من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه.

ولهذا ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال حتى جعله بشراً سوياً يسمع ويبصر ويقول ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه»، كما قال

---

(١) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، ومسلم (٢٩٦٤) في الزهد والرقائق، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٨،٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبوني ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم. ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة:٥٧].

وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بالمعاد، وهو سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل من قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾. إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٤-٨١].

فذكرهم بأصول النعم وفروعها وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم. ثم أخبر عمن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣].

قال مجاهد: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا.

وقال الفراء وابن قتيبة: يعرفون أن النعم من الله ولكن يقولون هذه بشفاعة آلهتنا.

وقالت طائفة: النعمة هنا محمد - ﷺ - وإنكارها جحدهم نبوته، وهذا يروى عن مجاهد والسدي. وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابراً عن كابر جاحداً لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكرهما الملك بنعم الله عليهما فأنكرا وقالا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر، فقال: إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما. وكونهما موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم، إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمته.

وأما قول الآخرين: «لولا فلان لما كان كذا»، فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، وغايتها أن تكون جزءاً من أجواء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد وجعله سبباً والمسبب من إنعامه.

وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسببيته، وقد يجعل لها معارضا يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا، فتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه.

فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلا أن يشف له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذم الله سبحانه من آتاه شيئا من نعمه، فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨]، وفي الآية الأخرى:

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر:٤٩].

وقال البغوي: على علم من الله أني له اهل. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي. وقال آخرون: على علم من الله أني أهل له. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه

بأني أهلـه. وقـال آخـرون: بـل العلـم لـه نفسـه، ومعنـاه أوتيتـه علـى علـم منـي بوجـوه المكاسب. قاله قتادة وغيره. وقيل: المعنى قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيـا فلـي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى مجاهد: أوتيته علـى شـرف. قـال تعـالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩] .

أي: النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيهـا ومنحـة نمتحنـه بهـا، لا يـدل علـى اصطفائـه واجتبائه، وأنه محبوب لنا مقرب عندنا. ولهذا قال في قصة قارون: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ [القصص:٧٨].

فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل علـى رضـاء الله سبحانه عمـن آتـاه ذلـك وشرف قدره وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر ممـا أتـى قـارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطة علو أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضـاء واصطفاء لهم على غيرهم. ولهذا قال في الآية الأخـرى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾. أي: النعمـة فتنة لا كرامة: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر:٥٠و٥١].

أي: قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا. قال ابن عباس: كانوا قـد بطروا نعمة الله إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا. وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠].

المعنى أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا، ولم يكن كذلـك، لأنهـم وقعـوا فـي العذاب ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئا، وتبيـن أن تلـك النعم لـم تكـن لكرامتهـم علينـا وهوان من منعهم إياها.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قولهم إنما آتانا الله ذلـك لكرامتنـا عليـه وأنَّـا أهلـه أحبط أعمالهم، فكنى عن إحباط العمل بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠].

ثم أبطل سبحانه هذا الظـن الكـاذب منهـم بقولـه: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢] .

(١) الزمر: ٤٩، وفي غير موضع من القرآن.

والمقصود أن قوله: ﴿عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

إن أريد به علمه نفسه كان المعنى: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها. وإن أريد به علم الله، كان المعنى: أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق، وأني أهله: وذلك من كرامتي عليه. وقد يترجح هذا القول بقوله: «أوتيته» ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل على اعترافه بأن غيره آتاه إياه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩].

أي: محنة واختبار. والمعنى أنه لم يؤت هذا لكرامته علينا بل أوتيته امتحانا منا وابتلاء واختبارا هل يشكر فيه أم يكفر. وأيضا فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥،١٦].

فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظن أنه لكرامته عليه، فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته ولم يضفها إلى فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها، فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحدا لها. فإذا قال: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك، فقد أضافها إلى نفسه وأعجب بها كما أضافها إلى قدرة الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]. فهؤلاء اغتروا بقوتهم وهذا اغتر بعمله، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه. وعلى التقدير الثاني يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام الله عليه لكونه أهلا ومستحقا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها على الله أن ينعم عليه وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره فقد جعل سببها ما اتصف به هؤلاء به هو لا ما قام بربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر، ليس ذلك جزاء على ما هو منه، ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خيرا قام به فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجوده وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، فهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد، وإن حصلت يكسبه فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن الله وحده حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه سبحانه فلا يطيق أحد أن يشكره إلا

بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك علي تستوجب شكرا آخر؟! فقال: الآن شكرتني يا داود(١). ذكره الإمام أحمد.

وذكر أيضاً عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة من شعري لسانين يذكرانك بالليل والنهار والدهر كله لما أدوا ما لك علي من حق نعمة واحدة.

والمقصود: أن حال الشاكر ضد حال القائل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

ونظير ذلك قوله: ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاء الخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:٤٩، ٥٠]،

قال ابن عباس:يريد من عندي. وقال مقاتل: يعني أنا أحق بهذا. وقال مجاهد: هذا بعلمي وأنا محقوق به. وقال الزجاج: هذا واجب بعلمي استحققته. فوصف الإنسان بأقبح صفتين: إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك.

ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالعبث فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف:٣٦].

ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن يبعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً(٢).

(١) لم أجده.

(٢) شفاء العليل (ص ٨٠).

المبدئ المعيد

قال -جلا وعلا-: ﴿هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣].

قال أبو سليمان المبدئ الذي أبدأ الإنسان أي ابتدأه مخترعًا، فأوجده من عدم، يقال: بدأ وأبدأ وابتدأ بمعنى واحد، والمعيد: الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ثم يعيدهم بعد الموت إلى الحياة كقوله -عز وجل-: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١) [البقرة:٢٨]،

❁❁❁

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٧٤) بتصرف.

المتعـال

قال الله -عز وجل-: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩].

وهو بمعنى العلي، مع نوع من المبالغة[١].

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى للرازي.

المتين

قال الله -عز وجل-: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات:٥٨].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: أقرأني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إني أنا الرزاق ذو القوة المتين**»(١).

قال الحليمي: وهو الذي لا تتناقص قوته فيهن ويفتر، إذ كان يحدث ما يحدث في غيره لا في نفسه، وكان التغيير لا يجوز عليه.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿**الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات:٥٨]، يقول: الشديد(٢).

❁❁❁

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٩٩٣) في كتاب الحروف والقراءات، والترمذي (٢٩٤٠) في أول القراءات، وأحمد في مسنده (١/٣٩٤، ٣٩٧، ٤١٨)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٣).

المجيب

وقد ورد به القرآن في قوله الحق ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات:٧٥]، وجاء وصفًا منكرًا فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]، وورد فعلاً في عدة مواضع منها قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

وهو من أجاب يجيب فهو مجيب والمصدر الإجابة، وأصله من الجواب، والجيب: هو القطع، ومنه قولهم: جبت الفلاة أجوبها جوبًا. واجتبتها: قطعتها، فأنا جايب، وبذلك سمي جيب القميص، قال الله -عز وجل-: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩]، أي قطعوا الصخر، واستاقوا الوادي فيه، فإذا كان بمعنى الإجابة كان بمعنى القطع، فكان مجيب الدعوة قطع ما بينه وبين الداعي بالإجابة منه له فاستاق الغياث إليه على ذلك البعد(١).

قال الحليمي: وأكثر ما يدعى بهذا الاسم مع القريب فيقال: القريب المجيب، أو يقال: مجيب الدعاء ومجيب دعوة المضطرين، ومعناه: الذي ينيل سائله ما يريد، لا يقدر على ذلك غيره(٢).

---

(١) الأسني في شرح أسماء الله الحسنى (١/٢٨٨-٢٨٩) بتصرف.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٧).

المحســن

لم يرد في القرآن اسمًا وإنما ورد فعلاً قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف:١٠٠]، ومعناه راجع إلى معنى المفضل وذي الفضل، والمنان، والوهاب، قال ابن العربي: وأما محسن ومجمل ومفضل (فلم يرد بها توقيف أكثر من أن الفعل منها قد جاء، والتصريف لها قد ورد. ولكنها ألفاظ كريمة المعاني، ولا يسمَّى سبحانه إلا بما سمِّي به نفسه)، فمما وردقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠]، وجاء في الحديث: «جميل»[١]. وقيل إنه بمعنى «مجمل» وجاء: ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢]. وأما المنعم فقد جاء فعله في القرآن كثيرًا، قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [القصص:١٧]، والنعمة عبارة عن كل عطاء فيه منفعة، وإن لم تحسن فيه العاقبة والدليل عليه قوله تعالى للكفار: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٦٩]، قلت: قد ورد المنعم المفضل كما ذكرنا في الاسم قبله وإليهما يرجع المحسن اسم فاعل من أحسن. ولا خفاء بإحسان الله تعالى إلى خلقه ومنِّه عليهم بما غمرهم من الإحسان والفضل والجود والإنعام. قال الأقليشي: وذلك ينحصر في ثلاثة أقسام: قاعدة وواسطة ومُتممَة، أما القاعدة فتشتمل من الإحسان والإنعام والمنِّ على ثلاث شعب.

الشعبة الأولى: إخراجه [الإنسان] من عدم إلى وجود بمقتضى صفة الكرم والجود. وقد ذكره بهذا في معرض الامتنان فقال -عز وجل-: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان:١].

الشعبة الثانية: بعد خلقه تصويره في صورة آدم وهي أحسن صور العالم، وقد امتنَّ عليه بذلك في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤]، إلى غير ذلك من الآي المتكررة في هذا النوع.

الشعبة الثالثة: جعله إياه عاقلاً لا معتوهًا ولا سفيهًا حتى يمتاز من البهائم، وقد ذكره بهذا [ممتنًا] عليه فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان:٣]،

(١) صحيح: وقد تقدم.
(٢) البقرة: ١٠٥.

وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، إل غير ذلك من هذه الأمثلة.

وأما الواسطة: فهي للقسمين رابطة وتشتمل من الإحسان والإنعام والمنِّ على ست شعب:

الأولى: هدايته إياه للإسلام وهذا أعظم الإحسان والإنعام، وهو المراد بما ذكر في القرآن من الهدى والنور، والشرح للصدور، وغير ذلك من هذا النوع، قلت: ومن هذا المعنى ما روي عن وهب بن منبه قال: رءوس النعم ثلاثة، فأولها: نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.

الثانية: إحسانه إليه أن جعله من أمة محمد -ﷺ- خير الأنبياء، وخير الأمم. وعلى هذا نبه بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، أي كنتم في الغيب حتى خرجتم إلى الوجود على وفاق العلم.

الثالثة: إحسانه إليه بأن حفّظه كتابه العظيم حتى يكون معبِّرًا عن كلام ربه بلسانه وراغبًا له بجنانه وهذا من أعظم إحسانه، وقد قال ابن عباس في قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، أنه القرآن.

الرابعة: علمه بعد حفظه من معانيه ومن شريعة نبيه ومن حقائق علمه أثرًا ونظرًا وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

الخامسة: ما أحسن به إليه وأنعم عليه من العمل بما علم وهذا هو ثمرة العلم وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

السادسة: إحسانه إليه وتوفيقه حتى ينشر ما علم في عباده، ويكون نور بلاده يستضاء بسراجه ويقتفي واضح منهاجه، وبهذا يستحق أن يدعى عظيمًا في ملكوت السماء، ويكون من أشراف العلماء الوارثين للأنبياء. وأما المتممة فهو ما أنعم به عليه وأحسن إليه من إظهار عوارف، وإدرار لطائف شرف بها نوعه وأكمل بها وصفه ويشتمل على أربع شعب:

الأولى: ما أنعم به عليه من كمال الصورة واعتدال الخلقة وفصاحة اللسان وسلامة الهيئة من تشوه ونقص عضو ولحوق خلل حتى يبقى صحيحًا سليمًا، ويسلك من طاعة

الله طريقًا قويمًا، وتستحسن الأبصار والبصائر صورته ولا تمجُّ الطباع خلقته. وهذه نعمة من الله عليه وهي موهبة وخصوصية.

الثانية: ما أنعم به عليه من انتظام الحال واتساع المال حتى لا يحتاج إلى أحد من الخلق في اكتساب الرزق ويحتاج إليه غيره فيعمهم خيره. وهذه نعمة يجب شكرها إذ ليس كلُّ أحدٍ يُعْطاها.

الثالثة: ما أنعم به عليه من عصبة وعشيرة، وأصحاب وأتباع تآلفت قلوبهم على محبته واصطفائه، وقاموا جُنّة بينه وبين أعدائه، فلم يطرقه من الأعداء طارقٌ، بل عاش في أمن من جميع الخلائق، يُنْظَرُ إليه بعين الإجلال والوقار، وتُقْضى حوائجه في قُطره وفي جميع الأقطار، وتُثْنى عليه الخناصر، وتفخرُ بذكره الأعاصر.

الرابعة: ما ينعم به عليه من المرأة الصالحة الموافقة، فتسكن إليها نفسه، ويتم له بها أنسه، ويكثر منها نسله حتى يكون من ذريته في أمة محمد -ﷺ- عدد وافر كلهم لله موحد، ولآلائه ذاكر شاكر، فيشتد بهم في الدنيا أزره، وينحطُّ بهم في الآخرة وِزْرُه، قلت وشعبة.

الخامسة: وهي ما أنعم عليه من صحة الجسم وفراغ البال، قال -ﷺ-: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**»[1].

وقال وهب بن منبه، عَبَدَّ الله تعالى عابد خمسين سنة. فأوحى الله إليه أن قد غفرت لك. قال: أي رب وما تغفرُ لي ولم أُذنِبْ؟ فأذن الله لعرقٍ في عنقه فضرب عليه فلم ينم ولم يصل ثم سكن فنام فأتاه الملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق فقال له الملك: إن ربك يقول عبادتك خمسين سنة تعدل سكون هذا العرق ذكره أبو نعيم الحافظ في باب وهب بن منبه[2].

❁ ❁ ❁

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤١٢) في الرقاق، باب، ما جاء في الصحة والفراغ، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٥١٧/١).

المحيط

قال الله -عز وجل-: ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:٥٤].

قال الحليمي: ومعناه أنه الذي لا يقدر على الفرار منه، وهذه الصفة ليست حقًا إلا لله -جل ثناؤه-، وهي راجعة إلى كمال العلم والقدرة وانتفاء الغفلة والعجز عنه.

وقال أبو سليمان: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿وأحصى كل شيء عددًا﴾(١) [الجن:١٢،١٣].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٠).

المدبر

وفي الكتاب: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس:٣].

قال الحليمي: والمدبر معناه مصرف الأمور على ما يوجب حسن عواقبها، واشتقاقه من الدبر، فكان المدبر هو الذي ينظر إلى دبر الأمور فيدخل فيها على علم بها، والله -جل جلاله- عالم بكل ما هو كائن قبل أن يكون، فلا يخفى عليه عواقب الأمور[١].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٧) بتصرف.

المصور

قال الله -جل ثناؤه-: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤].

قال الحليمي: معناه المهيئ لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه أو تخالف، والاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بما هو من لواحقه.

قال الخطابي: المصور الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل، وخلق الله -عز وجل- الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خلق يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها، جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به ذا صورة وهيئة ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، أخبرنا أبو الحسين بن بشران ببغداد، حدثنا إسماعيل بن الصفار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري قال أخبرني القاسم بن محمد أن عائشة -رضي الله عنها- أخبرته: «**أن رسول الله -ﷺ- دخل عليها وهي مستترة بقرام فيه صورة تماثيل، فتلون وجهه ثم أهوى إلى القرام فهتكه بيده، ثم قال: إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله تعالى**»(١). رواه مسلم، وأخرجه البخاري من وجه آخر عن أبي زرعة قال: دخلت أنا وأبو هريرة -رضي الله عنه- وغسل يديه حتى بلغ إبطيه وغسل رجليه حتى بلغ ركبتيه فقلت ما هذا يا أبا هريرة؟ قال إنه منتهى الحلية. قال فرأى مصورًا يصور في الدار فقال: قال رسول الله -ﷺ-: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا حبةً وليخلقوا ذرة**»(٢)(٣).

❁❁❁

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٠٧) في اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٥٣) في اللباس، باب: نقض الصور، ومسلم (٢١١١) في اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٧).

المحصي

وفي الكتاب: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ [الجن:٢٨].

قال الحليمي: ومعناه العالم بمقادير الحوادث ما يحيط به منها علوم العباد، وما لا يحيط به منها علومهم، كالأنفاس والأرزاق والطاعات والمعاصي، والقرب وعدد القطر والرمل والحصى والنبات وأصناف الحيوان والموات وعامة الموجودات، وما يبقى منها أو يضمحل ويفنى، وهذا راجع إلى نفي العجز الموجود المخلوقين عن إدراك ما يكثر مقداره، ويتوالى وجوده وتتفاوت أحواله عنه عز اسمه[1].

❁❁❁

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٤٢).

المحيي المميت

ومعناهما بيِّن. قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الجاثية:٢٦]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق:٤٣]، ولم يرد في القرآن المميت اسمًا وورد المحيي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الروم:٥٠]، وهما عند الترمذي. والصفتان فعليتان؛ لأن الإحياء والإماتة من فعل الله تعالى، قال الخطابي في معنى المحيي: هو الذي يحيي النطفة الميتة فتخرج منها النسمة الحية، ويحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها بعد المبعث، ويحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها بعد المبعث، ويحيي القلوب بنور المعرفة ويحيي الأرض بعد موتها بإنزال الغيث وإنبات الرزق: وقال في معنى المميت: هو الذي يميت الأحياء، ويوهن بالموت قوة الأصحاء الأقوياء. يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. تمدّح سبحانه بالإماتة، كما تمدّح بالإحياء، ليعلم أن مصدر الخير والشر والنفع والضر من قِبَلِه، وأنه لا شريك له في الملك، استأثر بالبقاء، وكتب على خلقه الفناء. قلت: وكما أن حياة القلوب بنور العلم والمعرفة ومجالسة الفضلاء والصالحين- كذلك موتها وقسوتها بالجهل والبعد عن الجُمعات والجماعات ومجمع الصالحين والذاكرين، ومتابعة الخيل واللهو بالصيد، والاحتيال في طلب الدنيا إماتة للقلوب بالغفلة وفي الحديث: «**من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن قرب من باب السلطان افتتن**»(١).

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه المحيي المميت على الإطلاق، لا ما ظنه النمرود اللعين وإخوانه من القدرية، حيث حاجه إبراهيم الخليل بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فقال له الكافر: و﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وعمد إلى رجل مسجون على الموت فأطلقه، وإلى حيٍّ فقتله فقال: هأنا قد أحييت وأمت، وقد أبطل في هذا القول، فإنه لم يخلق حياة ولا موتًا، وإنما اكتسب ما يكتسبه غيره من المخلوقين من تناول القتل، والمنة في العفو، وأعرض عن الدليل كذبًا في وجه الحجّة، وتلبيسًا على العامة. فعدل له الخليل إلى الأمر الذي لا يتعلق بكسب وهو تصريف الشمس ما بين مشرق ومغرب فبهت الذي كفر في قوله، وأخلفت حجته وقيل: إن

---

(١) لم أجده.

إبراهيم -عليه السلام- لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإمانة، وهو أمر له حقيقة ومجاز، قصد إبراهيم إلى الحقيقة، وفزع نمرود إلى المجاز، وموه على قومه فسلم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه إلى المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه، فبهت الذي كفر، وانقطعت حجته، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق، لأن ذوي الألباب يكذبونه. وفي الخبر أن الله تعالى قال: «**وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليُعْلَمَ أني أنا القادر على ذلك**»[١]، ثم أمر نمرود بإبراهيم فألقي في النار، وهكذا عادة الجبابرة أنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة فأنجاه الله من النار[٢].

❁❁❁

(١) ضعيف: ذكره القرطبي في تفسيره، (٣/١٨٥).

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٨٥).

الملك المليك

ومعنى الملك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال.

إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به. وكيف يوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعطي ولا يمنع ولا يعز ويذل ويهين ويكرم وينعم وينتقم ويخفض ويرفع ويرسل الرسل إلى أقطار مملكته ويتقدم إلى عبيده بأوامره ونواهيه. فأي ملك في الحقيقة لمن عدم ذلك.

وهذا يبين أن المعطلين لأسمائه وصفاته جعلوا مماليكه أكمل منه، ويأنف أحدهم أن يقال في أميره وملكه ما يقوله هو في ربه. فصفة مليكة الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلا به. والكل منه سبحانه فلم يتوقف كمال مليكه على غيره، فإن كل ما سواه مسند إليه، ومتوقف في وجوده على مشيئته وخلقه. يوضحه أن كمال ملكه بأن يكون مقارناً بحمده، فله الملك وله الحمد. والناس في هذا المقام ثلاث فرق:

فالرسل وأتباعهم أثبتوا له الملك والحمد. وهذا مذهب من أثبت له القدر والحكمة وحقائق الأسماء والصفات، ونزهه عن النقائص ومشابهة المخلوقات. ويوحشك في هذا المقام جميع الطوائف غير أهل السنة الذين لم يتحيزوا إلى نحلة ولا مقالة ولا متبوع من أهل الكلام.

والفرقة الثانية: الذين أثبتوا له الملك وعطلوا حقيقة الحمد، وهم: الجبرية نفاة الحكمة والتعليل، القائلون بأنه يجوز عليه كل ممكن، ولا ينزه عن فعل قبيح، بل إن كان ممكنًا فإنه لا يقبح منه، وإنما القبيح المستحيل لذاته، كالجمع بين النقيضين، فجوز عليه تعذيب ملائكته وأنبيائه ورسله وأهل طاعته، وإكرام إبليس وجنوده وجعلهم فوق أوليائه في النعيم المقيم أبداً، ولا سبيل لنا إلى العلم باستحالة ذلك إلا من نفى الخلف في خبره فقط فيجوز أن يأمر بمشيئته ومشيئة أنبيائه، والسجود للأصنام وبالكذب والفجور وسفك الدماء ونهب الأموال، وينهى عن البر والصدق والإحسان والعفاف. ولا فرق في نفس الأمر بين ما أمر به ونهى عنه إلا التحكم بمحض المشيئة، وأنه أمر

بهذا ونهى عن هذا، من غير أن يكون فيما أمر به صفة حسن تقتضي محبته والأمر به، ولا فيما نهى عنه صفة قبح تقتضي كراهته النهي عنه.

فهؤلاء عطلوا حمده في الحقيقة وأثبتوا له ملكاً بلا حمد، مع أنهم في الحقيقة لم يثبتوا له ملكاً، فإنهم جعلوه معطلاً في الأزل والأبد، لا يقوم به فعل البتة. وكثير منهم عطله عن صفات الكمال التي لا يتحقق كونه ملكاً ورباً وإلهاً إلا بها، فلا ملكًا أثبتوا ولا حمدًا.

الفرقة الثالثة: أثبتوا له نوعاً من الحمد وعطلوا كمال ملكه. وهم القدرية الذين أثبتوا نوعاً من الحكمة ونفوا لأجلها كمال قدرته.

فحافظوا على نوع من الحمد عطلوا له كمال الملك. وفي الحقيقة لم يثبتوا لا هذا ولا ذاك. فإن الحكمة التي أثبتوها جعلوها راجعة إلى المخلوق، لا يعود إليه سبحانه حكمها.

والملك الذي أثبتوه فإنهم في الحقيقة إنما قرروا نفيه لنفي قيام الصفات التي لا يكون ملكاً حقاً إلا بها. ونفي قيام الأفعال الاختيارية. فلم يقم به عندهم وصف ولا فعل، ولا له إرادة ولا كلام ولا سمع ولا بصر ولا فعل له ولا حب ولابغض، معطل عن حقيقة الملك والحمد.

والمقصود أن عموم ملكه يستلزم إثبات القدر، وألا يكون في ملكه شيء بغير مشيئته، فالله أكثر من ذلك وأجل. وعموم حمده يستلزم ألا يكون في خلقه وأمره ما لا حكمة فيه ولا غاية محمودة يفعل لأجلها ويأمر لأجلها. فالله أكبر وأجل من ذلك[1].

(١) شفاء العليل (١/٣٨٢).

المعز المذل

وهما يتبعان الخافض الرافع ولم يرد بهما القرآن اسمًا وإنما ورد فعلاً قال الله تعالى: ﴿تُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦]، ووردت بهما السنة في حديث أبي هريرة وأجمعت عليهما الأمة فكل من رفعه الله فقد أعزه وكل من خفضه فقد أذله.

يقال من ذلك أعز يعز إعزازًا فهو معز وأذل يذل إذلالاً فهو مذل. والإعزاز، والإذلال يكونان في الدنيا والآخرة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:١٩-٢١].

ونقيضه الشمال ووراء الظهر، قال الخطابي: أعز أولياءه وأظهرهم على أعدائه وأحلهم دار الكرامة في العقبى وأذل أهل الكفر في الدنيا بأن ضربهم بالرق والجزية والصغار وفي الآخرة بالعقوبة والخلود في النار فهما من أسماء الأفعال. وقال بعض العلماء أنه يكون معزًا من صفات الذات بمعنى أنه أخبر عن عزته فيكون أعز نفسه بمعنى أنه أخبر عن عزته. وهذا مما استبعده بعض العلماء والغالب أنه من صفات الأفعال أعز أولياءه بمدحه لهم كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وأذل أعداءه بإظهار ذمهم كما قال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، أعز أولياءه بأن خلق لهم توفيق الطاعة فلا عز إلا عز طاعته وأذلَّ العاصين بخذلانه حتى واقعوا المعصية. أعز أولياءه بعز القناعة وأذل غيرهم بالحرص على الدنيا، أعز أولياءه بالإخلاص في الأعمال، وأذل غيرهم بالرياء فيها. أعز أولياءه بترك الشهوات وأذل غيرهم بالوقوع فيها. وقيل إذا أراد الله -عز وجل- إعزاز عبده قربه من بساطه وأهَّله لمناجاته وإذا أراد الله إذلال عبده ربطه بشهواته وحال بينه وبين قربه ومخاطباته. يقال: إن فتحا الموصلي كان قاعدًا فسئل عمن يتابع الشهوات كيف صفته وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا إدام ومع الأخير خبزٌ مع كامخ فقال الذي لم يكن معه كامخ لصاحبه: أطعمني مما معك فقال: بشرط أن تكون كلبي فقال صاحبه: نعم فجعل خيطًا في فمه وجعل يجره كما يقاد الكلب فقال فتح للسائل: أما إنه لو رضي بخبزه ولم يطمع في كامخه لم يصر كلبًا

لصاحبه، وفي بعض الحكايات أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود -الطَّيْلاً-: «**يا داود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة**»، وحكي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ إليه خبزًا قفارًا ولم يكن له إدام فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له إدام يقدمه إلى أستاذه فقام الأستاذ وقال له: تعال معي وحمله إلى باب السجن فرأى الناس يضرب واحد ويقطع آخر ويعذب كل واحد منهم بنوع من العذاب فقال الأستاذ للتلميذ ترى هؤلاء هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار. وقيل إن رجلاً أخرج من السجن وفي رجليه قيد يسأل الناس فقال لإنسان أعطني كسرة فقال لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول:

الحرص داء قد أضر بمن ترى إلا قليلاً

كم من عزيز قد رأيت الحرص صيره ذليلاً

فتجنب الشهوات واحذر أن تراك لها قتيلاً

فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنًا طويلاً

وقال آخر:

اصبر على كسرة بملح ... فالصبر مفتاح كل زين

واقنع فإن القنوع عز ... لا خير في شهوة بدين

وحكي أن رجلاً خطر على باب أمير فرأى الناس محجوبين عنه إلا خادمًا كان يدخل عليه بلا حجاب فسأله عن حاله فقال إنه يدخل دار الحرم متى شاء بلا حجاب فقال: ولم؟ قال: لأنه مفقود الشهوة فقال الشيخ سبحان الله وعظني بعد سبعين سنة بِخَصيٍّ. من أراد الدخول بلا حجاب فعليه بترك الشهوة[1].

❁❁❁

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/ ٣٧٠).

المعطي المانع

روى المغيرة بن المغيرة بن شعبة: «**أن رسول الله -ﷺ- كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(١). أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما وقال -عليه السلام-: «**أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق**»(٢).

ولا خلاف في جواز إجرائهما على المخلوق وقدقال الله في ذم قوم كفار: ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون:٧].

يقال: منع يمنع منعًا فهو مانع وأعطى يعطى فهو معط، ويقال جبل مانع وحصن مانع: إذا تمنع به من لجأ إليه، ومنه قوله الحق: ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ**﴾ [الحشر:٢]، فالله سبحانه المانع المعطي بالحقيقة ومعنى الإعطاء والمنع بين، ولا يختص بشيء دون شيء. فالمنع في مقابلة الإعطاء وهو الذي أراد -عليه السلام- بقوله: «**اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت**»(٣). ومنع الله تعالى قد يكون في الدنيا والأخرى أما في الدنيا فقد يكون منع في ضمنه عطاء وقد يكون منع أعظم منه في البلاء. أما من منعه أعراض الدنيا فعلق قلبه بالله تعالى فقد أعطاه بهذا المنع أشرف النُهَي، ولذلك رغب في الفقر أولو النهي. وأما من منعه أسباب الدنيا فتقطعت نفسه عليها حسرة، ورأى المنع نقمة لا نعمة فهذا ممنوع الخير في الدارين. وأما من منعه في الدنيا معرفته وطاعته ولم يجعل ذكره بضاعته فهذا هو الممنوع على الحقيقة كل

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٤٤) في الأذان، باب: من لم ير رد السلام على الإمام، ومسلم (٥٩٣) في المساجد، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، من حديث المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢١٩٩) في البيوع، باب: إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ثم أصابته عاهة فهو من البائع، ومسلم (١٥٥٥) في المساقاة، باب: وضع الحوائج، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: وقد تقدم بنفس الصفحة برقم (١).

خير والذي يعود عليه من منع الدنيا في الأخرى أعظم ضير، ويتم له فيها أسباب المنع فيقطع عن السعادة أتم القطع ولا يكون له فيما أوتي من الدنيا نفع. قال الحليمي: المعطي هو الممكن من نعمه والمانع هو الحائل دون نعمه، قال: ولا يُدْعى الله -عز وجل- باسم المانع حتى يقال معه المعطي قال الخطابي: فهو يملك المنع والعطاء وليس منعه بخلاً منه ولكن منعه حكمة وعطاؤه جود ورحمة وقيل المانع هو الحافظ والحائط والناصر أي يمنع أولياءه أي يحوطهم ويحفظهم وينصرهم على عدوهم ويقال: فلان في منعة من قومه أي في جماعة تمنعه وتحفظه وتحوطه ومنه قول الطفيل بن عمرو الدوسي، للنبي -ﷺ-: هل لك في حصن حصين ومنعة؟: قال البيهقي: وعلى هذا المعنى يجوز أنْ يُدْعى به دون اسم المعطي، وقد ذكرنا في خبر الأسامي المانع دون اسمه المعطي. وبعضهم قال: الدافع بدل المانع وذلك يؤكد هذا المعنى في المنع والله أعلم.

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا مانع إلا الله وحده كما يجب عليه أن يعلم أن لا معطي إلا هو. قال الله العظيم: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر:٢]، وقال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُون اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ**﴾ [الزمر:٣٨]، فيحق على من علم أن الله هو المعطي والمانع أن يقطع من قلبه من الخلق المطامع وأن يقف مع الله بقلب راض قانع. فإن أغناه صرف في طاعته غناه وإن منعه علم أنه لم يمنعه من بخل ولا عدم بل ليكون منعه معقبًا له ما هو أشرف وأكرم من الغنى الذي لا ينصره فإن جاءه من أحد من الخلق سبب من أسباب الرزق فليرد ذلك إلى الواحد الحق، وإن منعه أحد من الناس فلا يرى المانع إلا الله فيطرح الأواسط طرحًا ويضرب عن الأسباب صفحًا، ويجعل الله هو الكل وكل موجود مع القدرة كالظل لا حكم له في الفعل فلا يذم مانعًا بوجه ولا يمدح معطيًا إلا من حيث ينظر إلى الله فيمدحه لمدح الله إياه إذ جرت بالخير يداه على ما أجراهما الله(١).

❁❁❁

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣٥٥/١).

المقتـــدر

وقال الله -عز وجل-: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢].

قال الحليمي: المقتدر المظهر قدرته بفعل ما يقدر عليه وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه، وإن كان يقدر على أشياء كثيرة لم يفعلها، ولو شاء لفعلها، فاستحق بذلـك أن يسمى مقتدرًا.

وقال أبو سليمان: المقتدر هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ولا يحتجز بمنعة ولا قوة، وزنة مفتعل من القدرة، إلا أن الاقتدار أبلغ وأعم لأنه يقتضي الإطلاق، والقدرة قد يدخلها نوع من التضمين بالمقدر عليه[١]

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٢٨).

المقـدم المؤخـر

وليسا في القرآن بهذه الصيغة، ولا ورد في القرآن فعل يشتق منه مقدم، وورد فعل المؤخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٢].

وجاء في حديث ابن عباس قال: «**كان رسول الله -ﷺ- إذا قام من الليل يتهجد**» الحديث وفيه: «**أنت المقدم وأنت المؤخر**»(١). خرجه الأئمة وأجمعت عليهما الأمة.

ولا يجوز الدعاء بأحدهما دون الآخر، قاله الحليمي، وكلاهما ظاهر المعنى، وهما من صفات الأفعال، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ويقرب من يشاء، ويبعد من يشاء. فمن قدم فقد نال المراتب العلى، ومن أُخر فقد رد إلى السفلى، قال الحليمي: المقدم هو المعطي لعوالي المراتب، والمؤخر هو الدافع عن عوالي الرتب. فقرب أنبياءه وأولياءه بتقريبه وهدايته، وأخر أعداءه بإبعاده، وضرب الحجاب بينه وبينهم. قدر المقادير قبل أن يخلق الخلق، وقدم من أحب من أوليائه على عبيده، ورفع الخلق بعضهم فوق بعض درجات، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى هو المقدم المؤخر لكل اعتبار، قدم من شاء وأخر من شاء، في الخلق والرتبة، أو الرتبة دون الخلق، بإرادة خصصها بذلك وهو الله تعالى.

فإرادته اقتضت ذلك، ثم صدرت الموجودات من القدرة على وفق الإرادة متدرجة شيئًا بعد شيء، ومتقدمة بعضها على بعض، كما صرح القرآن أن السموات والأرض وما بينهما موجودة في ستة أيام -فالسموات منها في يومين، والأرض بما فيها في أربعة أيام- على ما تقدم في اسمه «الخالق».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٢٠) في الجمعة، باب: التهجد بالليل، ومسلم (٧٦٩) في صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

وإذا كان هذا فحق الإنسان أن يقدم ما قدمه الله، ويؤخر ما أخره الله، حسبما تقدم في اسمه الخافض الرافع، فيعز من أعزه الله بطاعته من إخوانه المؤمنين، ويهجر من أذله الله بمعصيته، ثم إذا تاب، عطف عليه، وقدمه بحسب درجته، قال رسول الله -ﷺ-: «**أنزلوا الناس منازلهم**»[١]. وقفه مسلم على عائشة، وأسنده البزار وغيره[٢].

❁❁❁

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) في الأدب، باب: في تنزيل الناس منازلهم، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٤٤): ضعيف.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٧٣-٣٧٥) بتصرف.

المقيت

ورد به القرآن فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾ [النساء:٨٥].

وهو اسم فاعل من أقات يقيت إقاتة فهو مقيت، والياء فيه بدل من الواو، لأنه مشتق من القوت، تقول منه: قته أقوته قوتا وأقته أقيته إقاتة فأنا قاتت مقيت.

وقات أهله يقوتهم قوتًا وقياتة. والاسم: القُوت بالضم وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والشراب. يقال: ما عنده قوت ليلة، وقيت ليلة، وقيته، فلما كسرت القاف صار الواو ياء. وقته فاقتات كما تقول رزقته فارتزق، وهو قائت من العيش أي: في كفاية. واستقاته: سأله القوت. وفلان يتقوت كذا. فالمعنى أن الله تعالى يعطي كل إنسان وحيوان قوته على الأوقات شيئًا بعد شيء فهو يمدها في كل وقت بما جعله قوامًا لها إلى أن يريد إبطال شيء منها فيحبس عنه ما جعله مادة لبقائه فيهلك.

قال الفراء: المقيت الذي يقوم بأقوات الخلق، يقال: قاته وأقاته إذا أعطاه قوته. وروي عن ابن عباس وأبي عبيدة المقيت: الحافظ للشيء[1].

وقال الفراء: المقيت: المقتدر، أي: الذي يقدر على أن يعطي كل رجل قُوتَه.

قال ابن العربي: وقد قال علماء اللسان: إنه معنى القادر، وليس فيه على هذا أكثر من سماع. فلو رجعنا إلى الاستقراء، وتتبع النظر لجعلناه في موارده كلها بمعنى القوت، لكن السماع يقضي على النظر. وعلى القول بأنه القادر يكون من صفات الذات، وإن قلنا: إنه اسم للذي يعطي القوت، فهو اسم للوهاب والرزاق ويكون من صفات الأفعال[2].

❁❁❁

---

(١) الأسني في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٧٣/١).

(٢) المصدر السابق (٢٧٥/١).

المنـان

ورد في التنزيل فعلاً فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١٧]، وهو مذكور في حديث أنس(١). على ما تقدم في اسم (الحنان).

ويقال منه: منّ يمنّ منّا فهو المنان، والاسم المنة، واشتقاقه في موضوع اللسان من المن الذي هو العطاء دون طلب عوض ومنه قوله تعالى: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]، في أحد وجوهه. ويكون أيضًا مشتقاً من المنة التي هي التفاخر بالعطية على المعطَى وتعديد ما صنعه المعطي. والمعنيان في حق الله تعالى صحيحان(٢).

ويتصف أيضًا بهما الإنسان لكن يتصف بالمعنى الأول على طريق المدح، وبالمعنى الثاني على طريق الذم.

فالأول: الذي هو ممدوح، هو أن يكون عطاؤه أو منُّه لوجه الله تعالى لا لنيل عوض من الدنيا. ومن هذا القسم قوله -عليه السلام-: «**وإن من أمَنّ الناس علي في ماله أبا بكر**» وقوله: «**ما أحدٌ من علي من ابن أبي قحافة**»(٣).

والقسم الثاني: وهو أن يمن الإنسان بالعطية، أي يذكرها ويكررها، فهو المذموم، ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة:٢٦٤]، قال رسول الله- ﷺ -: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان: الذي لا يعطي شيئًا إلا منّة**»(٤) كذا جاء مفسرًا في كتاب مسلم.

---

(١) صحيح: وهو بلفظ: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات» وقد تقدم، وكما ترى ليس في سننه لفظ (المنان) كما ذكر القرطبي وغيره من شرّاح الأسماء والصفات، ولم يرد في حديث صحيح، ولذلك لم نذكره هنا في مصنفنا.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٥٨/١).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٧) في الصلاة، باب: الخوخة والممر في المسجد، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٦) في الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن والعطية =

والمنان أيضًا الذي يمن على الله بعلمه، وهذا كله في حق المخلوق حرام مذموم، وهو الذي قال فيه الرسول -ﷺ-: «**لا يدخل الجنة منان**»[(١)]. ولما كان البارئ سبحانه يدر العطاء على عباده منا عليهم بذلك وتفضلاً كانت له المنة في ذلك، فيرفع المنان إذا كان مأخوذًا من المن الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله، ويرجع المنان إذا أخذته من المنة التي هي تعداد النعمة وذكرها والافتخار بفعلها في معرض الامتنان إلى صفة كلامه تعالى. وقال ابن الأعرابي في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [آل عمران:١٦٤]، أي تفضل، والمنان المتفضل.

وقال الحليمي: المنان العظيم المواهب فإنه أعطى الحياة والعقل والمنطق، وصور فأحسن الصور، وأجزل وأنعم فأسنى النعم، وأكثر العطايا والمنع. فقال وقوله الحق: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ [النحل:١٨].

وقال الخطابي: والمن العطاء لمن لا يستثيبه[(٢)]. وقال الزجاجي: المنان، فقال من قولك مننت على فلان إذا اصطنعت عنده صنعة وأحسنت إليه، فالله -عز وجل- منان على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم.

فيجب على كل مسلم أن يعلم أن لا منان على الإطلاق إلا الله وحده الذي بدأ بالنوال قبل السؤال، ثم يعترف بالمنة لك وحده، كما روي أن النبي -ﷺ- لما جمع الأنصار فذكرهم وقال: «**ألم يكن أمركم شتيتًا فجمعه الله بي؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله بي؟ ألم تكونوا خائفين، فأمَّنكم الله بي؟ وهم في ذلك يقولون له: الله ورسوله أمنّ**» الحديث إلى آخره[(٣)]. فاعترفوا لله ثم لرسوله بالنعمة، وولوا النعمة[(٤)]. لرب النعمة، والله أعلم، ثم إذا أعطى أحدًا من خلقه مما أنعم الله تعالى به عليه، فلا

وتنفيق السلعة بالحلف، من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-.

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (١٩٦٣) في البر والصلة، باب: ما جاء في البخيل، من حديث أبي بكر -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٣٩): ضعيف.

(٢) أي: لا يطلب ثوابه، أي عطاءه بغير مقابل عوض ما أعطاه.

(٣) صحيح بمعناه: والحديث بلفظ قريب منه أخرجه البخاري (٤٣٣٠) في المغازي، باب: غزوة الطائف، ومسلم (١٠٦١) في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، من حديث عبد الله بن زيد -رضي الله عنه-.

(٤) كذا بالأصل ولعلها (المنة).

يمن به، بل يستصغره ويتناساه، ويرى الفضل لغيره في قبول منه لا له[١].

فإذا وصل إلى القلب نور صفة المنة، وشهد معنى اسمه المنان، وتجلى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الأول، ذهل القلب والنفس به وصار العبد فقيرا إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأول، فصار مقطوعا عن شهود أمر أو حال ينسبه إلى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوما مقطوعا عن رؤية عزة مولاه وملاحظة صفاته. فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منه خالقه وفضله ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها، وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه، فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير وتشغله رؤية عزة ومولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها [٢].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٢٦١).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٥٠).

المهيمن

نطق به القرآن الكريم في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٤].

قال الزجاجي والخطابي وغيرهما: أصل مهيمن: مؤيمن، فقلت الهمزة هاء، لأنها أخف من الهمزة، وقد تبدل في أرقت الماء فيقال (هرقت) لقرب مخرجيهما، وهو على وزن مسيطر ومبيطر[1].

وقال الحليمي: ومعناه لا ينقص المطيعين يوم الحساب من طاعاتهم شيئًا فلا يثيبهم عليه لأن الثواب لا يعجزه ولا هو مستكره عليه فيضطر إلى كتمان بعض الأعمال أو جحدها، وليس ببخيل فيحمله استكثار الثواب إذا اكثرت الأعمال على كتمان بعضها، ولا يلحقه نقص بما يثيب فيحبس بعضه، لأنه ليس منتفعًا بملكه حتى إذا نفع غيره به زال انتفاعه بنفسه، وكما لا ينقص المطيع من حسناته شيئًا لا يزيد العصاة على ما اجترحوه من السيئات شيئًا، فيزيدهم عقابًا على ما استحقوه لأن واحدًا من الكذب والظلم غير جائز عليه، وقد سمي عقوبة أهل النار جزاءً، فما لم يكن ذنبًا لم يكن جزاءً، ولم يكن وفاقًا، فدل ذلك على أنه لا يفعله.

قلت[2]: وهذا الذي ذكره شرح قول أهل التفسير في المهيمن، أنه الأمين. وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، قال: مؤتمنا عليه، وقال أيضًا: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، وبنحوه عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، قال: بمعنى مؤتمنا على الكتب. وعنه أيضًا: المهيمن: الشاهد على ما قبله من الكتب.

قال أبو سليمان: فالله -عز وجل-: «المهيمن أي الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول وفعل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١]، قال: وقيل المهيمن:

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٢٤٤).

(٢) القائل: هو البيهقي.

الرقيب على الشيء والحافظ له. قال: وقال بعض أهل اللغة: الهيمنة القيام على الشيء والرعاية له، وأنشد:

ألا إن خير الناس بعد نبيه مهيمنة التأليه في العرف والنكر

يريد القائم على الناس بعده بالرعاية لهم[١].

❁❁❁

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص٦٣) بتصرف.

المؤمن

ومن أسمائه تعالى المؤمن وهو -في أحد التفسيرين - المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخلقا.

فإنه سبحانه أخبر -وخبره الصدق. وقوله الحق- أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، أي القرآن. فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ [فصلت:٥٢]، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]، فشهد سبحانه لرسوله بقوله: إن ما جاء به حق. ووعده أن يري العباد من آياته الفعلية الخلقية: ما يشهد بذلك أيضاً.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء. فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته[1].

(١) مدارج السالكين (٣/٤٦٦).

المولى

قال الله -عز وجل-: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

وعن البراء -رضي الله عنه- قال: استعمل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على رماة الناس يوم أحد عبدالله بن جبير، وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: «**كونوا مكانكم لا تبرحوا، وإن رأيتم الطير تخطفنا**».

قال البراء -رضي الله عنه-: فأنا والله رأيت النساء باديات فلا خيلهن قد استرخت ثيابهن يصعدن الجبل -يعني حين انهزم الكفار- قال: فلما كان من الأمر ما كان والناس يغيرون مضوا، فقال عبد الله بن جبير أميرهم: كيف تصنعون بقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فمضوا فكان الذي كان، فلما كان الليل جاء أبو سفيان بن حرب، فمضوا فكان الذي كان، فلما كان الليل جاء أبو سفيان بن حرب، فقال: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، ثم قال: أفيكم محمد؟ الثالثة، فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. قالها ثلاثًا. ثم قال: أفيكم ابن الخطاب؟ قالها ثلاثًا فلم يجيبوه فقال: أما هؤلاء فقدكفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، ها هو ذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر وأنا أحياء، ولك منا يوم سوء. فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. وقال: أحل هبل. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أجيبوه**»، قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». فقال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أجيبوه**»، فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»، ثم قال أبو سفيان: إنكم سترون في القوم مثله لم آمر بها، ثم قال: ولم تسؤني[١]. أخرجه البخاري في الصحيح عن عمرو بن خالد عن زهير بن معاوية.

قال الحليمي في معنى المولى: إنه المأمول منه النصر والمعونة لأنه هو المالك، ولا مفزع للملوك إلا مالكه[٢]

❁❁❁

---

(١) صحيح: أخرجه لبخاري (٣٠٣٩) في الجهاد والسير، باب: ما يكره من التفازع والاختلاف في الحرب أو عقوبة من عصر إمامة.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٨).

النصير

قال الله -عز وجل-: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠].

وله معان منها: العون، يقال: نصره الله على عدوه، ينصره نصرًا فهو ناصر، ونصير للمبالغة. والاسم: النصرة. والنصير الناصر، والجمع: الأنصار مثل شريف وأشرف وجمع الناصر نصر مثل صاحب وصحب، واستنصره على عدوه أي سأله أن ينصره عليه، وتناصروا: نصر بعضهم بعضًا. ونصر الغيث الأرض أي غاثها. ونصرت الأرض فهي منصورة أي مُطرت. ومن النصر الانتصار؛ الامتناع من الظالم والاستظهار عليه كقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، وانتصر منه انتقم، والنصر العطاء. قال رؤبة:

إني وأسطار سطرن سطرًا لقائل يا نصر نصرًا نصرًا

والنصر: المنع ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود:٦٣]، وقيل الإتيان والمجيء.

إذا دخل الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر

فهذا الاسم في معنى المولى والمغيث والمجيب على ما تقدم، إلا أن النصر في الأغلب لا يكون إلا على الأكفاء أو ما يكون فوق الأكفاء، وفيما يحتاج فيه إلى الاستعداد والمناجزة بالمجاهدة والمرابطة والمصابرة، وأما الغياث والغوث فعند الشدائد قال رسول الله -ﷺ-: «**واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، أي بالنصر، والنصر: العون على ما تقدم، وإليه يرجع معنى نَ صَ رَ كيفما تصرف. فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، والنصر هو العون والله سبحانه لا يجوز عونه قولاً ولا يتصور فعلاً؟ فالجواب من أوجه:

أحدها: إن تنصروا دين الله بالجهاد عنه ينصركم؟

(١) صحيح: أخرجه الخطيب في التاريخ عن أنس، كما في «صحيح الجامع» (٦٨٠٦).

الثاني: إن تنصروا أولياء الله بالدعاء.

الثالث: إن تنصروا نبي الله. وأضاف النصر إلى الله تشريفًا للنبي -ﷺ- وأوليائه وللدين كما قال تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾ [البقرة:٢٤٥]، فأضاف القرض إليه تسلية للفقير. وجاء فعل النصر في مواضع كثيرة وهو من صفات الأفعال مضافًا إلى من خصه الله بالنصرة وهم الملائكة والمؤمنون لا غير، فإن حقيقة النصر المعونة بطريق التولي والمحبة، والمعونة على الشر لا تسمى نصرًا ولذلك لا يقال في الكافر إذا ظفر بالمؤمن: إنه منصور عليه، بل يقال: هو مسلط عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء:٩٠]، وقوله -عليه السلام-: «إذ ذكر أئمة الجور في آخر الزمان (**وينصرون على ذلك**) أراد أنهم ينصرون على الكافرين، ويكون نصر الله تعالى لدينه راجعًا له وإبقاء لكلمته» كما قال -عليه السلام-: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[(١)]. ولو وردت لفظة النصر للكافر لكان معناه التسليط والعون البشري. وإنما حقيقة النصر ما ذكرناه أولاً، وقد يحمل قوله -عليه السلام- في أئمة الجور: إنهم ينصرون أي يعطون الدنيا ويملي لهم فيها. يقال: نصره ينصره إذا أعطاه. ومن كلام بعض العرب (انصروني نصركم الله) أي أعطوني أعطاكم الله[(٢)].

وقال الحليمي في معنى النصير: إنه الموثوق منه بألا يسلم وليه ولا يخذله[(٣)].

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن النصر على الإطلاق إنما هو لله تعالى كما قال: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**﴾ [آل عمران:١٦٠].

وأن الخذلان منه ولكن لا يجوز أن يقال منه: خاذل؛ لأنه لم يرد به إذن. والنصر يستدعي ناصرًا ومنصورًا ومنصورًا عليه. فتأييد الله أولياءه المؤمنين بالملائكة نصر لهم على أعدائهم كما نصر نبيه -عليه السلام- وصحبه يوم بدر بالملائكة، فيكون الملك على هذا منصورًا على أعداء المؤمنين. وأعداء المؤمنين أعداء لله ولملائكته. وقد يكون نصر الله للملك عونه على عبادته وطاعته؛ إذ ليس له عدو في مقابلته؛ لأنه نور كله فلا ظلمة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٦٢) في الجهاد والسير، باب: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، ومسلم (١١١) في الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣١٩/١).

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٧٠).

تجاذبه، فهذه النصرة لا تستدعي منصورًا عليه. والإنسان يتجاذبه عدوه إبليس والهوى. فإذا نصره الله نصرًا باطنًا فعلى هؤلاء ينصره، وإذا نصره نصرًا ظاهرًا فينصره على أعدائه الكافرين وجميع الظالمين. فإن أصاب الظفر بالعدو الظاهر فهو المنصور، وإن ثبت على دين الله وصبر فكان للكافر الظفر، فالمؤمن أيضًا منصور؛ لأن صبره على قتال عدوه وثبات نفسه في دفع الهوى الذي من طبعه الخذلان هو النصر إلا أن هذا نصر باطن والثواب عليه قائم وقدحصل له النصر من الله على عدوه إبليس الذي يروم خذلان الإنسان. ثم يجب عليه إن كان له قوة ينصر بها ظالمًا أو مظلومًا فعل.

قال رسول الله -ﷺ-: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا: قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا قال تأخذ على يديه**»[١].

وقال الحليمي في معنى النصير: إنه الموثوق منه بأنه لا يُسلم وليه ولا يخذله[٢].

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٢٠).

الواحد الأحد

وبه مشهد التوحيد والأمر، فيشهد انفراد الرب الخالق، ونفوذ مشيئته وتعلق الموجودات بأسرها به وجريان حكمه على الخليقة وانتهاءها إلى ما سبق لها من علمه وجرى به قلمه، ويشهد ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وارتباط الجزاء بالأعمال واقتضاءها له ارتباط المسببات بأسبابها التي جعلت أسبابا مقتضية لها شرعا وقدرا وحكمة، فشهوده توحيد الرب وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه، وذلك يدينه من عتبة العبودية ويطرحه بالباب فقيرا عاجزا مسكينا لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وشهود أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الحمد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة، وبين شهود التقصير والإساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها.

فهذا هو العبد الموفق المعان الملطوف به المصنوع له الذي أقيم مقام العبودية وضمن له التوفيق وهذا هو مشهد الرسل فهو مشهد أبيهم آدم إذ يقول: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف:٢٣]، ومشهد أول الرسل نوح إذ يقول: ﴿**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [هود:٤٧]، ومشهد إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذ يقول: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢]، وقال في دعائه: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم:٣٥]، فعلم - ﷺ - أن الذي يحول بين العبد وبين الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا رب غيره فسأله أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام.

وهذا هو مشهد موسى إذ يقول في خطابه لربه: ﴿**أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾ [الأعراف:٥٥]، أي إن ذلك إلا امتحانك واختيارك، كما يقال فتنت

الذهب إذا امتحنته واختبرته، وليس من الفتنة التي هي الفعل المسيء كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [البروج:١٠]، وكما في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ [البقرة:١٩٣]، فإن تلك فتنة المخلوق، فإن موسى أعلم الله بأن يضيف إليه هذه الفتنة وإنما هي كالفتنة في قوله: ﴿**وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾ [طه:٤٠]، أي ابتليناك واختبرناك وصرفناك في الأحوال التي قصها الله علينا من لدن ولادته إلى وقت خطابه له وإنزاله عليه كتابه.

والمقصود: أن موسى شهد توحيد الرب وانفراده بالخلق والحكم وفعل السفهاء ومباشرتهم الشرك، فتضرع إليه بعزته وسلطانه وأضاف الذنب إلى فاعله وجانيه، ومن هذا قوله: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي**﴾ [القصص:١٦]، قال تعالى: ﴿**فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [القصص:١٦]، وهذا مشهد ذي النون إذ يقول: ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٧]، فوحد ربه ونزهه عن كل عيب وأضاف الظلم إلى نفسه وهذا مشهد صاحب الاستغفار إذ يقول في دعائه: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» فأقر بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه بالخلق وعموم المشيئة ونفوذها، وتوحيد الإلهية- المتضمن لمحبته وعبادته[1].

وقال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإن قوام السموات والأرض والخليقه بأن تؤله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلها حقا، إذ الإله الحق لا شريك له ولا سمي له ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

حاجة العبد إلى عبادة الله وحده:

إذا عرفت هذا فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف

(١) طريق الهجرتين (١/٢٦٢).

والطرق المفضية إليها. من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد:٤-٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣]، وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس -في قصة ضماد- فقال رسول الله - ﷺ -: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[1]. وذكر الحديث وقال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس:٦٦]، يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون.

وقال مرة أخرى: أعميناهم عن الهدى. وعنه في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:٤١]، يقول: (من يرد الله ضلالته فلن تغني عنه من الله شيئًا).

وروي عن سفيان الثوري عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر المدائني أنه سئل عن قول الله -عز وجل-: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، قال: نور يقذفه في الجوف ينشرح له الصدر وينفسح. قيل له: هل له أمارة يعرف بها؟ قال: نعم الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل مجيء الموت وروي هذا المعنى عن النبي - ﷺ - بإسناد منقطع[2] فيجب على كل مسلم أن يعلم أن الله هو الذي خلقه، وأنه هو الذي خلق فيه الهدى برحمته، وأضل من أضل بعدله، ثم يجب عليه الدعاء بدوام ذلك، وأن يميته على الإسلام، فإن في التنزيل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤]، وهذا موضع عظيم يخافه الرجل العليم.

ولذلك كان يقول الرسول - ﷺ -: «**يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك**»[3].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٦٨) في الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣٧٩/١).

(٣) صحيح: وقد تقدم.

ثم يعلم أن للأنبياء والعلماء والأولياء مدخلاً في باب الهداية، وهو الدعاء إلى الله تعالى، كما قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]، أي دليل، وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت:١٧]، أي بيَّنا لهم على لسان رسولهم.

وهذا كما في الآية الأخرى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:١٢]، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة:٦]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى:٤٨]، فمن خلق الله في قلبه الإيمان أجاب. وليس يقدر رسول ولا غيره على هذا، قال الله لنبيه -ﷺ- في حق أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة فاعلمه.

فأما قوله سبحانه: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠]، فهذه هداية عامة عم بها جميع الحيوان، ولولا هي ما اهتدى الذكر للأنثى، ولا البهائم لطلب المراعي، ولا النحل لصنعته شكله المسدَّس، ولا العنكبوت لنسج بيته المشبك. وتفصيل هذا أكثر من أن يحصى وليس هو المطلوب في شرح الأسماء[1].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٣٨٣/١).

الـوارث

قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣].

ومعناه الباقي بعد ذهاب غيره، وربنا -جل ثناؤه- بهذه الصفة لأنه يبقى بعد ذهاب الملاّك الذين أمتعهم في هذه الدنيا بما آتاهم، لأن وجودهم ووجود الأملاك كان به، ووجوده ليس بغيره[1].

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١٣).

الواسع

وفي الكتاب: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [١].

قال الحليمي: ومعناه الكثير مقدوراته ومعلوماته واعتراف له بأنه لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه شيء، ورحمته وسعت كل شيء.

وقال: أبو سليمان: الواسع الغني الذي وسع غناه مفاقر عباده، ووسع رزقه جميع خلقه[٢].

(١) البقرة: ٢٤٧، ٢٦١، ٢٦٨، وغير موضع في القرآن الكريم.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤١).

الواقي

ومعناه معنى الحفيظ وفي التنزيل: ﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ**﴾ [غافر:٩]. وقال: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة:٢٠١].

يقال: منه وقاه الله وقاية أي حفظه، والوقاية أيضًا التي للنساء، والوقاية بالفتح لغة والوِقاء والوَقاء ما وقيت به شيئًا، قاله الجوهري. فالله سبحانه الواقي على الإطلاق يقي عباده المؤمنين ويحفظهم ويدفع عنهم، فهو من صفات الأفعال: ﴿**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [غافر:٣٣]، ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ**﴾ [الرعد:٣٤]، أي من دافع، ومنه الحديث «**من عصى الله لم تقه من الله واقية**»[1]. وكل ما وقى شيئًا فهو واقية. ومنه قول عليّ -رضي الله عنه-: «كنا إذا احمر البأس اتقينا بالنبي -ﷺ- أي جعلناه واقية لنا من العدو» والواقية واحدة من الأواقي.

قال مهلهل:

ضربت صدرها إليّ وقالت يا عدي لقد وقتك الأواقي

وأصله وواقى لأنه فواعل إلا أنهم كرهوا اجتماع الواوين فقلبوا الأولى ألفًا، والواقي أيضًا الصُّرد مثال القاضي ويقال الواق بكسر القاف بلا ياء لأنه سمي بذلك لحكاية صوته، ويروي قول الشاعر:

ولست بهياب إذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه الواقي على الإطلاق ثم يسعى في الأواقي لنفسه ولغيره امتثالاً لأمر ربه في قوله: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾ [التحريم:٦] الآية. وذلك بامتثال الطاعات واجتناب المنهيات، وذلك لا يكون إلا عن تقوى من الله، فمن اتقى المعاصي صغيرها وكبيرها وحذرها غيره، وحمله على تركها فقد وقى نفسه وغيره، وهو المتقي حقًا، ومن انتهك حرمة من حرمات الله وخالف ما أمر به فلم يتق الله ولا جعل واقية ولا وقاية بينه وبين عذاب الله. فقد أوبق نفسه[2].

❁❁❁

---

(١) لم أجده.

(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣١٣).

الـوتـر

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لله تسعة وتسعون اسمًا مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر**»[(١)].

لأنه إذا لم يكن قديم سواه لا إله ولا غير إله، لم ينبغ شيء من الموجودات أن يضم إليه فيعبد معه، فيكون المعبود معه شفعًا، لكنه واحد وتر[(٢)].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤١٠) في الدعوات، باب: لله مائة اسم غير واحد، ومسلم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء، باب: في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص١٥) بتصرف.

الـودود

وأما الودود ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يحب أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوب الذي يستحق أن يحب الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته[1].

في الود وهو الرقة واللطف في الحب:

وأما الود فهو خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري : وددت الرجل أوده ودًا إذا أحببته. والود المودة، تقول: بودي أن يكون كذا، وأما قول الشاعر:

أيهـا العـائد المسـائل عنـا وبوديـك أن تـرى أكفـاني

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء. والود الوديد بمعنى المودود والجمع أود مثل قدح وأقدح وذئب وأذؤب، وهما يتوادان وهم أوداء، والودود المحب، ورجال ودداء يستوي فيه المذكر والمؤنث لسكونه وصفاً داخلاً على وصف للمبالغة.

قلت: الودود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المودة، واختلف فيه على قولين: فقيل: هو ودود بمعنى واد كضروب بمعنى ضارب وقتول بمعنى قاتل ونئوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعل كغفور بمعنى غافر، وشكور بمعنى شاكر، وصبور بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب. وبذلك فسره البخاري في صحيحه،فقال: الودود الحبيب، والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]، وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ

(١) جلاء الأفهام (ص٢٤٣).

﴿رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠]، وفيه سر لطيف وهو أنه يحب التوابين وأنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾** [البقرة:٢٢٢]، فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفه.

الخلة وهي من أعلى مراتب الحب:

وأما الخلة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبوبه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها في العالم الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: **﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾** [النساء:١٢٥]، وصح عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(١)، وفي الصحيح عنه - ﷺ -: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن صاحبكم خليل الرحمن**»(٢)، وفي الصحيح أيضاً: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خلته**»(٣).

ولما كانت الخلة مرتبة لا تقبل الشركة امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبةً من قلبه، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لاذبحه بالمدية، فلما أسلما لأمر الله وقدم محبة الله تعالى على محبة الولد، خلص مقام الخلة وفدى الولد بالذبح.

وقيل: إنما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح، قال:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلاً

والخلة الخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر قولك خليل بين الخلة والخلة والخلولة، قال:

ألا أبلغا خلتي جابرا ... بأن خليلك لم يقتل

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢) في المساجد، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، من حديث جندب -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: وهو جزء مما قبله، وهو في الصحيحين أيضًا من غير هذا الطريق، وانظر ما بعد.

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٩٣) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله - ﷺ -، من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: صحيح.

ويجمع على خلال مثل قلة وقلال. والخِل الود والصديق، والخلال أيضاً مصدر بمعنى المخالة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم:٣١]،وقال في الآية الأخرى : ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، قال امرؤ القيس :

ولست بمقلي الخلال ولا قالي

والخليل الصديق والأنثى خليلة، والخِلالة والخَلالة والخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها:الصداقة والمودة. قال:

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مرحب(١)

الخلة أخص من المحبة:

وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله،وهذا باطل من وجوه كثيرة،منها:أن الخلة خاصة و المحبة عامة فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، ومنها أن النبي - ﷺ - نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها(٢)، وعنها انه قال : «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(٣) ومنها أنه قال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام ومودته**»(٤).

الغرام:

وأما الغرام فهو الحب اللازم،يقال: رجل مغرم بالحب،أي قد لزمه الحب وأصل المادة من اللزوم، ومنه قولهم رجل مغرم من الغرم أو الدَّين، قال في الصحاح والغرام الولوع، وقد أغرم بالشيء، أي أولع به، والغريم الذي عليه الدين،يقال:خذ من غريم السوء ما سنح،ويكون الغريم أيضاً الذي له الدين، قال كثير عزة :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

(١) روضة المحبين (ص ٤٦).

(٢) الحديث أخرجه الترمذي (٣٨٨٦) في المناقب، باب: فضل عائشة -رضي الله عنها-.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥]، والغرام: الشر الدائم اللازم والعذاب، قال بشر:

ويوم النار ويوم الجفار … كانا عذابا وكانا غراما

وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غرامًا وان يعـ … ـط جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال أبو عبيدة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كان هلاكاً ولزاماً لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام وإن لهج به المتأخرون[1].

❁❁❁

(١) روضة المحبين (ص ٤٦).

الوكيل

التوكل: كلة الأمر إلى مالكه، والتعويل على وكالته، وهو من أصعب منازل العامة عليهم. وأوهى السبل عند الخاصة. لأن الحق تعالى قد وكل الأمور كلها إلى نفسه. وأيأس العالم من ملك شيء منها.

قوله: «**كلة الأمر إلى مالكه**» أي تسليمه إلى من هو بيده.

والتعويل على وكالته أي الاعتماد على قيامه بالأمر، والاستغناء بفعله عن فعلك، وبإرادته عن إرادتك. والوكالة يراد بها أمران.

أحدهما: التوكيل. وهو الاستنابة والتفويض.

والثاني: التوكل. وهو التعرف بطريق النيابة عن الموكل. وهذا من الجانبين. فإن الله تبارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وكله فيه. والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله تعالى: ﴿**فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ [الأنعام:٨٩].

قال قتادة: وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم-يعني قبل هذه الآية- وقال أبو رجاء العطاردي: معناه إن يكفر بها أهل الأرض، فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة. وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار أهل المدينة.

والصواب: أن المراد من قام بها إيماناً، ودعوة وجهاداً ونصرة. فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحداً وكيل الله؟

قلت: لا. فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة. والله عز وجل لا نائب له، ولا يخلفه أحد، بل هو الذي يخلف عبده، كما قال النبي -ﷺ-: «**اللهم أنت الصاحب في السفر. والخليفة في الأهل**»[1]. على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٢) في الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.

أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به.

وأما توكيل العبد ربه: فهو تفويضه إليه، وعزل نفسه عن التصرف، وإثباته لأهله ووليه. ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية، وقيامها بالعبودية. وهذا معنى كون الرب وكيل عبده. أي كافيه. والقائم بأموره ومصالحه. لأنه نائبه في التصرف. فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له، وخلعة منه عليه، لا عن حاجة منه، وافتقار إليه كموالاته. وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته، وقيام بعبوديته.

وقوله وهو من أصعب منازل العامة عليهم لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم. ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصة. وهي التي تشهد التوكيل فهم في رق الأسباب. فيصعب عليهم الخروج عنها، وخلو القلب منها، والاشتغال بملاحظة المسبب وحده.

وأما كونه أوهى السبل عند الخاصة فليس على إطلاقه. بل هو من أجلِّ السبل عندهم وأفضلها، وأعظمها قدراً. وقد تقدم في صدر الباب: أمر الله رسوله بذلك. وحضه عليه هو والمؤمنين. ومن أسمائه -ﷺ- المتوكل وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له: ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾ [النمل:٧٩]، وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**﴾ [إبراهيم:١٢]. فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل على الله في معلوم الرزق المضمون، والاشتغال به عن التوكل في نصرة الحق والدين: من أوهى منازل الخاصة. أما التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق. فهذا توكل الرسل والأنبياء عليهم السلام. فكيف يكون من أوهى منازل الخاصة؟

قوله لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها.

جوابه: أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسباً وفعلاً وإقداراً، واختياراً، وأمراً ونهياً، استعبدهم به. وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه. وأمر عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به. وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما

يحب الشاكرين. وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونه بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوماً.

وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق:٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [الطلاق:٥]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق:٤]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء:٦٩]، الآية ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وَكَلَ الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يجد بدا من اعتماده عليه. وتفويضه إليه. وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

فإن قيل: فإذا كان الأمر كله لله. وليس للعبد من الأمر شيء. فكيف يوكل المالك على ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلى العامة. وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة.

قيل: لما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شيء ألبتة. كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل.

وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل لها عن حقيقة العبودية.

وأما توجه الخطاب به إلى العامة: فسبحان الله ! هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين،

والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجؤهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس:٨٤،٨٥]، فكيف يكون من أوهى السبل، وهذا شأنه؟ والله سبحانه وتعالى أعلم.

التوكل ثلاث درجات:

قال: وهو على ثلاث درجات. كلها تسير مسير العامة.

الدرجة الأولى: التوكل مع الطلب، ومعاطاة السبب على نية شغل النفس بالسبب مخافة، ونفع الخلق، وترك الدعوى.

يقول: إن صاحب هذه الدرجة يتوكل على الله. ولا يترك الأسباب. بل يتعاطاها على نية شغل النفس بالسبب، مخافة أن تفرغ فتشتغل بالهوى والحظوظ. فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضره. لا سيما إذا كان الفراغ مع حدة الشباب، وملك الجدة، وميل النفس إلى الهوى، وتوالي الغفلات. كما قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أي مفسدة

ويكون أيضاً قيامه بالسبب على نية نفع النفس، ونفع الناس بذلك. فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره.

وأما تضمن ذلك لترك الدعوى: فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلص من إشارة الخلق إليه، الموجبة لحسن ظنه بنفسه، الموجب لدعواه. فالسبب ستر لحاله ومقامه. وحجاب مسبل عليه.

ومن وجه آخر، وهو أن يشهد به فقره وذله، وامتهانه امتهان العبيد والفعلة. فيتخلص من رعونة دعوى النفس، فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة الأسباب: سلم من هذه الأمراض.

فيقال: إذا كانت الأسباب مأموراً بها ففيها فائدة أجل من هذه الثلاث. وهي المقصودة بالقصد الأول، وهذه مقصودة قصد الوسائل. وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خلق له العبد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب. وبه قامت السموات والأرض. وله وجدت الجنة والنار.

فالقيام بالأسباب المأمور بها: محض العبودية. وحق الله على عبده الذي توجهت به نحوه المطالب. وترتب عليه الثواب والعقاب. والله سبحانه أعلم.

قال **الدرجة الثانية:** التوكل مع إسقاط الطلب. وغض العين عن السبب. اجتهاداً لتصحيح التوكل، وقمعاً لشرف النفس. وتفرغاً إلى حفظ الواجبات.

قوله: مع إسقاط الطلب أي من الخلق لا من الحق. فلا يطلب من أحد شيئاً. وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد. فإن الطلب من الخلق في الأصل محظور. وغايته: أن يباح للضرورة، كإباحة الميتة للمضطر، ونص أحمد على أنه لا يجب. وكذلك كان شيخنا يشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال.

وسمعته يقول في السؤال: هو ظلم في حق الربوبية، وظلم في حق الخلق، وظلم في حق النفس.

أما في حق الربوبية: فلما فيه من الذل لغير الله، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعوض عن سؤاله بسؤال المخلوقين، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه.

وأما في حق الناس: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم. وأبغض ما إليهم: من يسألهم ما في أيديهم، وأحب ما إليهم: من لا يسألهم. فإن أموالهم محبوباتهم، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك.

وأما ظلم السائل نفسه: فحيث امتهنها. وأقامها في مقام ذل السؤال. ورضي لها بذل الطلب ممن هو مثله، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدراً. وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فقد أقام السائل نفسه مقام الذل، وأهانها بذلك. ورضي أن يكون شحاذاً من شحاذ مثله. فإن من تشحذه فهو أيضاً شحاذ مثلك. والله وحده الغني الحميد.

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه، ورضي عنك، وأحبك. والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك، كما قيل:

اللـه يغضـب إن تركـت سـؤاله وبنـي آدم حيـن يسـأل يغضـب

وقبيح بالعبد المريد: أن يتعرض لسؤال العبيد. وهو يحد عند مولاه كل ما يريده.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه-. قال: «**كنا عند رسول الله -ﷺ- تسعة -أو ثمانية، أو سبعة- فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعة. فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ فقال: أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس-وأسر كلمة خفية- ولا تسألوا الناس شيئاً. قال: ولقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه**»(١).

وفي الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -ﷺ- قال: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم**»(٢).

وفيهما أيضاً عنه أن رسول الله -ﷺ- قال- وهو على المنبر. وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة-: «**واليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا: هي المنفقة. والسفلى: هي السائلة**»(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «**من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً. فليستقل أو ليستكثر**»(٤).

وفي الترمذي عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في الأمر الذي لا بد منه**»(٥) . قال الترمذي: حديث صحيح.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٤٣) في الزكاة، باب: كرامة المسألة للناس.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٧٥) في الزكاة، باب: من سأل الناس تكثرًا، ومسلم (١٠٤٠) في الزكاة، باب: كراهة المسألة للناس.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٢٩) في الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غني، ومسلم (١٠٣٣) في الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٤١) في الزكاة، باب: كراهة المسألة للناس.

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٣٩) في الزكاة، باب: ما تجوز فيه المسألة، والترمذي (٦٨١) في الزكاة، باب: ما جاء في النهي عن المسألة، واللفظ له، والنسائي (١٠٠/٥) في الصدقة، باب: مسألة الرجل الرجل في أمر لا بد له منه، وأحمد في «مسنده» (١٩/٥، ٢٢)، وقال =

وفيه عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعاً: «**من أصابته فاقة. فأنزلها بالناس لم تسد فاقته. ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**»[1].

وفي السنن والمسند عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**من تكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً، أتكفل له بالجنة، فقلت: أنا**»[2] فكان لا يسأل أحداً شيئاً.

وفي صحيح مسلم عن قبيصة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة. فحلت له المسألة حتى يصيبها. ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله. فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش- أو قال: سداداً من عيش- فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتاً**»[3].

فالتوكل مع إسقاط هذا الطلب والسؤال هو محض العبودية.

قوله: وغض العين عن التسبب، اجتهاداً في تصحيح التوكل.

معناه: أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب، لتصحيح التوكل بامتحان النفس. لأن المتعاطي للسبب قد يظن أنه حصَّل التوكل. ولم يحصله لثقته بمعلومه، فإذا أعرض عن السبب صح له التوكل.

وهذا الذي أشار إليه: مذهب قوم من العباد والسالكين. وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد. ويرى حمل الزاد قدحاً في التوكل. ولهم في ذلك حكايات مشهورة، وهؤلاء في خفارة صدقهم وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين. ومع هذا فلا يمكن بشراً ألبتة ترك الأسباب جملة.

فهذا إبراهيم الخواص كان مجرداً في التوكل يدقق فيه. ويدخل البادية بغير زاد. وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض. فقيل له: لم تحمل هذا. وأنت تمنع من كل شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقص من التوكل. لأن لله علينا فرائض. والفقير لا

الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٤٥) في الزكاة، باب: في الاستعفاف، والترمذي (٢٣٢٦) في الزهد، باب: ما جاء في هم الدنيا وحبها، وأحمد في «مسنده» (١/٣٨٩، ٤٠٧، ٤٤٢)، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح بلفظ: بموت عاجل أو غني عاجل.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٤٣) في الزكاة، باب: كراهية المسألة، وأحمد في «مسنده» (٥/٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: صحيح.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٤٤) في الزكاة، باب: من تحل له المسألة.

يكون عليه إلا ثوب واحد، فربما تخرق ثوبه. فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته، فتفسد عليه صلاته. وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته. وإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته.

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب؟ أو ليست حركة أقدامه ونقلها في الطريق والاستدلال على أعلامها -إذا خفيت عليه- من الأسباب؟

فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً.

نعم قد تعرض للصادق أحياناً قوة ثقة بالله. وحال مع الله تحمله على ترك كل سبب مفروض عليه. كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة. ويكون ذلك الوقت بالله لا به. فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله. ولكن لا تدوم له هذه الحال. وليست في مقتضى الطبيعة. فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها. فإذا استدعى مثلها وتكلفها لم يجب إلى ذلك. وفي تلك الحال: إذا ترك السبب يكون معذوراً لقوة الوارد. وعجزه عن الاشتغال بالسبب. فيكون في وارده عون له. ويكون حاملاً له. فإذا تعاطى تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال.

وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تحكى عن القوم فهي جزئية حصلت لهم أحياناً، ليست طريقاً مأموراً بسلوكها، ولا مقدورة، وصارت فتنة لطائفتين.

طائفة ظنتها طريقاً ومقاماً، فعملوا عليها. فمنهم من انقطع. ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها، بل انقلب على عقبيه.

وطائفة قدحوا في أربابها. وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل. مدعين لأنفسهم حالا أكمل من حال رسول الله -ﷺ- وأصحابه، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك. ولا أخل بشيء من الأسباب. وقد ظاهر رسول الله -ﷺ- بين درعين يوم أحد. ولم يحضر الصف قط عرياناً. كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه، يدله على طريق الهجرة. وقد هدى الله به العالمين. وعصمه من الناس أجمعين. وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد.

وجميع أصحابه. وهم أولو التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم: هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثراً من غبارهم. فحال النبي -ﷺ- وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها. بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم. فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب. وأن يعبد

الله في جميع البلاد، وأن يوحد جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملئوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً. وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان. وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً. فكانت همم الصحابة -ﷺ- أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي. فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله.

قوله وقمعاً لشرف النفس يريد: أن المتسبب قد يكون متسبباً بالولايات الشريفة في العبادة، أو التجارات الرفيعة، والأسباب التي له بها جاه وشرف في الناس. فإذا تركها يكون تركها قمعاً لشرف نفسه، وإيثاراً للتواضع.

وقوله وتفرغاً لحفظ الواجبات أي يتفرغ بتركها لحفظ واجباتها التي تزاحمها تلك الأسباب. والله أعلم.

قال: **الدرجة الثالثة:** التوكل مع معرفة التوكل، النازعة إلى الخلاص من علة التوكل. وهي أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء هي ملكة عزة. لا يشاركه فيها مشارك. فيكل شركته إليه. فإن من ضرورة العبودية: أن يعلم العبد: أن الحق سبحانه هو مالك الأشياء وحده.

يريد أن صاحب هذه الدرجة متى قطع الأسباب والطلب، وتعدى تينك الدرجتين، فتوكله فوق توكل من قبله. وهو إنما يكون بعد معرفته بحقيقة التوكل، وأنه دون مقامه، فتكون معرفته به وبحقيقته نازعة-أي باعثة وداعية- إلى تخلصه من علة التوكل، أي لا يعرف علة التوكل. حتى يعرف حقيقته. فحينئذ يعرف التوكل المعرفة التي تدعوه إلى التخلص من علته.

ثم بين المعرفة التي يعلم بها علة التوكل. فقال: إن يعلم أن ملكة الحق للأشياء ملكة عزة. أي ملكة امتناع وقوة وقهر، تمنع أن يشاركه في ملكه لشيء من الأشياء مشارك. فهو العزيز في ملكه، الذي لا يشاركه غيره في ذرة منه. كما هو المنفرد بعزته التي لا يشاركه فيها مشارك.

فالمتوكل يرى أن له شيئاً قد وكل الحق فيه، وأنه سبحانه صار وكيله عليه. وهذا مخالف لحقيقة الأمر. إذ ليس لأحد من الأمر مع الله شيء. فلهذا قال: لا يشاركه فيه مشارك. فيكل شركته إليه. فلسان الحال يقول: لمن جعل الرب تعالى وكيله: فيم

وكلت ربك؟ أفيما هو له وحده؟ أو لك وحدك؟ أو بينكما؟ فالثاني والثالث ممتنع بتفرده بالملك وحده. والتوكيل في الأول ممتنع، فكيف توكله فيما ليس لك منه شيء ألبتة؟.

فيقال: ههنا أمران: توكل، وتوكيل. فالتوكل: محض الاعتماد والثقة، والسكون إلى من له الأمر كله. وعلم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها، وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات الكون: من أقوى أسباب توكله. وأعظم دواعيه.

فإذا تحقق ذلك علماً ومعرفة. وباشر قلبه حالا: لم يجد بداً من اعتماد قلبه على الحق وحده. وثقته به. وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده، لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته، وجميع مصالحه كلها: بيده وحده. لا بيد غيره. فأين يجد قلبه مناصاً من التوكل بعد هذا؟

فعلة التوكل حينئذ: التفات قلبه إلى من ليس له شركة في ملك الحق. ولا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. هذه علة توكله. فهو يعمل على تخليص توكله من هذه العلة.

نعم، ومن علة أخرى. وهي رؤية توكله. فإنه التفات إلى عوالم نفسه.

وعلة ثالثة: وهي صرفه قوة توكله إلى شيء غيره أحب إلى الله منه.

فهذه العلل الثلاث: هي علل التوكيل.

وأما التوكل: فليس المراد منه إلا مجرد التفويض. وهو من أخص مقامات العارفين. كما كان النبي -ﷺ- يقول: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك**»(١) وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [غافر:٤٤]، فكان جزاء هذا التفويض قوله: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**﴾ فإن كان التوكل معلولا بما ذكره، فالتفويض أيضاً كذلك. وليس. فليس.

ولولا أن الحق لله ورسوله، وأن كل ما عدا الله ورسوله، فمأخوذ من قوله ومتروك، وهو عرضة الوهم والخطأ: لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم. ولا نجري معهم في مضمارهم. ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان، ومنازل السائرين، كالنجوم الدراري. ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه. ومن رأى في كلامنا زيغاً، أو نقصاً وخطأ، فيهد إلينا

(١) صحيح: وقد تقدم.

الصواب. نشكر له سعيه. ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم. والله أعلم. وهو الموفق [(١)].

التوكل في القرآن والسنة:

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:٢٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:٢٩]، وقال لرسوله -ﷺ-: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:٨١]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال عن أصحاب نبيه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

والقرآن مملوء من ذلك.

وفي الصحيحين -في حديث: «**السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب- هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**» [(٢)].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم -ﷺ-، حين ألقي في النار. وقالها محمد -ﷺ- حين قالوا له: «**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم**

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٢٣).

(٢) صحيح: والحديث أخرجه البخاري (٥٧٠٥) في الطب، باب: من اكتوى أو كوى غيره، ومسلم (٢٢٠) في الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-

الوكيل»[١].

وفي الصحيحين: أن رسول الله -ﷺ- كان يقول: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلني. أنت الحي الذي لا يموت. والجن والإنس يموتون**»[٢].

وفي الترمذي عن عمر -رضي الله عنه- مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[٣].

وفي السنن عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**من قال-يعني إذا خرج من بيته- باسم الله. توكلت على الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت ووقيت وكفيت. فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدى وكفي ووقي؟**»[٤].

التوكل نصف الدين. والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار، والفجار والطير والوحش والبهائم. فأهل السموات والأرض- المكلفون وغيرهم- في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن

---

(١) آل عمران: ١٧٣، والحديث أخرجه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) في التفسير، باب: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٧) في الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهو ليس في «صحيح البخاري» كما ذكر المصنف.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) في الزهد، باب: في التوكل على الله، وابن ماجه (٤١٦٤) في الزهد، باب: التوكل واليقين، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٠، ٥٢)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤) صحيح.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٢٦) في الدعوات، باب: ما جاء ما يقول إذا خرج من بيته، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح.

الناس. ودون هؤلاء من يوكل عليه في معلوم يناله منه. من رزق أو عافية. أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش. فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله. وتوكلهم عليه. بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات. ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب-أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس-وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية. أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله. فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستعن به على طاعاته. والله أعلم.

معنى التوكل ودرجاته:

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي. ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم: من يفسره بالسكون. وخمود حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء. وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار.

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضى بالمقدور.

قال بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل على

الله، رضي بما يفعل الله.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً.

ومنهم: من يفسره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه. والسكون إليه.

قال ابن عطاء: التوكل ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

قال ذو النون: هو ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة. وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه.

وقال بعضهم: التوكل التعلق بالله في كل حال.

وقيل: التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات.

وقيل: نفي الشكوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

يريد قطعها من تعلق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها.

ومنهم: من جعله مركبا من أمرين أو أمور.

فقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

يريد: حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكون إلى المسبب، وركون إليه. ولا يضطرب قلبه معه. ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه.

وقال أبو تراب النخشبي: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية. فإن أعطى شكر. وإن منع صبر.

فجعله مركبا من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أعطى، وصبره إذا منع.

قال أبو يعقوب النهرجوري: التوكل على الله بكمال الحقيقية، كما وقع لإبراهيم الخليل -عليه السلام- في الوقت الذي قال جبريل -عليه السلام-: أما إليك فلا لأنه غائب عن نفسه بالله. فلم يرمع الله غير الله.

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب. فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة. ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتوكل حال النبي - ﷺ -، والكسب سنته. فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته وهذا معنى قول أبي سعيد هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: التوكل قطع علائق القلب بغير الله.

وسئل سهل عن التوكل؟ فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وقيل: التوكل أن يستوي عندك الإكثار والإقلال.

وهذا من موجباته وآثاره، لأنه حقيقته.

وقيل: هو ترك كل سبب يوصلك إلى مسبب، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك.

وهذا صحيح من وجه، باطل من وجه. فترك الأسباب المأمور بها: قادح في التوكل. وقد تولى الحق إيصال العبد بها. وأما ترك الأسباب المباحة: فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح، وإلا فهو مذموم.

وقيل: هو إلقاء النفس في العبودية، وإخراجها من الربوبية.

يريد: استرسالها مع الأمر، وبراءتها من حولها وقوتها، وشهود ذلك بها. بل بالرب وحده.

ومنهم من قال: التوكل هو التسليم لأمر الرب وقضائه.

ومنهم من قال: هو التفويض إليه في كل حال.

ومنهم: من جعل التوكل بداية. والتسليم واسطة. والتفويض نهاية.

قال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض. فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. فالتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية. فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء. والتفويض صفة الموحدين.

التوكل صفة العوام. والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خاصة الخاصة.

التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا محمد - ﷺ - وعليهم أجمعين.

هذا كله كلام الدقاق.

ومعنى هذا التوكل: اعتماد على الوكيل، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه، وإرادة وشائبة منازعة. فإذا سلم إليه زال عنه ذلك. ورضي بما يفعله وكيله. وحال المفوض فوق هذا. فإنه طالب مريد ممن فوض إليه. ملتمس منه أن يتولى أموره. فهو رضا واختيار. وتسليم واعتماد فالتوكل يندرج في التسليم، وهو والتسليم يندرجان في التفويض. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها. وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا -رضي الله عنه-: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء. ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله. ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزيئات العالم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشيئة. ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً. ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء. فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله: إن كان قد قدر حصل توكل أو لم يتوكل، دعا أو لم يدع، وإن لم يقدر لم يحصل. توكل أيضاً أو ترك التوكل.

وصرح هؤلاء: أن التوكل والدعاء عبودية محضة. لا فائدة لهما إلا ذلك. ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له. ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة. إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء-في كتاب له- لا يجوز الدعاء بهذا. وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء. قال: لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه. لأن الداعي بين الخوف والرجاء. والشك في وقوع ذلك: شك في خبر الله. فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم، وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه. ولم يزل المسلمون -من عهد نبيهم -ﷺ- وإلى الآن- يدعون به في مقامات الدعاء. وهو من أفضل الدعوات.

وجواب هذا الوهم الباطل، أن يقال: بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه. وهو الواقع. وهو أن يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء. فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب.

وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه. فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب. وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبها. فإذا لم يجامع لم يخلق الولد.

وقضى بحصول الشبع إذا أكل. والري إذا شرب. فإذا لم يفعل ولم يشبع ولم يرو.

وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة.

وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة. فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات: لم يدخلها أبداً.

وقضى بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته.

وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها. فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوزان ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل.ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الولد، والشبع، والري، والحج ونحوها. فلابد أن يصل إلي، تحركت أو سكنت، وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت. وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضاً، فعلت أو تركت. فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق. لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه. ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها. ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها. فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به. فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربه إليه. وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملك درهماً، فسرق منه. فقال له الملك: عندي أضعافه. فلا تهتم. متى جئت إلي أعطيتك من خزائني أضعافه. فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به، واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك-لم يحزنه فوته.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه. وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره. وليس في قلبه التفات إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل.

لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله. كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعني الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في غير باب الأمر والنهي. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له. وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة السابعة: التفويض.

وهو روح التوكل ولبه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته.

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة. انتقل منها إلى درجة الرضا.

وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا -رضي الله عنه- يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل. ورضي بالمقتضى له بعد الفعل.

فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبي -ﷺ- في دعاء الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم**»[١] . فهذا توكل وتفويض. ثم قال: «**فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب**»[٢]. فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً. فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان. ثم رضني به**»[٣].

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض، قبل وقوع المقدور. والرضا بعده. وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثماني يستكمل العبد مقام التوكل. وتثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

وقول يحيى بن معاذ- وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلاً؟- فقال: إذا رضي بالله وكيلاً.

وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه. ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لا تفويض. فالتضييع في حق الله. والتفويض في حقك.

ومنه اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكل. فيظن صاحبه أنه متوكل. وإنما هو عامل على عدم الراحة.

وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريح

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وهو تتمة ما قبله.

(٣) صحيح: هو ما قبله.

من غيرها لتعبه بها. والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة. وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا لون. وهذا لون.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز: والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض. والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه. ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال له أبو سليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً، حيث أرشدتني. فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم. وهم يظنون أنه إلى الله وعلامة ذلك أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره همه وبثه وخوفه. فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله.

ومنه: اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبده -مما يحبه ويكرهه- بالعزم على ذلك، وحديث النفس به. وذلك شيء والحقيقة شيء آخر. كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال: أرجو أن أكون أعطيت طرفاً من الرضا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا عزم منه على الرضا وحديث نفس به. ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء. وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته.

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل. فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله. فيظن أنه متوكل. وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

التوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى:

فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم الغفار، والتواب، والعفو، والرءوف، والرحيم وتعلق باسم الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن. وتعلق باسم المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع. من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء القدرة، والإرادة وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى. ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى.

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون. كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خبرا.

فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله. ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين. والله أعلم[1].

(١) مدارج السالكين (١١٢/٢).

الولي

وفي الكتاب: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

قال الحليمي: الولي هو الوالي، ومعناها مالك التدبير، ولهذا يقال للقيم على اليتيم ولي اليتيم، وللأمير الوالي.

وقال أبو سليمان: والولي أيضًا: الناصر، ينصر عباده المؤمنين، قال الله -عز وجل-: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال -جل وعلا-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١]، المعنى: لا ناصر لهم[١].

ثم يجب على المؤمنين قطع ولاية الكافرين كما قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨].

أي: فليس من حزب الله في شيء ثم استثنى حال التقية فقال: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران:٢٨]، قال الحسن: التقية ماضية إلى يوم القيامة وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٨]، أي: أولياء ودخلاء، وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف:٥٠]. وهذا كله متفق عليه، والآي في هذا المعنى كثيرة.

ثم يجب على كل مؤمن أن يوالي من تولّي، وأن ينصره قال رسول الله -ﷺ-: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[٢]. الحديث.

وقال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»[٣]. وشبّك بين أصابعه[٤].

❁❁❁

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٦٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) في المظالم، باب: أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٨) في الصلاة، باب: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ومسلم (٢٥٨٥) في البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، من حديث أبي موسى -رضي الله عنه-.

(٤) الأسني في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٠٣).

الوهــاب

نطق به التنزيل فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص:٩]، وقال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، وقال مخبرًا عن سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما. والإيهاب: قبول الهبة والاستيهاب: سؤال الهبة، وتواهب القوم إذا وهب بعضهم لبعض. وقيل: هب زيدًا منطلقًا، بمعنى: احسب، يتعدى إلى مفعولين، ولا يستعمل منه ماض ولا مستقبل في هذا المعنى ذكره الجوهري.

وهذا الاسم في حق الله تعالى يدل على البذل الشامل، والعطاء الدائم بغير تكلف ولا عرض ولا عوض. وكل من يعطي سواء فإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا أو في الدين عاجل أو آجل؛ فإذًا لا يتصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في الله وحده. لأن الهبات تُدرّ منه سبحانه على عباده في دنياهم وأخراهم دون انقطاع ولا نفاد، بل في نماء وازدياد، مع الآباد. ويتضمن الفضل والكرم وسعة الملك والعدل إلى غير ذلك قال ابن العربي: واختلف علماؤنا: هل هو من صفات الذات أو من صفات الفعل؟ فمن رده إلى صفة الذات رأى أن الهبة هي قول الواهب: أعطيتك أو وهبتك وقد قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:٢٩]، فرجع ذلك إلى القول، وكان ذلك من صفات الذات. وهذا لا يصح؛ لأن قول الواهب وهبتك إخبار عن الهبة أو أمر بها والهبة في الحقيقة ما يصل إلى العبد أو ينتفع به. فالهبة فعل محض وحكمها في وقوعها بأمر الله كحكم سائر أفعاله التي يقول لها: كن فيكون. وهذا الاسم يشعر بهبة وموهوب له مفتقر إلى الهبة وإلى الوهاب سبحانه، قال الخطابي: لا يستحق أن يسمى وهابًا إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطاء؛ فكثرت نوافله ودامت. والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً ونوالاً في حال دون حال ولا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولدًا لعقيم، ولا هدى لضال، ولا عافية لذي بلاء والله سبحانه يملك جميع ذلك. وسع الخلق جوده ورحمته، فدامت مواهبه، واتصلت مننه وعوائده، وقال القاضي أبو بكر بن

العربي: ولا تكون الهبة منه سبحانه والعطاء إلا أن يتعلق بنوع ما يكون به منعمًا محسنًا، وذلك بما لا ألم فيه ولا ضرر. فإذا كان ما يخلق ضررًا وألمًا لم تكن هبة. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، فعلمهم وتعبدهم كيف يسألونه الإنعام والإحسان على وجه لا يكون فيه مكر ولا استدراج كما فعل بالكفار حين خلق لهم ومكنهم مما فيه ضررهم وهلكتهم. فالمطلوب منه هبة يكون مآلها كحالها، لا تنفصل، ولا تتغير، ولا يقترن بها ضرر ولا ألم[١].

وقال أبو سليمان: لا يستحق أن يسمى وهابًا إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله، ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً ونوالاً في حال دون حال، ولا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم ولا ولدًا لعقيم ولا هدي لضال، ولا عافية لذي بلاءٍ.

والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك، وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده[٢].

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو المنفرد بالهبات، وأنه الوهاب على الإطلاق، وأن ما وصل إلى العبد من أي وجه وصل وعلى أي حال كان من حلال أو حرام، أو بسبب أو بغير سبب، فإنما هو هبة الله سبحانه وعطيته ومنحته، وله سلبها وإبقاؤها، ثم هو مندوب للاتصاف بهذا الوصف وهذا الوصف داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]. وكل ما وَدَّى العبد واجبًا فليس بهبة، وكل ما أولى من معروف لم يجب عليه يبتغي به وجه الله تعالى فهو هبة مندوب إليها. وقد قال -ﷺ-: «**يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة: فكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»[٣]. فعلى قدر الإكثار من هذا وشبهه يكون واهبًا ووهوبًا ووهابًا ووهابة، فهب ما وهبك الله، ولا تشح بما جعلك الله فيه مستخلفًا، فقد وعد منفقًا خلفًا، وممسكًا تلفًا. وإن كنت ممن وهبه الأعلاق النفيسة

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٣٩٦) بتصرف.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٧٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٢٠) في صلاة المسافرين، باب: استحباب صلاة الضحى، من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-.

من العلوم الموصلة إلى الدرجات الرفيعة، فكن وهابًا للمحتــاجين منهـا مـا لا غنـى لهـم عنها، ولا تكن من الكاتمين للأنوار فتلجم يوم القيامـة بلجـام مـن نـار، ولا تهـب أيضًـا غوامض الأسرار لمن ليس لها بأهل فتزيده جهلاً على جهل؛ فوضع العلم في غـير أهلـه غاية الظلم، كما أن كتمانه من مستحقيه جور في الحكم، فكن ذا نظر وثبات فيما تهبـه من الهبات، فبهذا تكون متعرضًا للهبات العلية الدنيوية والأخروية. وعليك بملازمـة هـذا الاسم العظيم تحظ بالمال الكثير الجسيم، يحكى أن الشبلي سـأل بعـض أصحـاب أبي علي الثقفي -رحمه الله- فقال: أي اسم من أسمائه يجري علـى لسـان أبـي علـيّ أكـثر فقال الرجل: اسمه «الوهاب». فقال الشبلي: لذلك كثر ماله. ومن تحقـق أنـه الوهـاب، لم يرفع حوائجه إلا إليه، ولم يتوكل علـى أحـد إلا عليـه، فربمـا ينـال بحكـم الخشـوع والتذلل[1].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٤٠٠).

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
١٠	منهجي في الكتاب
	الباب الأول **الدارسة النظرية**
١٥	**الفصل الأول** – قاعدة مهمة في فهم الأسماء الحسنى
١٧	**الفصل الثاني** – بيان أساس دعوة الرسل
٢٢	**الفصل الثالث** – الخلف أعلم من السلف
٢٥	**الفصل الرابع** – المعطلة عكس طريقة الرسل
٣٣	**الفصل الخامس** – الأدلة العقلية على إثبات صفات الله
٣٩	**الفصل السادس** – أسماء الرب تدل على صفات كمال
٤٩	**الفصل السابع** – الاسم يدل على دلالتين أخريين
٥٢	**الفصل الثامن** – أسماء الرب من أوصافه لا تشتق من مخلوقاته
٥٧	**الفصل التاسع** – الأسماء والصفات مقتضية لآثارها من العبودية
٦٣	**الفصل العاشر** – ما يجري صفة أو خبرًا على الرب
	الباب الثاني
٧٧	**الفصل الأول** – في معرفة حقيقة التأويل
٨٠	**الفصل الثاني** – في انقسام التأويل إلة صحيح وباطل

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث – في أن التأويل شر من التعطيل	٨٩
الفصل الرابع – في التأويل إخبار عن المتكلم	٩٤
الفصل الخامس– الرد على نفاة الصفات	٩٦
الباب الثالث **الدراسة التطبيقية**	
أسماء الله الحسنى	١٠٣
الفهرس	٤٦١

الترتيب الأبجدي

الله	١٠٣	الجبار	١٣٨	الخافض الرافع	١٨٧
الأكرم	١١١	الجليل	١٤١	الخالق	١٩٠
الأول والآخر	١١٢	الحافظ	١٤٧	الخبير	١٩٣
البارئ	١١٤	الحسيب	١٤٨	الخلاق	١٩٥
الباسط القابض	١١٥	الحفي	١٤٩	الجميل	١٩٦
الباطن	١١٨	الحفيظ	١٥١	ذا الطول	١٩٧
الباعث	١٢٠	الحق	١٥٣	ذو الجلال والإكرام	١٨
الباقي	١٢١	الحكم	١٥٧	ذو انتقام والمنتقم	٩٩
البديع	١٢٢	الحكيم	١٥٩	الرازق	٢٠١
البر	١٢٣	الحليم	١٧٠	الراشد والرشيد ...	
البصير	١٢٥	الحميد المجيد	١٧٢	الرب	٢٠٤
التواب	١٣١	الحي القيوم	١٨٣	الرحمن الرحيم	٢٠٧
الجامع	١٣٦	الحيي	١٨٦	الرزاق	٢١٢

الرفيع ٢١٤
الرفيق ٢١٥
الرقيب ٢١٧
الرؤوف ٢٢٥
السبوح ٢٢٧
سريع الحساب وسريع العقاب ٢٢٨
السلام ٢٢٩
السميع ٢٥٢
السيد ٢٦٢
الشافي ٢٦٣
شديد البطش واليم الأخذ ٢٦٤
شديد العقاب ٢٦٥
الشهيد ٢٦٧
الصادق ٢٧٢
الصبور الشكور ٢٧٥
الصمد ٣٣٠
الظاهر ٣٣٢
الضار النافع ٣٣٣
العالم ٣٣٥
العدل ٣٣٦
العزيز ٣٤٠
العظيم ٣٤١
العفو ٣٤٢
العلي الأعلى ٣٤٤
العليم ٣٤٦
العلام ٣٤٧
الغافر ٣٤٨
الغالب ٣٤٩
الغفار ٣٥٠
الغفور ٣٥٢
الغني ٣٥٤
الفاطر ٣٦٠
فالق الاصباح وفالق الحب والنوى ٣٦١
الفتاح ٣٦٣
القادر ٣٦٥
القاهر القهار ٣٦٦
القدوس ٣٦٧
القديم ٣٦٨
القريب ٣٧١
القوي ٣٧٢
الكاشف ٣٧٣
الكافي ٣٧٤
الكبير المتكبر ٣٧٥
الكريم ٣٧٦

المكتبة التوفيقية المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

الكفيل	٣٧٨
اللطيف	٣٧٩
المبدئ المعيد	٣٨٧
المتعال	٣٨٨
المتين	٣٨٩
المجيب	٣٩٠
المجيد	٣٩١
المحيط	٣٩٤
المحرم	٣٩٥
المصور	٣٩٦
المحصي	٣٩٧
المحيي المميت	٣٩٨
الملك المليك	٤٠٠
المعز المذل	٤٠٢
المعطي المانع	٤٠٤
المقتدر	٤٠٦
المقدم المؤخر	٤٠٧
المقيت	٤٠٩
المنان	٤١٠
المهيمن	٤١٣
المؤمن	٤١٥
المولى	٤١٦
النصير	٤١٧
الواحد الأحد	٤٢٠
الهادي المضل	٤٢٣
الوارث	٤٢٦
الواسع	٤٢٧
الواقي	٤٢٨
الوتر	٤٢٩
الودود	٤٣٠
الوكيل	٤٣٤
الولي	٤٥٦
الوهاب	٤٥٧